

نذار بلیس
(۱)
مہمات
سروبہ

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/القطب محمد القطب طبلية

القاهرة

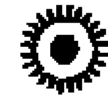
مهمة سرية

قصـــــة ضابط مخـابرات



بقـــلم

القبطان ايليس زخارياس



SECRET MISSIONS

The Story of An Intelligence Officer

by:

Captain Ellis M. Zacharias



(الجزء الأول)

اصـــدار

شركة ج٠ب٠ بوتمان وأولاده بنيويورك

هـذا الكتـاب

كتاب صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٦ ولم يكن مؤلفه قد نفض يديه تماما من العمل فىالمخابرات الامريكية ، وكان الرجل يكتب فى الواقع قصة حياته طوال ربع قرن مضى بدأ باليوم الرابع من أكتوبر سـنة ١٩٢٠ عنـدما اسـتدعى بامر وزير البحرية لمقابلة رئيس مخـابرات الاسـطول بوزارة البحرية ليعلنه باختياره للسفر الى اليابان لدراسـة اللغة اليابانية ، وانتهى به المطاف فى قصته الطويلة فى أغسطس سنة ١٩٤٥ عنـدما تم الانتصـــار على أمبراطوريـة الشـمس المشرقـة (اليابان) .

فالكتاب اذن قصة حيـاة رجل عمل فى المخابرات وتولى عدة مهام للجاسوسية أو مكافحتها ، وليس هذا بجديد فى هذه السلسلة من الكتب التى ترجمت بوساطة هذه الهيئة وتولت اصدارها من أعوام ، وفى ضوء هذا لم يكن الكتـاب يتطلب تقديما خاصا اللهم لوجاز أن يقصر الحـديث على ابراز بعض النواحى العملية التى فيه ...

ولكن الكتاب فى الواقع أهم من هذا بكثير ، وأول ما يبرز كتاب القبطان ايليس زخارياس (زاك) أن الدولة ، أى دولة ، يجب أن تقدر عدوها الرئيسى الذى يمكن أن تخوض ضده ذات يوم معركة حياة أو موت بعد هذا اليوم أم قرب ، ثم تعد أفرادا كثرا لدراسة هذا العدو ، دراسـة لغته وآدابها وفلسفاتها ، دراسة النـاس وتقاليـدهم وعاداتهم ، والتعمق فى دراسـة

نفسياتهم ومشاعرهم ، وأن تصل هذه الدراسة الى الحد الذى تتوافر معه القدرة على تقدير ـ ولا يجوز أن أقول التنبؤ وان كنت أعنيه ـ ما يمكن أن يقوم به هـذا العدو فى كل موقف معين ٠

ويقدم « زاك » قصة تنظيم مخـابرات البحرية والهيئات الاخرى التى تعمل فى ميدان المخابرات على مختلف صـورها ومتباين ألوانها وما يقوم بينها من تنافس وتسابق ، وما يكون لهذا من ضرر ٠

ويعرض المؤلف الجماعات التى تكونت للترجمة ٠٠ والتى بدأت باعداد قليلة ثم امتدت واتسعت لمواجهة الاعباء التى كانت تتضاعف بسرعة ، وكان هؤلاء المترجمون يترجمون الاوراق والوثائق المضبوطة كما يسهمون فى استجواب الاسرى ، وكان هذا العمل يمكن من سرعة امداد القيادات التى فى مسرح الحرب بالمعلومات التى تجىء فى اعتـرافات الاسرى أو التى يمكن الخروج بها من دراسـة الوثائق والمضبوطات ، وكان لسرعة وصول هذه المعلومات الى القيادات المقاتلة أهميته البالغة ودوره فى كسب المعارك التالية ٠

وبهذه المناسبة فاننا نعلم من الكتاب كيف كان الامريكان قد استطاعوا الوصول الى الكود والشفرة للبحرية اليابانية ، وكيف أمكن اخفاء هذه المعرفة لسنوات طوال بل واخفائها حتى عن هيئات أمريكية حتى اطمأن اليابانيون الى أن شكوكهم فى معرفة الامريكان لشفرتهم لا تقوم على أساس ٠٠ وفى المعركة الحاسمة كانت هذه المعرفة واخفاؤها العـامل الاول لكسب المعركة وتحطيم الجانب الاقوى من الاسطول اليابانى لان القائد الأمريكى كان يذهب الى المعركة وهوعلى دراية بخطة اليابانيين،

وأى قوات هى القوات الثانوية المضللة وأين هى القوة الاساسية ومن ثم استطاع أن يبنى خطة على هذه المعلومات الدقيقة وكان من الطبيعى أن يكسب معركة التراشق بالمدافع بعد ذلك .

ويبرز المؤلف أهمية استخدام الجواسيس ويعرف كيف كان اليابانيون يستخدمون جواسيسهم فى قناة بناها على ما كشفت عنه بعض الوثائق الالمانية التى ضبطت بعد الحرب ، وهنا يقدم وصف فردريك الاكبر لخصمه الجنرال سوبيس من أن سوبيس كان يسير يسبقه مائة طاه على حين أنه هو (فردريك) يسير وامامه ١٠٠ جاسوس .

وقد يكون أكمل ما فى كتاب زاخارياس مشروعه الذى قدمه للحصول على موافقة السلطات المختصة ببدء الحرب النفسية ضد اليابانيين (فصل ٣١) ومشروعه لتنظيم احتلال اليابان وكلا المشروعين يقدمان النموذج الطيب لتقدير الموقف وايضاح « طرق الحل المفتوحة » طرق العمل من وجهة نظر المخابرات فى ضوء الدراية بطبيعة (الناس) اليابانيين وتقاليدهم وعاداتهم .

وفى المشروع الخاص بحرب الدعاية المشروع ١ ــ ٤٥ يقدم لنا واجب الشخص الذى يتولى الاحاديث الاذاعية ثم يعود فى الفصل ٣٢ فيقدم الاصول التى يجب أن توضع موضع التقدير عند كتابة مخطوطات الاذاعات وكيف يجب أن تعضد السياسة والتوجيهات القائمة وأنها يجب أن لا تكشف عن شىء يعرض تدابير الأمن للخطر وكيف يجب أن تحتوى على التأثير الزمنى والتأثير السيكلوجى ويجب أن تتجنب اغضاب جانب خاص من الصحف ومن المعقبين السياسيين فى أرض الوطن .

وقد اختتم الكتاب في لحق به أربعة عشر حديثا اذاعيا تستحق الدراسة كمجهود اذاعى كان له نصيب كبير في النصر لانه في الواقع قد عاون على تحطيم الجهة الداخلية وعضد الجانب الذى كان يميل الى ايقاف الحرب وتجنب مالا داعى له من خسائر تتزايد مع استمرار الحرب في الوقت الذى كان من المعروف فيه أن اليابانيين سيقاتلون لآخر رجل ولآخر طلقة ولآخر موطىء قدم •

وأهم ما نعرفه من الكتاب في هذه المرحلة من الحديث أن القاء القنبلتين الذريتين على هوريشيما ونجازاكى لم يكن من سبب له ، وأن اشتراك الاتحاد السوفييتى في الحرب بعد محادثات بوتسدام لم يكن من داع له لأن اليابان كانت قد بدأت البحث عن وساطة للمفاوضة وتخفيف التسليم بلا شرط، بل أنها كانت قد وسطت الاتحاد السوفشييتى نفسه في هذه المفاوضات •

فالكتاب اذن يثير عدة موضوعات لها أهميتها بالاضافة الى الجانب الخاص بالمخابرات وأعمال الجاسوسية والحصول على المعلومات ومن أجل هذا كله كان الكتاب يستحق المطالعة والدراسة •

على أنه بسبب كبر حجم الكتاب سنقدمه في جزئين متتاليين ••

والله ولى التوفيق

القسم الأول

فى التمهيد للصراع

١

مأمورية الى طوكيو

في الرابع من أكتوبر سنة ١٩٢٠ سلمني الكابتن أندرو ت . لونج من الأسطول الأمريكي ومدير المخابرات البحرية في مكتبه بوزارة البحرية أمرا أصدره جوزيفوس دانييلز وزير الأسطول ، جاء فيه :

« بعد أن يوضح لك مدير المخابرات البحرية الأمر ، عليك أن تعتبر أنك قد انتهيت من وظيفتك الحالية ومن ثم يجب أن تسافر الى طوكيو ببلاد اليابان بقصد دراسة اللغة اليابانية والشعب الياباني ، وهذه المأمورية القصيرة المدى والتي ستقضيها في دراسة على الساحل بعيدا عن الأسطول وعن البحر انما هي للصالح العام » ..

وكان من الواضح أن هذا الأمر الذي أصدره الوزير دانييلز انما هو جواز سفر الى « المغامرات » وكان مستر دانييلز بجرة قلم قد فتح أمامي دنيا جديدة تختلف أيما اختلاف عن الحياة الرتيبة والتعليمات «الروتينية» التي تملأ حياة ضابط بحري ، صحيح قد تكون في حياة الضابط البحري بعض مناسبات مثيرة هي التي توجد الحيوية في هذه الحياة : رحلات الى جزر نائية ، مناورات في البحر الفسيح ، حفلات استقبال ، فتيات حسان، ولكن عندما يكون ضابط البحر على سفينة تمخر عباب البحر فان أفق حياته يقف عند كوبري القيادة في أعلى السفينة ، أو عند الغرف التي تدور بها المحركات .. أو عند أبراج المدافع ..

وعادت لي عندما وقفت في غرفة الكابتن لونج أطالع الورقة التي تحمل أوامر وزير البحرية ، عادت لي ذكريات اليوم الذي نسيته منذ بعيد ، اليوم الذي فكرت فيه لأول مرة أن أكون بحارا ، كنت اذ ذاك في الثامنة من عمري وكنت من حافة مياه ساحل بلدتنا في فلوريدا أرقب السفن الأمريكية وهي تتوزع للحرب الاسبانية الامريكية ، وكانت السفن لا البحر هي التي سلبت لبي وسيطرت على تفكيري منذ تلك اللحظة ..

وكنت فى أغسطس قد ألحقت بمخابرات الاسطول لعمل مؤقت ، وكنت فى حيرة أحاول أن أعرف معنى كلمة « مخابرات » × ، وكنت قد أحسست بالشكوك التى ساورت زملائى الضباط أنفسهم عندما صدر لى الأمر باختيارى لهذا العمل الموقوت ، ولهذا فاننى فى الواقع قد انصرفت للتفكير فى مدة هذا « العمل الموقوت » دون التفكير فى طبيعة العمل نفسه ٠

ولكن عندما وقفت فى مكتب القبطان لونج أدركت بعض التعقدات التى فى الكلمة « مخابرات » على أن الرجل حاول أن يثنينى عن أن أصور لنفسى شيئا أكثر من الواقع لأنه قال :

ـ ولو أنك قد ألحقت بالمخابرات الا أنك ستذهب الى اليابان لدراسة اللغة لا كضابط مخابرات وأنصحك أن تتباعد عن أعمال المخابرات ما استطعت ، اننا نطلب منك أن تعود لنا وقد توافرت لك الدراية باللغة اليابانية وبطبيعة الشعب اليابانى ، ولا نتوقع منك أن تقيد نفسك الى أى نشاط آخر ، هذه هى كل أوامرى لك ٠٠

ولكن لا شك أن القبطان لونج بمحاولته أن يقلل أهمية ربطى الى عجلة المخابرات قد فتح عينى بدرجة أكبر الى كل الاحتمالات والامكانيات ، ووجدتنى أهمس لنفسى :

ـ كيف يمكن أن تنفصل محاولة تعلم لغة أجنبية والتعرف على طبيعة شعب أجنبى ٠٠ كيف أن ينفصل هذا عن عمل المخابرات ؟ وكيف يمكن ـ حتى لو أردت ـ أن أبتعد عن دراسة اليابان وأنا أتعلم اللغة اليابانية .. والعادات الشعبية اليابانية ؟ ان « المأمورية » التى أرسل اليها لهى مهمة للمخابرات فقط فى صورة مستحدثة مهما كان ظن مدير المخابرات البحرية بها ومهما كانت درجة تقديره لأهميتها ٠

وقد تبع مقابلتى للقبطان لونج حادث صغير ، فقد دفعت دفعا لان أراجه الخصم ٠٠ المخابرات اليابانية ، فقد اقترحوا على أثناء وجودى بواشنجطون انتظارا لانهاء أوراقى للسفر أن أقطن طابقا صغيرا كضابط أعزب ، والطابق فى مبنى على مقربة من نادى الجيش والبحرية ، ولست

× استخدمت الكلمة فى هذا الكتاب لتعنى : (المعلومات ـ المعرفة ـ العمل المحصول عليها وجمعها) ٠

أدرى لماذا كان هذا الاختيار ولكن الذى حدث هو أن الطابق الذى قيل لى أن أقيم به كان يعلو مسكن الكابتن « أوييدا » الملحق البحرى اليابانى بواشنجطون وكانت مخابراتنا البحرية تعرف أنه رأس منظمة الجاسوسية اليابانية فى العاصمة ، وكنا نبقى عيننا ساهرة على تحركات الكابتن « أوييدا » وقد قيل لى بعد أن وجهت الى استئجار ذلك الطابق بأن أبعث بتقاريرى عن أى شىء ألاحظه طوال اقامتى (فوق رأس) الكابتن أوييدا .

واهتممت بهذا الواجب سيما وقد صحب هذا الاهتمام بدافع من حب الاستطلاع ، وعرفت بسرعة أن الكابتن أوييدا رجل أعزب مرح كان يستمتع بعزوبته فى الولايات المتحدة أيما استمتاع ، وليلة اثر أخرى كنت أسمع ضحكات الكابتن أوييدا مصحوبة بضحكات عالية نسائية تنفذ الى من النوافذ المفتوحة ، ولم يتطلب الامر جهدا كبيرا لاصل الى أن كل زائرات الطابق الذى يقيم به أوييدا من الفتيات اللاتى يعملن فى وزارة البحرية ، وكانت بينهن فتاة تتولى أعمال الاختزال السرية بمكتب وزير البحرية ، ولم يكن غريبا بعد هذا الاكتشاف أن تحدث بعض تنقلات فى فتيات السكرتارية ، ولكننا مع هذا لم نكن نود أن نوقف استمتاع أوييدا الاعزب بحياته وكان مما يسرنا أن نستطيع تزويده بمن يخففن عنه فقدان من نقلن من العمل بواشنطون ، فتاة مكان فتاة .. ولا ضير فى هذا .. ومن ثم عادت حياة القبطان أوييدا الاجتماعية تسير فى الاسلوب العادى لصالحه ولصالحنا فى نفس الوقت .

وقد كشفت لى هذه الحادثة البسيطة عن الناحيتين المختلفتين فى المخابرات ففى مكتب القبطان لونج كنت أوجه لما نقول عنه بلغة المهنة « **المعلومات الايجابية** » Positive Intelligence ، ولكن عندما كنت أسكن فى الطابق الذى يعلو طابق القبطان أوييدا فاننى كنت أعمل فى « **المعلومات السلبية** » Negative Intelligence **وقليل من الناس هم الذين يدركون أنه فى الميدان الفسيح للنشاط فى المخابرات يوجد فاصل حاد بين هاتين الصورتين من صور العمليات ، ويمكن أن نعرف « المعلومات الايجابية » بأنها : جمع بيانات عن العدو (المعروف) أو عن العدو (المتوقع) ، عن نواياه ، قوته ، تنظيمه ، وذلك لمعاونتنا فى وضع خططنا تبعا لهذه المعلومات ، وهكذا تكون مواد المعلومات هى ما نجمعه والصورة التقديرية لما نستنبطه تبعا للحصيلة التى نجمعها .**

أما « المعلومات السلبية » فهى جمع بيانات عن العملاء الاجانب لمنعهم من الحصول على نفس المعلومات عن نشاطنا فى الطابع الذى نحاول أن نتعرف عليه من نشاطهم .

(يتلاحظ هنا أنه يمكن أن يقال بأن هناك « مخابرات ايجابية » ، و « مخابرات سلبية » عندما تنتقل المرحلة من جمع بيانات الى تحقيق الوصول الى المعلومات) .

ولا صلة لأى من المرحلتين بعمليات (العباءة والخنجر) العمل الذى يحظى بدعاية واسعة فى مطلع كل حرب ، فان الغالبية العظمى للمعلومات « القاعدية » الاساسية انما تجمع من المراقبة المكشوفة ، ومن دراسة كتب المراجع ودراسة المؤلفات وقراءة الصحف فى البلاد الاجنبية والانصات لاذاعات الراديو ومقابلة الزوار والسواح ، ولكن جمع المعلومات بطرق سرية ليس من أعمال المخابرات فهذه عملية جاسوسية ، ومع أن بين العمليتين علاقات وثيقة ولكن بينهما أيضا فوارق بالغة الدقة .

وعندما تسلمت فى واشنجطون أوامر السفر الى طوكيو كنت قد عرفت عن المخابرات غاية ما يمكن أن يعرف الشخص فى شهرين نتيجة الدراسة المعنى بها مع تجربة عملية هى التى أشرت اليها فى موضوع القبطان أوييدا وعندما وصلتنى الرسالة المقتضبة التالية بدا لى أن كل شىء قد مهد لأن أحاول استخدام كل ما تعلمت ، وكانت الرسالة تقول :

« طلبت من وزارة الحربية أن تنظم أمر نقلك على سفينة النقل « شيرمان » التى تبارح سان فرنسسكو يوم ، أو قرابة يوم ، ١١ من أكتوبر سنة ١٩٢٠ قاصدة اليابان » !!

* * *

وعندما وصلت اليابان كان « المد » العسكرى يشتد نتيجة لحملة سيبيريا التى كانت تتحول الى حملة كثيرة الخسائر بالنسبة لليابان ، وقد نستطيع أن نتذكر الاضطراب فى سيبيريا الذى تبع الثورة البلشفية ، كان هناك بعض أسرى الحرب من التشسك مما دفع الحلفاء الى أن يبعثوا بقوة الى سيبيريا لتمكين هؤلاء الاسرى من النجاة ، وكانت اليابان قد

تلقت دعوة من بريطانيا ومن الولايات المتحدة لتسهم فى الحملة بسبعة آلاف جندى ، وقد رحبت السلطات العسكرية فى طوكيو بالدعوة ، فقد كان العسكريون مزهوين بالنصر على ألمانيا الذى أكسبهم أرضا لها قيمتها فقد كان العسكريون اليابانيون تواقين للحصول على قطعة أرض على الساحل الاسيوى ، ولكنهم بدلا من أن يرسلوا سبعة آلاف أرسلوا سبعين ألفا ولكن هذه القوة الكبيرة لم تمكن اليابان من أن تحتل الشرق الاقصى الروسى ·

وشجع فشل العسكريين قيام فورة بين الاهالى المدنيين وعقدت الاجتماعات فى حديقة هيبيا Hibiya وتحدث المتكلمون من السياسيين وأعضاء النقابات وأرسلت الالتماسات للحكومة لاستدعاء الحملة العسكرية اليابانية من سيبيريا ·

ووصلت اليابان فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ وهذه الفورة فى مراحلها الاخيرة ، كانوا قد قالوا لى فى الولايات المتحدة أن السلطات العسكرية هى التى تسيطر على اليابان وأن الزمرة العسكرية تعتلى أكتاف الشعب ولكن عندما اتصلت بالسلطات العسكرية والبحرية فى طوكيو أدركت أن فى هذا الاعتقاد تجسيما لا مبرر له ، فقد كان أفراد الشعب يعبرون عن غضبهم بوسائل شتى ، وكان من الخطر أن يبدو ضابط فى كسوته العسكرية فى الطريق العام ولا أن يعلن الضباط عن رتبهم العسكرية على اللافتات الصغيرة التى تعلو أبواب دورهم ، وقد أرغم رئيس هيئة أركان الحرب على الاستقالة وخفضت التقديرات العسكرية فى الميزانية ، وكانت هذه ــ على ما قال لى كلّ من اتصلت بهم من العسكريين ــ سفاهة لم تحدث من قبل قط ·

ولم أستطع فى الواقع أن أدرك الاهمية السياسية لهذه الحوادث وفشلت فى التعرف على القوى التى تغلى فى أعماق البركان الامبراطورى اليابانى ، على أنه كالعادة بالنسبة لكل قادم جديد لبعثة دبلوماسية تخاطفتنى دوامات الدبلوماسية ، كنت قد قدمت نفسى للملحق البحرى القبطان ادوارد هوى واطسون وأقمت صداقة مع كل صغار السن من رجال السفارة مما أفسح لى الطريق الى الحياة الاجتماعية فى طوكيو التى كنت تواقا لها ، وأجد اليوم ــ عندما أراجع صفحات « دفتر المواعيد » عن أيامى الاولى فى اليابان ــ شيئا مثل هذا ··

٧ من فبراير سنة ١٩٢١ حفل استقبال فى السفارة الفرنسية

٨ من فبراير سنة ١٩٢١ عشاء بمنزل فان هورن سكرتير السفارة الهولندية ٠

٢١ من فبراير غذاء مع القبطان واطسون ٠

وقد كان من الصعب أن أتكيف مع اجراءات الحياة الاجتماعية الصلبة التى يبدو أنها تطرب بعض دبلوماسيينا صغار السن ، وكقادم جديد الى ميدان الدبلوماسية كان من الضرورى أن أرتكب بعض أخطاء لا سبيل الى تلافيها ، وحتى عندما قص بعض رجال سفارتنا على القنصل أننى قد تجاسرت بالتقاط صورة لحفل فى حديقة قصر الامبراطور قهقه ضاحكا وطلب ممن ينقلون اليه النبأ أن يتناسوه ٠

وقد وجدت فى القبطان واطسون رئيسا كريما وموجها نافعا لاعدادى « لمشاهد المسرح الخلفى » فى السياسة البحرية اليابانية ، وكان القبطان واطسون واحدا من أنبه الملحقين البحريين وأكثرهم يقظة وكانت له شعبية وسط الضباط البحريين اليابانيين وكانوا فى حيرة من أن الرجل كان يحدثهم بالكثير ولكنهم لا يجدون فى هذا الكثير عندما يحللونه تحليلا دقيقا الا أقل القليل ، وذات مرة زاره رئيس المخابرات البحرية اليابانية وكان يريد أن يبحث مسألة خاصة يتطلب بحثها كياسة ودهاء ، ولدهشة رجل المخابرات اليابانى أن القبطان واطسون راح يتحدث عن الموضوع فى افاضة ولمدة ساعة كاملة وعندما قام رجل المخابرات اليابانى ليبارح الغرفة لم يتردد أن يقول لواطسون بصراحة :

ـ أدى ، ليس لى أن أشكو ٠٠ ولكننى لا أستطيع أن أنكر أننى لم أستطع أن أفهم شيئا مما قلت لقد حدثتنى بقصة طويلة وتنقلت بى بسرعة من نقطة لاخرى وعدت الى الكثير من النقاط أكثر من مرة الى حد أن الامر أشكل على ٠

والواقع أن هذا الاسلوب كان من بين الحيل التى يحتفظ بها واطسون فى « كم » كسوته العسكرية ، وكان يحتاج مثل هذه الحيل ليستطيع أن

يقوم بواجبه ، فعندما وصل اليابان كانت ملفات المكتب ليس بها غير بضعة أوراق لا قيمة لها ، وعندما عرف من سلفه أن هذا هو كل ما فى الملفات ، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول :

ـ هل تعنى أن هذه الاوراق هى كل المعلومات التى حصلت عليها فى الثلاث السنوات التى قضيتها فى طوكيو ؟!

ومن المدهش أن الآخر قال لتوه :

ـ وهل كنت تريد أن أحاول أخذ معلومات من ملفات دولة حليفة أثناء الحرب ٠

وهكذا اضطر واطسون أن يبدأ من أول السلم ولكن عندما جاء دور نيترك طوكيو كانت ملفاتنا متضخمة بالاوراق والمعلومات والوثائق وكان الاسطول اليابانى موضحا بدقة فى مكتبنا ٠

وكان أول عمل قام به عند وصولى أن يعرفنى بكبار رجال البحرية اليابانيين ، وقد قمنا بزيارة تقليدية قصيرة لوزير البحرية ورئيس هيئة أركان الحرب للبحرية ، ولكن قمنا بزيارة طويلة جدا لجوهو كيوكو رئيس المخابرات البحرية اليابانية ، وأدركت لاول وهلة الجدية التى يأخذ بها اليابانيون أعمال المخابرات البحرية على خلاف ما نعالج به نحن مثل هذه الامور الهامة ٠

وقد ذهبنا الى مبنى وزارة البحرية وولجنا الباب الرئيسى وكان هذا آخر ما يسمح لنا بدخوله فقد وجهنا الحارس الى غرفة الانتظار وأخذ من كل منا بطاقة زيارة ثم غاب وعاد ومعه ضابط صغير سألنا عن سبب الزيارة ثم انحنى مودعا ، ولم نره بعدها ، بل جاء ضابط آخر هو الذى قادنا الى الطابق الثانى حيث يوجد مكتب رئيس المخابرات البحرية ٠

وقد استقبلنا عند الباب ضابط يابانى يرتدى الكسوة العسكرية لقبطان ، وقد مد يده مرحبا والابتسامة تعلو شفتيه ٠

ـ تسرنى زيارتك يا ايدى ٠٠

وتكلم الرجل بانجليزية سليمة ، وقد بعثت ابتسـامته الهدوء الى نفسى ·

والتفت واطسون الى

ـ هذا هو القبطان كيشيسابورو نومورا

ثم دار بوجهه نحو القبطان اليابانى

ـ وهذا هو الملازم زخارياس الطالب الجديد لدراسة اللغة اليابانية الذى حدثتك عنه ·

وهذا الجو الودى الذى وجدته فى أول لقاء مع السفير فيما بعد أدميرال نومورا قد بقى طوال اقامتى فى اليابان بل والى وقت طويل بعدها ، وقد وجدت فى نومورا يابانيا كان الطابع الغربى فيه شيئا أكثرمن مجرد تقاليد وعادات ، كان نومورا رجلا واسع الافق حـاضر الذهن ، وكان للرجل ثقله فى أى تخطيط يجرى فى داخل ذلك المبنى ·

* * *

وكنـا اذ ذاك فى المرحلة التى وصفهـا فيمـا بعـد ياماتواشيهاشى (سكرتير الوفد اليابانى لمؤتمر واشنجطون البحرى لتحديد قوى أساطيل الدول الكبرى) بمرحلة المغامرات الدبلوماسية ، ففى لندن وواشنجطون وطوكيو كانت مكاتب المخـابرات البحرية تقوم بمنـاورات لتتعرف على المقترحات والمشروعات التى تفكر الدولتـان الاخريتـان الذهاب بهـا الى المؤتمر ، وكان القبطان واطسون مشغولا بالتعرف على ما يمكن أن تـكنه الخطة اليابانية والتى كنا نعرف عنها أكثر مما كان اليابانيون أنفسـهم يعرفون برغم النقص فى تنظيمنا للعمل ، وكانت الرسائل التى ترسل من وزارة الخارجية بطوكيو الى سفارتيها بلندن وواشـنطون قد التقطت وحلت شفرتها ، وقد جاءت قصة هذا فى افاضة ضمن الكتاب الذى كتبه الرائد (ميجور) ياردلى بعنوان (الغرفة الامريكية السوداء) ، وقد أدهشنى الكشف عن مثل هذا النشاط فضلا عن الكشف عن تفاصيله فى افاضة وبصراحة تامة ، وقد حدث مثل هذا أيضا أمام لجنة الكونجرس التى كانت تبحث نكبة بيرل هاربر ، ذلك لأن الافصاح عن مثل هذا النشاط يعطل من اخفاء أى نشاط مماثل فى وقت مقبل ، ولم أفهم كذلك سبب عـدم متابعة وزارة الخارجية الامريكية لهذا النشاط بالرغم من أن عددا كبيرا

من الدول تقوم به ، ان فى ميدان السياسة من ألوان النشاط ما يعتبر مثله كمثل أخص خصائص السيدات لا يجوز أن يناقش ولا أن يعرض على الملأ ٠

وقد حصلت بوساطة القبطان واطسون على أول تطلع لما يمكن أن يقال له « المدرسة العليا فى الدبلوماسية الدولية » ٠ فبالرغم من أن الرسائل كانت تلتقط وتحل شفرتها وكانت هذه الرسائل تقدم صورة للقصة الا أنه كان هناك عدد لا حصر له من الثغرات الصغيرة التى يتوقع أن يسدها الملحق البحرى بما يحصل عليه من معلومات من مختلف المصادر ، وكانت الرسائل لا تحمل الا أقل التفاصيل عن المقترحات التى ستتقدم بها اليابان للمؤتمر ، والى أى مدى سيسير اليابانيون فى هذه المقترحات ، ثم كذلك النقطة التى يمكن عندها أن يبدأ اليابانيون التفاهم ٠

وقد أوضح لى القبطان واطسون فى مناقشات طويلة جادة كل القاعدة الخلفية للمثلث الدبلوماسى الذى يتكون من الولايات المتحدة ـ بريطانيا ـ اليابان ؛ ففى سنة ١٩٢٠ نال الاسطول اليابانى أول تقدير منذ سنة ١٩١٢ عندما حدثت فضيحة حطمت سمعة أمراء البحر اليابانيين ، ولكن فى سنة ١٩٢٠ كانت هذه الفضيحة قد نسيت وصفح عنها ، وسمح للاسطول بأن يبدأ برنامج بناء ٨ بوارج و ٨ طرادات وعرف هذا باسم « برنامج الثمانى ـ الثمانى » وكانت استراتيجية « الكاجون ـ شو » على ما يسمون وزارة البحرية فى اليابان توضح أن تملك ١٦ بارجة سيمكن اليابان من الحصول على توازن ولو على الاقل فى الوقت الحاضر ٠

وفى وسط المحاولة لاتمام تنفيذ هذا البرنامج وصلت طوكيو اقتراحات لورد كورزن بعقد مؤتمر لتحديد قوى الاساطيل البحرية ، وهى اقتراحات تهدد بالغاء كل مشروعات الانشاء وتعيد اليابان الى وضعها القديم كدولة بحرية أضعف من الدولتين الغربيتين ، وكانت المشكلة المحيرة التى يواجهها أمراء الكاجون ـ شو عنيفة ولا شك ، ولكن واطسون كان واثقا من أنهم سيحلونها بتفاهم جيد ٠

وقال لى واطسون أن اليابان تعرف بأن عليها أن تختار بين « تحديد التسليح » و « السباق للتسليح » ، وهم يعرفون هنا أننا نفضل الاتفاق على التحديد ، ولو انتهى الامر الى سباق للتسليح فلا شك أن اليابان هى التى ستخسر ، أن اليابانيين يتقبلون أمر الدواء بابتسامة ولو كان من

الضرورى فانهم ينسون حتي برنامج « الثماني ـ الثماني » ، وكان من الواضح لهم أن بريطانيا يمكن أن تنزل عن محالفتها لليابان ولا يمكن أن تجازف باغضاب الولايات المتحدة ·

وقد حصل القبطان واطسون على التقديرات الدقيقة للموقف أثناء اجتماعاته الطويلة مع الضباط اليابانيين البحريين الذين كانوا سيلعبون دورا رئيسيا فى رسم مستقبل اليابان ، وبعد عودتى الى طوكيو فىسبتمبر سنة ١٩٢١ بعد أن قضيت بعض أسابيع فى الجبال بمناسبة الصيف سمح لى بأن أراقب عن قرب المعركة التى يخوضها القبطان واطسون ، وكانت المعركة البحرية التي يخوضها ليست فى المحيط بل فى مقهى للشاى فى حى « شمباشى » Shimbashi بأحد منازل فتيات الجيشا حيث كان نومورا ومعاونوه يجتمعون للعمل وللمتعة ، ولما كانت الترتيبات للمؤتمر تسير على قدم وساق كانت الاجتماعات كثيرة وكان كل من واطسون ونومورا يتوق لان يلتقط اشارة أو لفظة أثناء هذه المحادثات فينتفع بها على مثال انتفاع الصائغ بحجر ملون جميل ·

والاجتماع الوحيد الذى حضرته كان ممثلا أجمل تمثيل فى الجانبين كان فى الجانب الامريكى القبطان واطسون ومعاونه انكوماندور جون وولتر ماكلارن وأنا ، وكان فى الجانب اليابانى القبطان نومورا الذى أحضر معه القبطان ناجانو والكوماندور يوناى ، وكل من الاثنين كان فى مقدمة الضباط اليابانيين البحريين ذوى المستقبل الزاهر وقد نال كل من الثلاثة مكانا كبيرا فى بلاده فيما بعد فقد عين الاميرال نومورا سفيرا لليابان فى الولايات المتحدة عندما تعقدت العلاقات بين البلدين ، هذا التعقد الذى أدى الى الحرب وكان ناجانوا على رأس هيئة أركان الحرب اليابانية عند بدء العدوان وفى السنوات الاولى للحرب وثب يوناى الى مركز وزير البحرية واستمر يشغل مركز الوزير حتى امضاء الاتفاق الثلاثى لدول المحور فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٠ ثم فى الايام السابقة لاستسلام اليابان ·

وفى هذه الايام كان يوناى مثلى يدرس لغة أجنبية ولكن من اتجاه آخر فقد كان يدرس اللغة الروسية وكان قادما لتوه من موسكو ·

وفى سبتمبر استدعانى القبطان واطسون لمكتبه لما يبدو أنه كان الفرصة الذهبية فى حياتى ، كان يريد أن يوكل الى أول « مهمة سرية » ، وفهمت من الملاحظات الاولية لواطسون أننى قد كسبت مكانا فى ميدان الدبلوماسية وأنه يعتبرنى على استعداد للقيام بدورى ·

وقد بدا حديثه لتوه ..

ـ زاك ، هناك بعض معلومات أود أن أبعثها لواشنطون وهي معلومات حاسمة ونحن نعرف الكثير حتى الآن ونعرف أن اليابانيين على أتم استعداد للوصول الى حل للتفاهم وتقبل التحديد للقوى البحرية ، صحيح أننى أعرف الكثير ولكن من الضرورى أن أعيد التثبيت من كل مالدى من معلومات قبل أن أبعث بهما الى وزارة البحرية في واشنطون على أنها معلومات صحيحة ، وأريد أن تقوم أنت وماكلارن بهذا التثبيت .

وقلت ـ أنه ليسعدنى أن أقوم بأى عمل تطلبه .

وعاد واطسون لحديثه بعد لحظات يبدو أنه كان طولها يجمع آراءه .

ـ أتذكر تلك الاجتماعات التى تعقد فى مقهى الشاى بشمباشى مع نومورا ومعاونيه .

ـ أجل يا سيدى .

ـ حسنا ، أريد أن تتابع أنت وماكلارن الذهاب الى هناك والاجتماع بهم الى غاية ما تستطيع ، فلم أعد أستطيع أنا الذهاب الى هناك فقد باتت الاجتماعات أكثر ودا من أن تكونّ اجتماعات عارضة ونومورا يوجه هذه الاجتماعات على أساس تبادل المعلومات فهو يريد منى مثل ما يعطينى ، ولهذا فسأقصر ذهابى على الحفلات الرسمية التي يحضرها كبار ضباط البحرية والتى أستطيع أن أجمع منها الخطوط العريضة ولكنك تستطيع أنت وماكلارن أن تذهبا الى مقهى الشاى وقد أطلقت أيديكما فى العمل .

وقلت ـ وهل من تعليمات أخرى .

وقال ـ لا ، كل ما أطلبه هو أن تتابع الذهاب الى مقهى الشاى لمقابلة رجال نومورا ، حاول أن تعرف منهم ماذا هى خطتهم لمؤتمر واشنطون ، التقط ما تستطيع من المعلومات وابقنى على دراية بالموقف أمام الستار وخلف الستار .

على أن نومورا في الواقع قد بذل من جانبه جهدا دون قصد منه لييسر على مهمتى اذ أنه دعا القبطان واطسون لمقابلته فى شيمباشى لتناول قدحا من الشاى وكأسا من الشراب .

وفي الساعة السادسة من مساء الحادى والعشرين من سبتمبر كنت أنا وماكلارن عند الباب الخارجي للمقهى واستبدل كل منا حذائه بخف يقدم المقهى لرواده ثم اقتادنا خادمين الى غرفة خاصة فى الطابق العلوى حيث كان نومورا وناجانو يتناولان الشاى اليابانى والمارتينى الامريكى ٠

وقلت فى لهجة دبلوماسية جامدة وأنا أحنى رأسى تحية للرجلين :

ـ ان القبطان واطسون يأسف لعدم استطاعته الحضور ٠

ويبدو أن نومورا لم يهتم كثيرا بعدم حضور واطسون بل لعله ظن أن وجوده قد يعطلنا عن الادلاء بالمعلومات التى آمل أن يحصل عليها منا ، وكان يثق بأننا فىغيبته سوف نفتح صنابير المعلومات لتتدفق منها البيانات التى يتلهف لها ، وغاب عنه أننا قد مثلنا المقابلة أكثر من مرة واستعدنا الالفاظ التى يجب أن تقال والنبرات التى يجب أن تقال بها ، بل وحتى قد تدبرنا الاجابات التى يجب أن تقال ردا على أسئلته التى توقعناها ، وقد تدربنا حتى على لوقفات التى تبدى وكأننا نفكر ونستجمع رأينا قبل النطق بما سندلى به من معلومات ٠

وقد ثبت فى النهاية أننا لم نفقد كل هذا التدريب عبثا ، فلقد حصلنا فى هذا الاجتماع على ما يريد واطسون الحصول عليه من معلومات ، فقد أمدنا نومورا بتلميحات تكشف عن المشروع الذى سيذهب به البارون كاتو الى المؤتمر بواشنطون ، وعرفنا أن مناقشات طويلة ، قد دارت فى مختلف المجالس اليابانية وأنه من الممكن الوصول على حل حتى مع تقبل أمريكا ٠

وعندما عدنا الى منزل القبطان واطسون كان الرجل ينتظرنا وقد عقب على كل كلمة ذكرناها له ، وبالاضافة الى مالديه من معلومات بدت الصورة واضحة كاملة ، واستطاع أن يبعث لوزارة الحربية الامريكية أن اليابان سوف توافق على المشروع المقترح بأن تكون النسبة بين الاساطيل الثلاثة ٥ : ٥ : ٣ ، وقد تم هذا عندما انتهى المؤتمر أخيرا على التحديد لبرنامج الانشاء فى الاساطيل الثلاثة لتتمشى مع هذه النسبة ٠

وكانت لهذه المعلومات التى وصلت واشنطون قبل انعقاد المؤتمر أهميتها ، وحتى فى هذا التاريخ المبكر سنة ١٩٢١ عاونت جهود المخابرات فى أن يذهب مفاوضونا الى المؤتمر وهم على دراية تامة بالمشكلات التى سيواجهونها ٠

٢

غريب فى زوتشى

كان ذلك فى أبريل سنة ١٩٢٢ حيث كنت أقف على حاجز مياه البحر ـ ذلك الحاجز الطويل المتعرج أمام منزلى فى زوتشى الذى اتخذته مقـرا لاقامتى فى ذلك اليوم • والآن بعـد مضى سـنة ونصف منذ وصولى الى طوكيو أستطيع أن أدور بذهنى خلال الشعاب الجديدة فى حياتى البحريه وما تنطوى عليه من التعقيدات المتنوعة • وقد خلفتورائى طوكيو وما بها من دوامات الشعوب المختلفة والدسائس الدوليـة وتذوقت طعم الحيـاة الدبلوماسية وجست خلال أسرارها الخفية أجمع معلومات تتعلق بمؤتمر واشنجطون لتجديد القوات البحرية • وأصبحت فى طريقى لمباشرة مهـام جديدة • ثم ان زوتشى هذه قرية يابانية صغيرة يشـتغل أهلهـا بصيد السمك وتمتد مسافة ميل على الطريق • حيث وقفت أستنشق نسـمات الربيع التى تسوق الامواج فتتكسر على حاجز المياه • وأخذت أسـتعرض الماضى وأتطلع للمستقبل مباشرة •

وقد أذهلتنى المقارنات بين تلك الشهور من أكتوبر سنة ١٩٢٠ الى ابريل سنة ١٩٢٢ ، فقد تركت ورائى على بعد شاسع كابتن لونج بمكتبه البسيط فى واشنجطون • ثم اليوم الحادى والخمسين من رحلتى على ظهر الباخرة شيرمان الى طوكيـو • وأول زيارة لى لوزارة البحرية اليـابانية وما يحيط بها من حراسة مشددة ثم صالات الرقص والمطـاعم وحفـلات الاستقبال فى العاصمة • حتى تلك السهرات السرية مع ضباط البحرية اليابانية فى مقصورات خاصة من منازل فاخرة تضم بنات الجيشا ـ كل ذلك أصبح فى طيات المـاضى • فكانت زوتشى بمثابة وصلة هادئة حيـة بين ذكرياتى وبين خططى وآمالى •

وقفت هناك ألقى نظرة على ذلك المدخل من خليج طوكيو وقد غطتـه المياه الزرقاء الضاربة الى الخضرة ويهتز على سـطحها عشرات من قوارب

الصيد وحيث أشـعة الشمس التى سرعان ما تغرب بعد الظهر وتصبغ القلاع ذات اللون الاحمر الداكن فتحوله الى لون قرمزى ـ لون لا تستطيع سوى يد الطبيعة أن تمزجه على لوحتها · وكان المكان يسوده الهدوء من حولى باستثناء القليل من الصيادين العائدين الى مساكنهم وقد حلا لهم أن يجلسوا القرفصاء على شاطىء البحر يتجـاذبون أطراف الحديث حـول حصيلتهم من السمك فى ذلك اليوم · والاصلاحات اللازمة لشباكهم وقد أنهكها كثرة الاستعمال · أو يثرثرون حول القرية وما يقام فيها من حفلات الزواج ·

ومن وقت الى آخر تحمل الى سمعى تلك النسمات المنعشة دوى مدافع البحرية اليابانية وهى تقوم بتمريناتها المعتادة · اذ كانت القاعدة البحرية الضخمة يوكوسوكا تقع ناحية الشمال وراء الافق · وكانت أصوات المدافع تذوب وسط السكون المخيم على خليج زوتشى وكأنهـا نبرات الموسيقى خارج المسرح التى تصاحب التمثيل فى رواية شرقية · وعلى الشـاطىء كانت أكوام من السمك الفضى الصغير ممـا يستخدم فى الطعم · والذى يكتشفه الصيادون بعد استخراج الاسماك الكبيرة · وكان يجلس على كوم منها رجل قصير القامة مفتول العضلات مما يدل على صلاحيته لاعمـال البحر · وهو يرقب الاسماك بعيون جائعة · وما لبث أن التقط بين أصابعه بعضا منها وهى تموج ذات اليمين وذات الشمال والتهمها كفاتحة غريبة للشهية لاكلة « اسكى ياكى(١) » ، التى قد تكون زوجته أعدته له كطعام فاخر ·

وما لبث أن غادر الصياد الصغير ليشبع جوعه وتركنى وحيـدا على الشاطىء أرقب شمس اليابان وهى تغرب · وكان الهدوء الذى يسود المكان لا يتناسب مع مشاعرى عندما جلت بخاطرى الى الوراء حيث الماضى الملىء بالاحداث والذى جاء بى الى هذا الحاضر الغريب · فمنذ عشر سـنوات تخرجت من أنا بولس Annapolis دفعة سنة ١٩١٢ ـ وهى الدفعـة الفخورة بأن تنجب عشرات من أبطال الحرب الذى كان لا تزال أمامهم ـ فى ذلك الوقت ـ عشرون سنة أخرى ·

---

(١) شرائح رفيعة من لحم البقر تطهى بالخضروات وصلصلة نبات الصويا ·

وبينما كنت أعيد النظر على لوحة الذاكرة جاءت سفينة صيد متأخرة الى زوتشي وهى تجر وراءها شبكة فارغة • ولابد أن كان هناك نوع من الجدال على سطحها • أو ربما كان ملاحوها الستة يتناقشون حول الاحوال الجوية بلهجات جادة • ولكن عندما حمل الى النسيم محادثتهم واضحة جلية تذكرت بوضوح تلك اللحظة حيث كنت فى الجانب الآخر من العالم عندما سمعت الحديث باللغة اليابانية لاول مرة • فقد كانت هناك علاقة مباشرة بين تلك التجربة وبين وجودى فى زوتشي • ولولا تلك المحادثة التى سمعتها مصادفة منذ عشر سنوات لتغير مجرى حياتى •

كان ذلك منذ أمد بعيد فى مستهل سـنة ١٩١٣ على ظهر السـفينة الحربية فيرجينيا حيث كنت أعمل مع رئيس لى ضـابط مسـاعد مهندس يحمل شريطا واحدا • وكنت أجلس بالقرب من مائدة الطعام فى مطعم غرفة الضباط ـ كالرجل المنسى • انتظارا لطعام الغـذاء وقد تأخر لمدة خمس عشرة دقيقة • وكان الجو يزداد توترا مع مظاهر التذمر التى سادت ما يقرب من ثلاثين من الضباط يشعرون بالجوع • ثم انقطع حبل السكون فجأة على أثر صيحة من الملازم فرد • ف • روجرز الذى كان مسئولا عن المطعم فى ذلك الشهر وكان جالسا بعد انتهاء واجباته • فصاح بصوت حاسم حاد : « يا خادم ! أرسل لى ذلك الطاهى الى هنا » •

وفى نصف دقيقة دخل من باب غرفة الضـباط رجل صغير متقدم فى السن يبلغ طوله خمسة أقدام ويحكم وضع ثوبه اذ كان من الواضح أنه ارتداه على عجل • ويطرف بعينيه الغائرتين كما لو كان خارجا من الظلام الى النور • كما كان وجهه تعلوه ابتسـامة يعبر نصفهـا عن الاستفهام والنصف الآخر يعبـر عن خوفه من الذنب • حتى اذا اقترب من الملازم روجرز شبك يديه أمامه وانحنى نصف انحناءة وقال من خلال أسنانه التى كانت ظاهرة وهو يبتسم « سايو دى جوزايماس » نعم يا سيدى •

وهنا وجد الملازم روجرز أنه من الصعب أن يعرف عن سخطة الامريكى بلغة قوم يعتبرون أن التعبير عن شعور الانسان هو أقصى ما يكون من سوء التربية • فالتزم فجأة جانب الهدوء الذى تعلمه خلال السنوات الثـلاث التى قضاها على صلة وثيقة باليابانيين • ولكن فى نظر المراقب الدقيـق بدا أن وميض عينيه واختفاء رقة ابتسامته المعهودة يدلان على أنه متضايق أشد الضيق • وكثيرا ما رأيت هذا الخادم من قبل وتعودت على أن أجده من

المثبتين فى غرفة الضباط ويشرف على خدمة المائدة بما فيه الكفاية • ولكنه اليوم لفت أنظارى اليه وهو يرتدى سروال الضباط الازرق وجاكت المطعم البيضاء وقد أقفلها حتى نهاية عنقه • فقد كان يابانيا • وفى تلك الايام ـ ولو أنه من غير المعقول اليوم ـ كان اليابانيون الاجانب يقومون بالخدمة فى سفننا الحربية كطهاة وخدم المطاعم • ولو أننا لم نكن نعير اخلاصهم وسلوكهم أى اهتمام الا أننى على يقين من أنهم كانوا يتناقشون فيما بينهم وزملائهم حول تفاصيل البحرية الامريكية بما يدل على درايتهم بها •

انحنى الخادم أمام الملازم الذى خاطبه بلغة غريبة على سمعى المتلهف . وكنت متأكدا أنها ليست لغة التخاطب فى المطاعم أو اللهجة الامريكية العامية التى تستخدم فى المطابخ • فليس من شك أن روجرز كان يخاطب الخادم بلغة أجنبية •

وكانت اللغة الدارجة الصحيحة التى يخاطب بها سيد المنزل رئيس خدمه هى "Hiru-han, mo ju-go fun osoi yo, Hayaku motte kittekoi,"

وبذلك أخبر روجرز الطاهى أن الغـذاء قد تأخر خمس عشرة دقيقة وعليه أن يسرع باعداده •

ولم يتحرك ايشياما كما يدل على ذلك اسمه «الحبل الجوى» بل سار الى الخلف بعـد أن انحنى مرتين • ودون أن يغـير تعبـيره اعـادة كلمـاته Says de Gozaimas ومعناها فى أدب جم • أجل يا سيدى •

وخلال هذه المحادثة القصيرة والتى تبدو سهلة الادراك أخذت أجول بنظرى من أحدهما للآخر حيث تسـابقت بذهنى أفكار كثيرة • من أين جاء هذا الثبات ورباطة الجأش ؟ وبدأت أرسم فى مخيلتى صورة للشرق واليابان • ومن القليل الذى قرأته فى هذا الصدد كل ما وقع عليه نظرى هو رجل الريكيشـا الذى يعـدو فى الطرقات والمرأة الصغيرة وطفلتهـا مربوطة وراء ظهرها •

وعندما بدأ روجرز فى توضيح عقلية اليابانيين تذكرت أنه عاش فى اليابان طالبا يدرس اللغات • ووجدت نفسى ألقى عليه سيلا من الاسئلة حول مختلف عادات اليابانيين ولغتهم وعجبت كيف يتسنى للشخص أن يتغلب على هذه الأصوات ويعتاد عليها ثم يتحدث من خلال أسنانه •

بدأت من ذلك الوقت أن أكون على مقربة من روجرز لمجرد سماعى أحاديثه عن السنين التى قضاها فى اليابان ٠ فأخبرنى فى تفصيلات غير سارة كيف جاهد لتعويد لسانه على السكوت بقدر ما يستطيع وكيف كان عليه أن يخصص معظم أوقاته لتلقى الدروس من اثنين من المعلمين ٠ وأن يحفظ عن ظهر قلب الكتابة الرمزية التى أصدرتها الصين الى اليابان سنة ٦٠٠ ق٠م لتزويد اليابان بلغة مكتوبة ٠ وكل رمز ـ كالصورة ـ يعبر عن صوت مختلف ويعنى كلمة مختلفة ٠ وكيف أخذ يراقب الشعب ويحاول تفهم حياتهم الشعبية ٠ ويتابع القصص الصغيرة الحقة التى تتسلسل من القصر الامبراطورى حيث لا يزال يحكم ميجى القديم الى بيوت الجيشا فى شيمباشى الذى أسر لى بأنه حقق تقدما كبيرا فيها وخاصة فيما يتعلق بدراسة أخلاق اليابانيين ٠

وكلغة من المخطوطات القديمة مضت أمام عينى ٠ رأيت صورة لارض عريبة بما فيها من عجائب وأسرار ٠ كما رأيت الفروق تبرز أمام ذهنى أقوى من مثيلاتها فى اراحة مشاعرى ٠ فبدأت أقرأ عن اليابان ٠ ومن وقت لآخر أحاول أن أحفظ عن ظهر قلب اللفظ الصحيح المتداول غالبا فى مناقشاتنا ٠ وتمكنت من حفظ بضع كلمات مما يستعمل كل يوم مثل Machi بمعنى شارع و Denva للتليفون ٠ وبالطبع Beppin للفتاة الجميلة ٠ ثم ظلت معى هذه الكلمات مدة سنوات حتى عاودنى الحنين للسفر الى اليابان وانتقل من سفينة الى سفينة ومن مهمة الى أخرى وتذكرت كيف كان يغمرنى السرور عندما حفظت تماما التعبير الذى يستعمل عند تقديم شخص الى آخر Hajimete Ome ni Kakarimashita « لاول مرة أضع نفسى أمام عينيك الشريفتين » ٠

وبعد ذلك وجدت أن الامر قد تحول الى غرض حقيقى لتعلم هذه اللغة

ولكن كيف وأين يمكن للشخص أن يبدأ ؟ فقد بدا أنها خليط من الاصوات لا أمل فى ادراكها ، بعضها نصف منخفض والبعض الآخر نصف منطلق ٠ ولكنها كانت توحى بسحر غامض ٠ كالجائزة التى تبدو بعيدة المنال بينما هى فى متناول اليد ٠ أو كالحلم البهيج الذى لا يزال ثقيلا فى منطقة الغموض ٠ ثم ان الحيل الصغيرة التى لها مغزاها سرعان ما تحرض الانسان على تقليدها ٠ بعد ذلك عدت بذهنى الى أيام صباى حينما كنت

بين رفاقى نقضى أوقات اللهو أعيد فى نبرات صحيحة أصوات القوارب البخارية وصوت القطار وآلات قطع الاخشاب وسن المقصات وغيرها . وفيما بعد فى الاكاديمية البحرية كنت أكرر نفس الاصوات فى فترات انراحة بعد ساعات الدراسة وكان اللقب الذى حصلت عليه فى آخر سنة تخرجى « الرجل ذو الاصوات المضحكة » .

وفجأة تراءى لى أن هنا فرصة لتطبيق تلك الاصوات المضحكة . وقد قيل ان كل شىء له مكان فى هذه الدنيا . فلماذا لا أستخدم مقدرتى البسيطة على التقليد فى تعلم هذه اللغة حيث يبدو كل شىء أنه يتوقف كثيرا على التلحين ؟ وأخذ حماسى يزداد يوما بعد يوم . حتى فيما بعد — عندما خفت حدته — ظل قويا كامنا فى دائرة العقل الباطن .

أدركت أنه ليس فى مقدورى زيارة اليابان . وقد يكون من الممكن زيارة بعض موانيها بناء على دعوات ودية قامت بها سفننا فى مقابل زيارات السفن اليابانية للقواعد الامريكية فى أغلب الاحيان . ولكن تلك الايام تكون عادة زاخرة بالاحتفالات الدولية من حيث المراسيم البحرية . وعلى الانسان أن يقضى وقتا أكبر مع الدبلوماسيين الامريكيين مما يقضيه مع الضيوف الوطنيين . مواصلا طريقة الحياة الامريكية وسط بيئة غريبة وهذه الرحلات — حتى اذا أسعدنى الحظ بالاشتراك فى احداها أو اثنتين منها — لا أتبين فيها سوى الاطراف الخارجية لليابان . وكانت رغبتى أن أتغلغل فى محيط قواعد الاتيكيت الدولية وأتخلى عن الواجبات الروتينية على ظهر الباخرة ثم أخصص شهورا — بل سنوات اذا أمكن — لدراسة اللغة اليابانية والشعب اليابانى .

وأخذت أنتهز الفرص لأستعلم عما اذا كانت هناك فرصة لارسال طلبة آخرين لدراسة اللغة فى اليابان . أو اذا كانت هناك حاجة لمتطوعين لهذا الغرض . ولكن ظهر لى أن البحرية قد اقتنعت بضابط واحد من بين أفراد السلاح يكون قادرا على التحدث باليابانية . وسبق أن كان هناك رجلان . واستقال الرجل الآخر فى ذلك الحين . ولم تكن الخطط قد وضعت لتوسيع نوفذ مهمة ذلك الرجل الواحد . وبدا لى أن أمالى ستظل دون تحقيق الى الابد .

وفجأة جاء دور من الادوار الغريبة فى الحيـاة التى تحول وتبدل كل شيء · فقد كنت أرافق زملائى ممن يقضون فترة التمرين فى رحلة بحرية للتدريب سنة ١٩٢٠ ، ولم أكن أفكر حتى فى احتمال رحلة روتينية الى اليابان فى يوم ما · وأثناء وجودنا فى هونولولو جاءتنى رسالة من روجرز الذى كان فى ذلك الحين قائدا ملحقا بادارة المخابرات البحرية فىواشنطون· وتقول الرسالة :

« قررت البحرية ايفاد ضابطين لدراسة اللغة فى اليابان · فهل لاتزال ترغب فى السفر اليها ؟ » وكان جوابى على الفور دون شك أو ابهام :

« أوافق على ما جاء برسالتكم بكل تأكيد » ·

وفى اليوم التالى جاءتنى من روجرز رسالة أخرى :

« سوف تختار وترسل الى اليـابان بمجرد عودة فريق التدريب الى الولايات المتحدة · وسيتم تعيين زميلكم فيما بعد » ·

وسرعان ما أخذ زملائى ينظرون الى كأنى شيء غريب · ويمطروننى بسيل من الاسئلة : « فكر فى ذهابك هناك لدراسة اللغة اليابانيـة » · « هل تلتحق باحدى المدارس ؟ » « أى نوع من الطعام سوف تأكل ؟ » · ووجه الى ألف سؤال يدل على الغبـاء بينمـا كنت أتدبر فى الامكانيـات وأحاول تفهمها وادرك أن هذا هو الامر الذى كنت مشوقا لتحقيقه ·

بعد أن بدت الرحلة · وكأنها لا نهاية لها ــ رست الباخرة أخيرا فى أنابولس وأسرعت الى واشنطون للحصول على التفصيلات · حيث أخبرنى روجرز أن ــ الكومادور · هارتول س· ديفز سـيغادر معى الى اليابان · ثم أخـذنى الى مكتب كابتن لونج ــ مـدير المخـابرات البحرية ــ حيث تم التصديق على المهمة واصدار التعليمات اللازمة ــ وهكذا أصبحت المخابرات جزءا حيويا فى مجرى حياتى ــ وكانت شيئا هاما جديدا استولى على مشاعرى من أول وهلة · ولم تفقـد فتنتهـا وسحرها فى نفس طوال السنين التى تلت بعـد ذلك · تلك المخـابرات ــ التى هى محور الدفاع الوطنى ــ والتى لم تقدر حق قدرها فى ذلك الحين ــ وحتى فى هذه الايام ·

فقد كان جميع قسم الشرق الانصى فى ادارة المخابرات البحرية O. N. I. تحتل غرفة واحدة بها ضابط واحد وكاتب اختزال • وكانت المخابرات ذاتها تتألف من حفنة من الضباط وفئة قليلة من المساعدين Yeomen يقومون بحفظ التقارير الدورية التى تأتى من الملحقين البحريين حول ما يحصلون عليه من المعلومات البحرية من الدول التى يعملون بها• ويضع مذكرات عن السفن التى هى فى طريق الانشاء أو مقترح بناؤها • ومعظم هذه المذكرات اما مقتطف من الجرائد المحلية أو مما يدور فى الحفلات التى تقام تكريما لبعض الزوار الامريكان • وهى التقارير التى أطلق عليها أخيرا تقارير المخابرات التى تمثل أهم الشئون الجديدة بالاعتبار •

لم تكن المخابرات مخطئة فى لعبها دور سندرلا البحرية التى لا تزال فى انتظار ظهور أحد وبيده خف الاسطورة القديمة • فقد مر العالم بحرب طاحنة مدمرة وأصبح يحن الى سلام دائم • واتخذ التسليح سخرية وهزوا وأصبح نزع السلاح شعار اليوم • وأخذت سفننا تقوم بجمع القواقع اللاصقة بالقاع فى الموانى • وكذلك ساستنا الذين تكتلوا لشن حروبهم الخاصة على بحريتنا الأمريكية التى يشعرون بأنها تقف عقبة فى سبيل عودة عهد السلام بصورته المعتادة • كما حدث فى دول أخرى أن أثيرت حملات معادية للبحرية • حتى فى بريطانيا حيث البحرية الملكية هى السلاح الاعلى الذى لا تمسه الايدى • فلم يكن سوى القليل من ضباط مكاتب المخابرات البحرية يستطيعون أن يسجلوا أو أن يعدوا تقاريرا الا اذا اشتركوا فى هذا الضجيج الهستيرى ضد الادارة التى يعملون بها •

ومع ذلك كنت أشعر بأن المخابرات تشكل دعامة هامة لرجال السياسة فى عملهم من أجل السلام • أنه من الطبيعى فى دولة تشبه القارة كالولايات المتحدة بمواردها العزيرة ورقعتها المترامية الاطراف بما يحقق لها الاكتفاء الذاتى • ومن الوجهة النفسية — على الاقل — تجعلها منعزلة بين محيطين• أننا لا نعرف سوى القليل عن الشعوب الاخرى وطرق معيشة أهليها • وعن الاصدقاء فى الواقع أو الاعداء من باب الاحتمال • ومهما عرفنا فان ذلك عن طريق المصادفة وتأخذ معرفتنا لونا من الاشفاق أو الكراهية أو من تلك الرغبة العقلية الجرداء فى منع الحروب والتى أثيرت عقب قيام الحرب الاخيرة • وصحيح أن دوق روسيا الاكبر — كما جاء فى الاساطير — كان

يكره الحرب لانها ـ كما جاء على لسانه ـ تفسد عادة جيوش القيصر • وان القائد الفرنسي اللبق عارض الحروب لأنها تزعج المحادثات ذات الروح العالية فقط ـ ولكن كراهية الحرب شيء متأصل في نفس الضابط المحترف لانه يعلم أفضل من غيره على الاطلاق ما تتكلفه الحروب من أرواح ودماء •

وطوال السنين التى قضيتها فى البحرية كنت أسمع أحاديث عن الرغبة فى منع الحرب بين الضباط أكثر منها بين المدنيين الذين يخطئون فى الرأى باصرارهم على اتهام الجنود المحترفين والبحارة بانهم من تجار الحروب وأعلم أنى أوضح فكرة عامة عندما أقول أن رجال البحرية الامريكية يدركون تمام الادراك حقيقة التورطات فى الحرب ولا يفخرون بما يسود المعارك من سحر خيالى مؤقت • فنحن نعتبر سفننا وقواعدنا دعامات وضمانا للسلام وشعارات استتباب الامن • ونتطلع الى الدبلوماسيين ورجال السياسة لأن يديروا دفتها الى بر الامان حيث تلقى مراسيها • وبطبيعة الحال هذا لا يعنى أننا غافلين عن المعنى الحقيقى الذى يدل عليه فقط « الامن » • ففى نظرنا أن هذا الاصلاح له معنى عريض • اذ يتركز فى القوة الطبيعية التى تتشكل فى السفن وقواعدها وكذلك فى عوامل الفكر حيث تلعب المخابرات دورا هاما • فمعرفة ما يفكر فيه الآخرون ومبلغ تأثير تفكيرهم فى تصرفاتهم • ومعرفة ما لديهم من القوات وما يقصدون باستخدام تلك القوات • ثم معرفة خصومنا وشركائنا فى مباراة الشطرنج الدولية • كل هذا يزودنا بقوة هائلة ويجنبنا تلقى المفاجئات التى تكدر خاطرنا •

وفى سنة ١٩٢٠ عندما وقفت أمام مكتب كابتن لونج فى ادارة المخابرات البحرية كان ينقصنا كثير من هذه المعلومات الضرورية • ولم تكن لدينا الوسائل اللازمة لسد الثغرات • فان القوة الصغيرة التى تضمها الادارة بنظامها الآلى • والتقارير القصيرة الاجل التى يرسلها الملحقون • وتوانى القيادة العليا وترددها فى أن تعهد الى المخابرات بالمركز الذى يليق بها • كل ذلك تقبلته فى شيء من التحدى • فقد كنت أقف فى مفترق سبل حياتى • وصممت على أن اتخذ السبيل الذى يناسب ميولى • وكانت اليابان والمخابرات تشير الى طريق واحد • واخترت الطريق حيث أشارت اليه •

أثيرت ذكرياتي أثناء وقوفي وحيدا أحدق النظر في مياه البحر لا أكاد ألاحظ تلاشي النهار وهبوط الظلام الذي لفني بذراعيه كشيطان من وراء حجاب · وفجأة سطعت على الساحل أنوار قليلة خرجت من رقعة صفراء نحو الشمال حيث هاياما وموقع القصر الامبراطوري الصيفي · وكانت البطاريات عبر شبه الجزيرة في يوكوسوكا لا تزال تطلق نيرانها من آونة الى أخرى واستطعت أن أرى وميضها يشق الظلام · وشعرت بالوحدة والبرودة في هذا الجو الهادىء · وحيد ولكن ذهني قد تجمعت حشود من الافكار والمهمات منذ أن استقر بي المقام في اليابان ·

ثم تحولت عائدا الى منزلي المطل على حاجز المياه · وكان لدى خادمتان احداهما تدعى مس سبرنج والاخرى مس سمر · رأيتهما تجلسان القرفصاء على عتبة الباب كما تفعل النساء اليابانيات في انتظار عودة سيدهن · فوقفنا وانحنيتا عندما اقتربت منهما واعلنت مس سبرنج :

« ساتو ــ سان في انتظارك في غرفة الجلوس ــ زاكواري ــ سان » ·

٣

ساتو ـ سان يقوم بزيارة

لو كنت أكتب تقريرا للمخابرات لكنت أشير الآن الى كيشيرو ساتو فى الماضى بوصفه عميلا من الدرجة الاولى A 1 • فقد كان أفضل مصدر للمعلومات طيلة السنة والنصف التالية • ومرشدى خلال الخيوط المعقدة للسياسة اليابانية وطموح اليابانيين • واستطعت أن أثق ببياناته تمام الثقة • وكان جارا لى وأول من زارنى فى زوتشى • ولكن هذه الزيارة الاولى فى تلك الليلة من ربيع سنة ١٩٢٢ ـ التى كان الحافز عليها غريزة حب الاستطلاع التى لا تشبع والتى تدفع اليابانيين الى مغامرات صغيرة لا عدد لها ـ تلتها زيارات أخرى كثيرة • وعندما غادرت زوتشى بعد سنة ونصف كان ساتو آخر صديق لى ممن اتخذتهم حديثا يصافحنى مودعا •

فى ذلك الحين كان يخاطر كثيرا بهذه الصداقة • اذ كان تحت رقابة شديدة من رجال الشرطة وموضع اشتباه فى أنه يفضى الى بمعلومات معينة تحرص « جمعية بلاك دراجون » على أن تكون فى منأى عن الاجانب بوجه عام وعن ضابط فى مخابرات البحرية الامريكية بنوع خاص • ولكن ساتو ـ سان كان له تفكيره الخاص حيث وضع خطة فى ذهنه وعهد الى بدور هام فى تلك الخطة •

وبطبيعة الحال كان لا يزال يتلمس طريقه لينال ثقتى وصداقتى بتلك الصورة العجيبة التى تجمع بين الاحتفاظ بالخجل والحياء وبين الصراحة الجافة والتى تتميز بها العلاقات الانسانية فى اليابان حتى بين أقرب الاصدقاء • فعندما دخلت الحجرة وجدته يقف أمام صورة تزين تجويفا فى الجدار • وتمشيا مع العادات اليابانية التى تشير بتغيير هذه المخطوطات المعلقة طبقا لفصول السنة • عرضت منظرا للربيع فى كيوشو يسوده فرع من شجرة الكريز نقشت زهوره باقلام الباستيل الناعمة • وفى خلف المنظر بحيرة تبدو فى اطار من الوان الشجرة الوردية ـ وعلى مياه البحيرة الزرقاء شبه قارب مسطح تجلس فوقه احدى العذارى وتنظر الى حدود

قمة مهيبة أضفت على الصورة مظاهر القوة والاتزان بالرغم من اللمسات الرقيقة التى رسمت بها • وكانت منقوشة على قطعة من الحرير يحيط بها اطار من شريط عريض من الحرير • وأمام الصورة من جهة اليمين آنية للزهور بها فرع واحد من شجرة الكريز • وقد قمت بتصميم المنظر بأكمله بمساعدة مس سبرنج التى كانت بمثابة محرابى الصغير « لآلهة الفن » •

وعندما أحس بدخولى الغرفة تحول ناحيتى — وقبل أن يقدم نفسه — جاملنى بمناسبة انتقائى للصورة ووضعها فى تجويف الجدار وقال « انى أشعر بانك تفهم اليابان » •

وقد قضيت فى اليابان فترة كافية لكى أدرك أن هذه كانت مجاملة فريدة فى نوعها كما كان ساتو يابانيا فريدا فى نوعه • فلم يكن تعميه المظاهر التى تميز بها أغلبية مواطنيه • وعندما رددت على تحيته الرسمية انحنى كعادته ثم قال "Watakushi Wa, O tonari de Gozaimas"

واستطرد قائلا • « أنا جارك واسمى ساتو • وقد رأيتك من نافذة منزلى بعد ظهر اليوم • ولاحظت أنك تقف وحيدا غارقا فى أفكارك بجانب حاجز المياه • وقد أسفت لانى شعرت بأن الوحدة فى هذا المكان لابد أن تكون عبئا ثقيلا على كاهلك • فاقترحت زوجتى — وشكرا لها — أن أقوم بهذه الزيارة لكى أشاركك فيما يدور بذهنك من الافكار » •

وهنا كشف ساتو عن انحراف مختلف فى مستوى أخلاق اليابانيين • فان الفرد العادى من مواطنيه لا يشكر زوجته لابدائها فكرة سارة • بل — فى الواقع — لا يتحدث عنها اطلاقا •

ثم جلسنا على حصير مبطنة بالوسائد مركبة فى أرض الغرفة وتشكل مربعا حول موقد للفحم عليه اناء به شاى يغلى • وكما لو كان قد نسى بضع الكلمات الانجليزية التى تعلمها على نطاق محدود جلس صامتا يراقبنى بعينين يشع منهما الفضول • وربما كان ينتظر منى أن أبدأ الحديث أو يحاول قراءة ما يجول بخاطرى • ودون أن يتغير سألنى فى لهجة تنطوى على شىء من الخشونة :

« ما الذى جاء بك الى زوتشى ؟ » •

فظننت أن ساتو ــ سان لا يختلف عن غيره اطلاقا ــ هل اتصاله بالغربيين ــ على غير رضاه ــ يخفى وراءه شخصية الشرطى ؟ أو أن الحقد الذى يدفع اليابانيين الى كراهية الاجانب قد أثار فيه الشعور بالاشتباه ؟ ولكن سؤاله هذا أخذ يتردد فى ذهنى · حقا · لماذا جئت الى زوتشى ؟ فهى قرية تقرب من خليج طوكيو وتطل على المناطق المحيطة بقاعدة يوكوسوكا البحرية ويجاروها المطارات ــ بالتأكد أنها مكان منطقى فى منأى عن الانظار ويصلح لضابط المخابرات أن يوليه مراقبته · فهل استطيع أن أوجه اليه اللوم على شكوكه ؟ وليس لدى خطط يسارية فى زوتشى ولذلك أجبت على استفهامه بنفس الخشونة :

« ياسوتو ــ سان · أنا طالب أدرس اللغة اليابانية · ووجدت أن طوكيو وهى العاصمة حيث الضجيج والعجيج لا توفر لى فرصة التقدم السريع · فهنا فى زوتشى آمل أن أتمكن من تركيز تفكيرى على دراساتى كما استطيع أن ادرس طرق الحياة الحقيقية فى اليابان » ·

وكان هذا ــ فى الواقع ــ هو الباعث لى على المجىء الى قرية الصيد البهيجة التى تضم ما يزيد قليلا عن أربعمائة من العائلات · فقد جاءتنى توصيات بانها المكان حيث أستطيع أن أشاهد الحياة الريفية فى اليابان على حقيقتها · ومعظم أهلها قوم بسطاء يشتغلون بصيد السمك · ثم أن الجميع يعملون ملاحين فى القوارب من آباء وأبناء ــ أمهات وفتيات · ينظمون القلاع وبديرون الآلات البدائية · ويلقون الشباك فى البحر · ويسحبون ما يتجمع بها من الصيد · ثم يعدونها للبيع فى الاسواق المجاورة · وكانت المقارنة بينها وبين المدينة واضحة جلية حتى فى أول يوم لى فى زوتشى · فلم يكن هناك أثر للملابس الغربية · وخلت أخلاق القوم وسلوكهم من ذلك الخليط المضطرب فى هوليود من أزياء ومدنية حديثة وعصرية الاتيكيت الوطنى الذى يشكل سلوك سكان طوكيو · وبحسب ما علمت فيما بعد أن ساتو كان حلقة الاتصال الوحيدة بين دنيا زوتشى والجلبة التى خلفتها ورائى فى طوكيو · كما تبين أيضا أنه من الهاربين الذين لجأوا الى زوتشى ولكن لاسباب مختلفة · فقد كانت صحته تتدهور وأراد أن يستعيدها هنا حيث الهواء الجاف · وبدا أنه فطن الى اشتباهى فيه واسرع بتبديد ما ساورنى من الشكوك قائلا :

« قد تظن أنى رجل فضولى أكثر من اللازم · نعم أنا فضولى ولكن ليس بالمعنى المفهوم لانى أقوم بأجراء بحث غريب » · وأضاف عندما تطلعت الى وجهه فى دهشة يشوبها الغيظ « وأرجو ألا تسىء فهمى فلست من رجال الشرطة ، وانما أنا أبحث عن ثغرة ضئيلة استطيع أن أنفذ منها لكى أهرب من تلك الحدود الضيقة التى تحيط بحياتنا اليابانية » ·

والتعبير الذى بدا على وجهى وانا أتابع كلماته تحول الآن الى شىء من المفاجأة · وشعور بالاشفاق عليه ، وقبل أن أسأله أن يوضح حديثه · قال :

« ما رأيك فى اتخاذى صديقا لك · يا سيدى ؟ » ·

فأجبت وانا كالمأخوذ بمثل هذا الطلب عن تعريف الصديق « حسنا · نحن نظن فى الصديق أنه شخص وثيق الصلة بنا يشاطرنا أفراحنا وأحزاننا · رجل نسعى اليه كلما كنا فى حاجة الى النصيحة أو المعونة ويشترك معنا فى قضاء أوقات الفراغ فى هناء وسرور » ثم ترددت وقلت « يا ساتو ـ سان · الصديق هو ···· الصديق » مؤكدا التعريف لكى يحمل المعنى التام ·

وقال الرجل « ها أنت ترى أن الغرض الذى أسعى اليه ـ البحث عن صديق · فنحن هنا فى اليابان ليس لنا أصدقاء بالمعنى الذى تفهمونه من مدلول الكلمة · اذ أننا نشعر بأن ذلك يجعلنا فى وضع نتحمل فيه عبء تعارف وثيق الصلة مع ما نقاسيه من متاعب صغيرة وما نعانيه من عوامل القلق · وأما أنا فليس لى صديق ياسيد زاخرياس » · قال ذلك فى نبرات حزينة أثرت فى مشاعرى ورسمت على وجهى ابتسامة باهتة ·

كان هذا هو بدأ صداقتنا · وسرعان ما وجد ساتو ـ سان صديقه الذى يستطيع أن يفضى اليه بما يعانيه من المتاعب وما يساوره من القلق · ولم تكن هذه عوامل شخصية كما لم تكن هينة حسب تقديره لها · فقد كان من عقلاء اليابان الذين يفكرون فى المستقبل والذين أدركوا أن النظام القديم وقد فات أوانه قدبطل نفعه · وأن اليابان عليها أن تعيد تنظيم حياتها بحيث تتجه نحو آراء حديثة تقدمية اذا أرادت أن تصبح دولة حديثة حقا

بالمعنى الفلسفى وليس بالاستعراض السطحى للكروميوم والزجاج ـ والمدافع • وكان ساتو رجلا مثقفا بالرغم من عدم مغادرته لليابان • وكان ممن يسمون فى الولايات المتحدة ـ من رجال السياسة ـ وعمل كمستشار سرى لعمدة طوكيو وحمل عدة رسائل سياسية هامة لرئيسه ونال فى مقابلها مكافآت بسيطة • كما كان على علم بكثير من الاسرار فى الاوساط اليابانية وراقب عن كثب تطور الخطة التى تشكلت فى النهاية الى « ذكرى تاناكا ـ ٢٥ يولية سنة ١٩٢٧ » الشهيرة بسوء السمعة •

وكان مؤتمر واشنطون قد أصبح أمرا يتعلق بالماضى وبدأت فى الاشتغال بالسياسة اليابانية فى الوقت حيث زارنى ساتو • ففى أول حديث لنا استعرضنا موضوع المؤتمر • وكان اتفاق « ٥ : ٥ : ٣ » قد أصبح أعظم الشعارات المحبوبة التى يهتف بها اليابانيون• فكانوا يكتبون هذه الارقام الثلاثة بالطباشير على الجدران • ويطبعونها على الاعمدة والسبورات كما كانت تجرى على ألسنة معظم اليابانيين •

فقال ساتو « أنتم تجعلون الاسد يفيض حنانا الى شقاء الصحراء وقسوتها بحبسه فى القفص • فقد فرضتم التحديد على اليابانيين بوضع الامر فى أيدى العسكريين • وهم يستطيعون أن يواجهوا جموع الجهلاء ويقولون لهم : « انظروا الآن الى أمريكا وبريطانيا وهما ترفضان أن يقبلانا على قدم المساواة • وأسوأ من ذلك محاولتهما وضعنا فى مستوى وضيع الى الابد » • وحاولت أن أعلل الامر بنفس المجادلات المعقولة التى أثرت فى نومورا وناجانو منذ بضعة أشهر • ولكن ساتو احتج قائلا :

« هذه شئون لا علاقة لها بالعقل • هؤلاء المروجين للحروب الذين يخدمون أغراضهم هم قوم غريبو الاطوار • يبررون تصرفاتهم بما لا يتفق مع العقل • لانهم يعلمون أنهم اذا توقفوا مرة عن التفكير فان مشروعاتهم بأكملها سوف تنكشف عن حيل تدل على الغباء أو كفقاعة لا تلبث أن تنفجر فى وجوههم » •

فسألته : « وما هى مشروعاتهم ياساتو سان ؟ » •

ولكن ساتو نهض قائما • ودون أن يجيب على سؤالى الهادف انحنى لكى ينصرف • ولم أتظاهر أو أشعر بالضجر من تجاهله لسؤالى • فقد

يكون هذا شيئا قبل أوانه • ونهضت بدورى انظر الى ضيفى ــ بقامته القصيرة ــ ومددت له يدى وصافحته قبل مغادرته • فقال فى بشــاشة Sayonara • وأضاف باسما So-o-olong •

ثم قلت له : « دعنا نتلاقى مرة أخرى » فكرر هــذه الــكلمات بتلك النغمة الحزينة التى تتخلل حديثه فى بعض الاحيان : « دعنا نتلاقى مرة أخرى » •

ولاحظته وهو يسرع الى منزله يتبعه خياله الضئيل تحت ضوء الطريق الذى لا يكاد يضىء الممر الضيق بين منزلينا ــ ثم تحول جهة اليمين حيث كان هناك منزل آخر يحدد نهاية القرية • وكان مظلما مهجورا فى هــذا الوقت من السنة • ويأتى اليه أصــحابه لقضــاء فترة الصيف • ولــكن ما كدت أوجه نظرى الى المنزل المهجور حتى رأيت رجلا يقفز من بابه ثم يبطىء فى سيره مارا بمنزلى كما لو كان مصادفة أو عائدا من نزهته الى نهاية حاجز المياه •

وكان على أن أرى ذلك الرجل مدة اقامتى فى زوتشى اذ أصبح رقيبا على تحركاتى •

٤
اليابان تواجه الشمال والجنوب

في صباح اليوم الثاني بعد زيارة ساتو · تدفقت على مخيلتي ذكريات عن سلطات الشرطة في اليابان · وعما أنا فيه من العزلة في زوتشي · وذلك عندما اندفعت Miss Summer الى غرفة نومي في وقت مبكر حوالى الساعة السادسة والنصف صباحا · وكانت ثائرة بصورة واضحة بالرغم من محاولتها ضبط شعورها وهي تقول :

Zack-San · بالباب أحد رجال الشرطة يريد التحدث اليك »·

وكان رجال الشرطة في اليابان عنوان السلطة· فهي الدوائر الحكومية ذات النفوذ القوى والتى تعرف كل شيء عن عامة الشعب · يقفون في مظلاتهم الخشبية في أركان الطرقات أو يسيرون من آن لآخر في المنطقة المحددة لهم في بطء وبخطوات منتظمة · ويمثلون كلب الراعى وهو يرقب قطيع الماشية · وما أسرع ما يلجأون الى سيوفهم في شيء من الاستفزاز ، وعلى العموم كقوم بدائيين اذا ما وضعوا في مراكز ذات نفوذ · ويستعرضون قوتهم في اتقان ــ كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا · ويعرف اليابانيون جيدا أنه من النادر أن تكون هناك حاجة لاستخدام القوة· وقد كنت على بينة من الشعور العام لدى اليابانيين تجاه هؤلاء الشرطة الهوائيين المختالين عندما وعدت الشعب الياباني في اذاعاتي سنة ١٩٤٥ بأن هذه الفلول من الساموري الماضين وبقية الشوجات الطغاة سوف نقضى عليها اذا ما استطعنا أن نفعل شيئا بشأنهم ·

وبطبيعة الحال كان ظهور أحد هؤلاء في منزلى صدمة للخادمتين · وبينما كنت أرتدى الكيمونو الخفيف أخذت أفكر في نوع الرسالة التى جاء بها رجل الشرطة ــ بعد زيارة ساتو مباشرة · فلا شك أنها تتعلق بتلك الزيارة · وعلى ذلك أعددت نفسى لتوضيح الامر ــ وليس اعتذارا لزائرى ــ بل لانقاذ ساتو من شيء من الاحراج ·

حتى اذا خرجت الى الحديقة الصغيرة خلف منزلى للقاء هذا الذى يحافظ على قوانين التهديد وجدت رجلا غير منتظم الهندام فى ملابسه الرسمية الزرقاء يعلوها الغبار . يقف مزهوا ويده قابضة على سيفه . وكان من الواضح أن الرساله التى يحملها زادت من اعتزازه بنفسه ومن الغرور الذى تتميز به الطبقة التى ينتمى اليها .

واذا به يحيينى بانحناءة وأدب جم مما دل على أنه لم يأت لاجراء أى بحث . واتضح أنه يحمل رسالة لى وأن مركز الشخص الذى أرسله جعله يزهو بنفسه فى مثل هذا الوقت المبكر من الصباح . وكانت الرسالة من وزارة البحرية وظهرت بانها لا تنطوى على أى ضرر عندما نقلها الى رجل الشرطة بهذه الطريقة المهذبة . ثم أن دور الشرطة فى مثل هذه المهمات أمر طبيعى . فلم يكن لدى تليفون فى زوتشى اذ لم أكن أرغب فى دفع ذلك المبلغ الباهظ ثلاثة آلاف ين لشراء تليفون . وفى الواقع كان التليفون . الوحيد فى القرية فى مركز الشرطة . واذا أراد أصدقائى فى طوكيو أن يتصلوا بى . يطلبون من الشرطة نقل الرسالة الى منزلى . وغالبا كنت أرى هذا الرسول بكسوته الزرقاء خلال اقامتى فى زوتشى .

وقال الرجل « اتصل بى الضابط المساعد لوزير البحرية منذ هنيهة وطلب منى أن أقرأ عليك هذه الرسالة » ثم أخذ يعبث فى جيبه واخرج قصاصة من الورق وقرأها : « اذا جئت الى طوكيو فى الغد فالرجا الحضور الى الادارة البحرية فى الساعة الحادية عشر صباحا » . وبعد ذلك حيانى شاكرا وانصرف مزهوا كالطاووس . وكان هذا الضابط يشترك معنا فى كثير من الحفلات غير الرسمية فلم تكن دعوته هذه مفاجأة لى . وكان اليابانيون يعرفون عاداتنا . اذ أن ضباط اللغات يتوجهون عادة فى ذلك اليوم لمقابلة الملحق البحرى — يوم صرف المرتبات . ولذلك قررت أن ألبى الدعوة . وأخذت القطار الكهربائى الى طوكيو حيث كنت فى الساعة الحادية عشر بالضبط جالسا أمام مكتب الضابط المساعد .

وكان هناك ضابط يابانى آخر يجلس الى مكتب مجاور فقدمنى اليه . وبدا لى أنه فى شىء من القلق مما يدل على أنه جاء لغرض معين . فأخذت أرقب تصرفاته فى حرص وعناية .

وقال الضابط مازحا « ما الذى دعاك لان تقبر نفسك فى جحر صغير مثل زوتشى ؟ » ·

فأجبته « حسنا · آن جحر طوكيو الكبير لا يساعد على تركيز ذهنى فى دراسة لغتكم الصعبة · وهناك حفلات تقام غالبا أكثر مما ينبغى » ·

وسألنى الضبط الاخر « هل تعرف القومندان يا ماجوشى ـ تامون ياماجوشى الذى يدرس الآن اللغة الانكليزية فى بلادكم ؟ » ·

وأجبته بأنى لا أعرفه ·

وهكذا سمعت لاول مرة بياماجوشى ـ اسم كان على أن ألاقيه طيلة العشرين سنة التالية · واذن كانت هنا الفكرة الرئيسية · فان وجودى فى زوتشى قد عكس شيئا ما يتعلق بياماجوشى فى الولايات المتحدة حيث كان ضابطا يدرس اللغات مثلى وسجل اسمه فى جامعة برنسيتون · ولكن مما ظهر من ضباط اللغة من اليابانيين فيما بعد · لابد أنه كان كذلك يمارس نشاطا لا يتعلق بدراسة اللغة الانجليزية · وكانوا يهتمون بالامر بالغ الاهتمام اذ أن الضابط عالج الامر مباشرة وقال فجأة : « قبطان زاخارياس · أن اقامتك فى زوتشى لا تثير أى اعتراض طالما كان عملك مقصورا على دراسة اللغة · وانت تعيش الآن بين قوم بسطاء لا يرون الاجانب الا نادرا · وقد يتميزون بالسعادة أو بالكراهية · ويتصورون أنهم يرون خيالا فى كل ركن من الاركان · وبالطبع سوف ينسبون الى اقامتك بينهم أمورا تبعث على السخرية · فالرجا مراعاة ذلك أثناء تجولك بين أهالى زوتشى » ·

ثم توقف لحظة · وبعد أن أطلع على ورقة أمامه · تحول الى وقال :

« ان جارك مستر ساتو رجل مهذب ومثقف ولكنه يدين بأفكار متطرفة مع شىء من الهذيان · وأظنك قد تحتاج لان أخبرك بهذا لانى أعلم بأنه قد قام بزيارتك » ·

فشعرت بالضيق وقلت له بنفس الخشونة التى تحدث بها :

« أتظن أنه من اللياقة أن أتحرى عمن أستقبلهم من الزوار ؟ ·

وهنا ارتسمت على وجهه ابتسامة مغتصبة وقال بصوت قد يكون مهدءا للخاطر لولا ما انطوى عليه من التهكم :

« نحن لا نتحرى عنك أيها القبطان · ولكنك لا تستطيع أن تمنع مثل هذه الامور من الانتشار هنا وهناك » · ثم اتكأ على مكتبه فى مواجهتى وقال بلهجة ودية :

« نحن اليابانيون قوم فضوليون نهتم بأتفه الاشياء حولنا · ألم يصادفك فى قطار أو مطعم قوم غرباء يبدأون الحديث معك بأسئلة عن أشياء تافهة تعتبر تدخلا فى شئونك الخاصة ؟

ومقاصدنا حسنة اذ أنها طريقتنا لعقد الصداقة والتعارف · أما من جهة زائرك فأن خادمتك هى التى تحدثت عن زيارته لك مع صبى الجزار الذى نقل الحديث الى سيده · وهذا · بدوره · أخبر خادمة مدام فوجى ساوا التى نقلت الخبر الى سيدتها · ولما كان فوجى ساوا أحد زملائى هنا فى الادارة البحرية · فمنه علمنا بهذا النبأ » ·

وقهقهت بالضحك بعد أن كنت أشعر بشيء من القلق أثناء جلوسى أستمع لحديث الضابط · وابتسم الضابط المساعد ولكن رفيقه انفجر ضاحكا كالممثل الذى يغتصب الضحك طبقا لتعليمات المخرج على المسرح · ولكنه لم يكن ممن يتسمون بمظاهر المرح والابتهاج ·

وفجأة تدخل الضابط المساعد وسألنى :

« ما هى المدة التى تقصد أن تقضيها فى زوتشى ؟ » ·

« حقا لست أدرى · وانت ترى أنى وصلت منذ فترة قصيرة · وكل شيء يتوقف على مدى اطمئنانى للعزلة من حيث مراجعة دراساتى » ·

« اتمنى لك وقتا سعيدا وآمل أن تجنى ثمرة جهودك » · ووقف اشارة الى انتهاء الاجتماع وانصرفت · ثم دار بذهنى أنه من الغريب أن يطلب منى أن أقطع طول هذا الطريق من زوتشى لكى أسمع منه أن مستر ساتو يعانى شيئا من الهذيان · وكنت أعرف من تصرفات المخابرات

البحرية اليابانية ما يكفى لكى أدرك أن معرفتى بساتو قد سببت لهم شيئا من القلق . ولذلك قضيت بعد ظهر اليوم فى طوكيو أتحرى عن صديقى الجديد . وتحدثت الى مراسل احدى الصحف اليابانية من معارفى والى أمريكى قريب الصلة بالعمدة ويعرف مساعده ساتو . واتفقا على أن ساتو رجل من الاحرار . سليم التفكير . ويمتاز بشجاعة التعبير عن معتقداته . وفى ذلك الوقت لم يكن من المجازفة الاعراب عن أفكار خطيرة كما كان بعد بضع سنوات عندما صدر قانون صيانة السلام . وفى سنة ١٩٢٢ شعر اليابانيون بحرية التعبير عن آراء متحررة حتى الى الاجانب . وكان الاتجاه العام نحو تلك الامور التى توفرها الديمقراطية .

وعندما أفكر الان فيما مضى من أحاديثى المتعددة الطويلة مع كيشير وساتو . أشعر بالعطف على البحرية اليابانية التى كانت لا تميل كثيرا الى مجاورتى له . وفى الحق كانت هذه العقلية المعتدلة هى أول ما أوضح لى فكرة عامة عن تلك الخطط الهائلة التى شكلت فيما بعد جزءا من الاستراتيجية اليابانية التى تهدف الى الغزو والسيطرة . وبدونه كنت أدركت فى وقت متأخر جدا أن البرنامج الذى تضمنته فى اليابان ماسموه « السياسة الجوهرية » كان مشروعا عدوانيا يشعل نار الحرب بين العالم الباسيفيكى بأسره . ثم أن محادثاتى مع ساتو رسمت لى صورة أوضحت لى السياسة الجوهرية المقامة على أسس من الغطرسة والغزو . واعدتنى لكى أكرس حياة لمكافحتها .

وصلتنى هذه بصورتها الحالية والتى أصبحت تحت مراقبة طوكيو . كان لابد من اقامتها على قاعدة أكثر مناسبة من صداقة بين جارين . وهيأت لى دراستى للغة الفرصة للقيام بذلك . فقد كان لدى فى طوكيو اثنان من المدرسين أقضى معهما من ثلاث الى أربع ساعات فى اليوم أدرس اللغة وأتعلم رموزها . وجاء أحدهما معى الى زوتشى فقررت أن أستأجر ساتو مكان الآخر . فكان كلما جاءنى يحمل كتابا لقواعد اللغة . وأولئك الذين يرغبون فى استراق السمع حول محادثاتى كانوا يستمعون الى محاولاته لتعليمى اللغة وحيلها . وأما محادثاتنا السياسية فكانت تدور باللغة الانجليزية التى لا يفهمها أحد فى المنزل .

ومع وجود ساتو فاضت حصيلتى من الشائعات والاحاديث التى تدور فى مكتب العمدة فى طوكيو . فكانت ملحقا لما ينشر فى الجرائد ومتممة لما تغفله الصحف غالبا . ومن أحاديثه عرفت متى استقال الامير

ياماجاتا أكبر السياسيين سنا فى فبراير سنة ١٩٢١ • وسبب تقاعده حماسا واسع النطاق بين أفراد الشعب • وأخبرنى ساتو أن السبب فى ذلك هو معارضة المارشال فى رحلة ولى العهد الى بريطانيا العظمى • وعندما أوشك ولى العهد على اتخاذ عروس له جاءنى ساتو بما دار من همسات حول هذه الخطوة الهامة • فقد اختيرت الاميرة كوتى لتكون امبراطورة اليابان فى المستقبل •

وعن طريق ساتو تمكنت من متابعة الاحداث التى تجرى فى القصر يوما بعد يوم • وعلمت بقرار الاميرة بموافقتها على زواج ولى العهد أخيرا• قبل اعلانه رسميا فى الصحف بمدة طويلة •

ثم أن الشائعات التى نقلها ساتو بهذه الوفرة لم تكن سوى جزء متمم لمعلومات واسعة المدى كالصفحة الهزلية فى احدى الجرائد • فقد كان لديه الكثير من المعلومات ليدلى بها ـ معلومات ملأت كثيرا من الثغرات واكملت معالم الصورة • اذ كانت اليابان تواجه الشمال والجنوب عندما كانت تجاهد لتوسيع حدود الامبراطورية ورقعة جزيرتها الضيقة • وكانت هناك مؤامرات وعصابات ودسائس تحتل كل مبنى رسمى فى طوكيو وتجذب الامة ذات اليمين وذات اليسار • ولكن كان اتجاهها دائما نحو التوسع • واتجهت الانظار نحو الغرب عبر البحار الى القارة الاسيوية حيث شكلت البقاع البيضاء على خريطة الصين مواقع الاقدام فى هذه الخطة •

والصورة التى رسمها لى ساتو والتى كان لدى فرصة مناسبة لتأكيدها من مصادر أخرى وكانت تختلف كثيرا عن الفكرة السائدة بين الجمهور الامريكى • كما تختلف حتى عن وجهة النظر المقبولة لدى معظم المراقبين المعاصرين • وكانت الثغرة التى تفصل بين الجيش والبحرية فى اليابان أكثر عمقا من انها مجرد منافسة بين فريقين تشتغلان بالسياسة فى القوات المسلحة • ثم أن الجيش والبحرية كانا يمثلان كوكبين يجريان لمستقر لهما فى مدار الفلك وقدر لهما ألا يتلاقيا الى الابد • فكانت عقول رجال البحرية مشغولة بالشئون الدولية من حيث المحطات• وكانت القوة البحرية البريطانية تحقد عليها وتعجب بها فى الوقت نفسه • اذ كانت تتطلع الى غزو الاراضى النائية فى سهولة بقدر ما تستطيع لانها أدركت أن القوات البحرية التى فى متناول اليابان غير صالحة للاشتراك فى حرب

كبرى • وكان كبار ضباط البحرية اليابانية يتعرفون على العالم من ملاحظاتهم الشخصية • فقد زاروا الولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا وأصبح لهم أصدقاء كثيرون فى جميع أنحاء العالم • ولم تكن آفاقهم تنتهى عند سواحل اليابان بل — فى الواقع — تبتدىء من نهاية تلك السواحل •

ومن ناحية أخرى كانت عقول رجال الجيش متعلقة بالاراضى وأكثر من ذلك كان اكثر اهتمامهم بتلك الاراضى الشاسعة عبر البحار • وبينما كانت البحرية تفكر فى صورة حرب تقوم بين القارات وفى سنة ١٩٢٢ على الاقل — كانت توجس خيفة من احتمال نشوبها • كان الجيش يفكر فى صورة حرب تقوم فى القارة وكان يشعر بالضجر لكى يتحرك حيث لم تكن هناك عقبة أمام الهراسات اليابانية لكى تقتحم المناطق التى تجدها صالحة للغزو فى سهولة ويسر •

ثم أن الجيش يعتبر البحرية ان هى الا وسيلة لنقل القوات • فقد كان يحتاجها لكى تنقل القوات الى المواقع التى تقصدها حتى اذا وصلت القوات الى الشاطىء لم تكن من حاجة الى البحرية • وفى الواقع كان الجيش يعتبر البحرية منافسا لازما ليقاتل من أجل الحصول على المغانم والاسلاب التى يتوقع الجيش وجودها فيما وراء البحار • بينما معظم ضباط الجيش — حتى أصحاب الرتب الكبيرة الذين يضعون الخطط ويدبرون المؤامرات فى ريكوجون — شو أو وزارة الحربية لم يتعدوا حدود اليابان • ولما كانوا من طبقات غير ارستقراطية فان نزعتهم الاستعمارية لم تكن تنطوى على فلسفة وجدارة مؤسسى الامبراطورية الحقيقيين • فهم رجال من طبقات عادية خشنو الطباع فيما يحبون • قساة القلب على ما يكرهون سلالة الطبقات المتوسطة التى تمثل أبناؤها الآن قدماء الساموراى المحاربين المحترفين من عهد فرسان اليابان فيما مضى • وفى محادثاتى فى أول الامر أوضح لى هذا التغير التاريخى الهام الذى أشار الى تطورات أشد خطورة فى المستقبل • اذ قال : « يظن الاجانب عادة أن العسكرية اليابانية هى على غرار النظام العسكرى البروسى • ولا شىء أشد من هذا خطأ • صحيح أن جيشنا سار على نمط الجيش البروسى وبقدر ما تدرجت بحريتنا على نظام البحرية الملكية البريطانية • وكان تدريب جيشنا فى أول الامر على أيدى ضباط فرنسيين • ولكن اليابانيين كانوا دائما يسكرون بلذة النجاح فلما رأينا أن الجيش

البروسى يسيطر على نصف أوروبا ما بين سنة ١٨٦٠ ، سنة ١٨٧١ قررنا أن نعهد الى الضباط البروسيين بتدريب جيشنا ٠ وكانوا مدربين ماهرين الى أقصى حد وجعلوا من فلاحى اليابان جنودا صالحين٠ ولكنهم لم يستطيعوا نقل الفلسفة العسكرية البروسية الى اليابان التى أوجدت لها فلسفة عسكرية خاصة كانت معقدة كالرموز التى استخدمتها فى الكتابة ٠

وسألته « أين هذه الوثائق المكتوبة ؟ » ٠

فسكت ساتو فجأة وحول وجهه الى ناحية أخرى كما لو كان قد شعر بالاسف لتفوهه بتلك الكلمات ثم قال « لم تكن سوى رموز للكلام ـ كلمات فقط لا معنى لها » وتردد لبضع دقائق واسرع بقوله « لم تكن مدونة فى أوراق بل هى رموز للكلام فقط » ٠

ولم ألح عليه فى الحديث حول هذه النقطة اذ كان من الواضح أن ساتو يتحدث عن وثيقة معينة محفوظة فى خزانة سرية بينما كنت أفكر فى كتب ومواد مطبوعة ٠

ولهذا توصلت الى معرفة أحد أسرار ساتو التى يحرص على الاحتفاظ بها ٠ وقررت أن أترقب فرصة سانحة ٠ولكى أزيل ما يساوره من شكوك، وحولت مجرى الحديث بأن سألته أن يوضح لى فى اختصار تطور حالة الجيش فى اليابان منذ عودة الميجى للحكم فتكرم باعطائى صورة واضحة المعالم لنظام الرتب العسكرية من سنة ١٨٦٨ ـ وقت الاسترداد ـ لغاية سنة ١٩٢٢ ٠ كما أوضح لى القوات التى كانت تعمل من وراء الستار ٠ وكان من المهارة بحيث رسم صورة كاملة لعسكرية الطبقات المنحطة بما فيها من أوجه الضعف البغيضة التى تلازم القوة التى تبدو فى غير أوانها ٠

واعترضت حديثه مؤكدا « يجب أن تدرك اننى هنا ضيف على بلادكم وليس لى أى قصد للتسلل الى مواطن أسرار اليابان » ٠ وابتسم ساتو موافقا على كلامى ٠ ثم سألته « ولكن ما هو اسم المجموعة التى تهدى العسكريين الى تحقيق أغراضهم ؟ « فتردد فتردد والقى برأسه الى الوراء على الطريقة التى يتميز بها اليابانيون ٠ ثم تطلع الى سقف الغرفة وأخرج

نفسا طويلا Sa-a-a وهى الطريقة المثالية فى اليابان لجنى وقت للتفكير . وصاح فجأة : « The Koku-Ryu-Dan » — وهى جمعية « الدراجون الاسو. » .

حتى اذا نطق بهذه الكلمات السحرية اتخذت القصة بأكملها مظهرا مختلفا . فقد كانت هذه الجمعية فى الماضى حوالى سنة ١٩١٥ وراء مطالب اليابانيين بقصد التوسع . والتى قدمت الى الصين تحتما سموه «المطالب الواحد والعشرون» . ولو قبلتها الصين لتوفر لليابان الاشراف السياسى الاقتصادى والعسكرى على جميع أرجاء الصين . وقامت اليابان بتحركات أولية لوضع هذه المطالب موضع التنفيذ. لولا أن وقف فى وجهها الضغط الاجنبى ولا سيما من ناحية الولايات المتحدة وحيل بينها وبين تثبيت أقدامها فى القارة . وهنا كان البرهان على أن الخطة كانت تدور برؤوس المتآمرين أصلا وكانت لاتزال هى السياسة الجوهرية للعسكرية اليابانية.

واصبحت الآن أدرك معنى القصة بأكملها . فمن المعلومات التى حصلت عليها من ساتو ومن آخرين قليلين فى فترة طويلة من الزمن تمكنت من تكوين صورة ظاهرة المعنى لخطة كانت تدبر اذ ذاك فى ما كان يطلق عليه اسم البحث فى لجنة النشاط السياسى التابعة لمروجى الحرب فى اليابان . وكانت لا تزال فى مراحلها الاولية مسودة ليس الا . فلم تكن قد احتوت على النقاط المفصلة التى اشتملت عليها فيها بعد . وحتى هذه المقتطفات من التصريحات التى دارت على ألسنة كبار اليابانيين كانت لها أهميتها . ثم أن ساتو . ولو أنه لم يكن عضوا فى هذه الجمعية — الا أنه كان فى موقف استطاع فيه أن يجمع كثيرا من المعلومات التى كانت تتسرب من الاوساط العالية .

تضمنت الخطة ضرورة استعمار الشرق الاقصى وامتداد الامبراطورية اليابانية نحو منشوريا ومنغوليا . ومما زاد فى دهشتى أنى وجدت أن أهم شىء فى محيط النزاع أنه لم تكن روسيا بل الولايات المتحدة هى التى اعتبرت العقبة الكبرى فى سبيل اليابان لكى تنفذ أغراضها . وحتى الآن أتذكر ذلك الجزء من محادثة ساتو بالتفصيل حيث انتقد الدور الذى لعبته الولايات المتحدة من وراء ستار والذى كانت نتيجته عقد محالفة الدول التسع التى تدخلت ضد توسع اليابان فى منشوريا ومنغوليا .

والتورط فى الاخذ بمبدأ « لكى نسيطر على الصين لابد لنا من سحق الولايات المتحدة » ظهر فى بيان واضح بعد خمس سنوات وتضمنته مذكرة أعدت للامبراطور - تلك المذكرة التى اشتهرت بسوء السمعة شأنها كشأن « مذكرة تاناكا » ٠ وهذه الوثيقة معروفة على نطاق واسع ونوقشت فى تفاصيل دقيقة جدا لدرجة أنى لن أخصص وقتا طويلا لوصفها ٠ وفى سنة ١٩٢٢ عندما تناقشت مع ساتو حول الآراء التى ساهمت فى تكوين صيغتها التالية كانت لا تزال تدور غامضة فى أذهان مؤلفيها ولو أن مبادئها كانت قد طبقت من قبل ٠ ولكن عندما نشرت فى الصين بعد بضع سنين واثارت استنكارات ساخطة من اليابانيين لم يساورنى أدنى شك فى أنها كانت النسخة الصحيحة للوثيقة الحقيقية وليست مزيفة كما ادعت السلطات اليابانية ٠ وقد زودنى ساتو بتفاصيل اعداد « مذكرة تاناكا » بندا بندا وخطوة بعد الاخرى ٠

وقد تفقد الخطط المستقبلة والمدبرة فى الوقت الحاضر كثيرا من أهميتها فى نظر من يراقب الامور بطريق المصادفة ٠ ولكن بعد أن غادر ساتو منزلى بوقت قصير تبلورت فى ذهنى حقيقة الامر وهى أنى أصبحت أقف على سر من أسرار اليابان الكبرى ٠ فتضاعفت المراقبة التى فرضت على منزلى بعد أول زيارة له ٠ واصبح هناك عدة أشخاص فى ملابس مهلهلة يطوفون حول المنزل فى ساعات غير مألوفة ٠ ولم أعد أعتبر نفسى مراقبا أرقب الامور مصادفة ٠ اذ اصبح المستقبل ينطوى على حقيقة تنذر بالشر ٠

فبعد بضعة أيام جاء رجل الى مكتب الملحق البحرى الامريكى وأنبأ بأنه لديه موضوع شخصى يريد أن يتحدث الى كابتن واطسون بشأنه ، وما لبث الكابتن أن فطن الى هذا الموقف غير العادى واتسم ببشاشته المعتادة كلما دفعته غريزة حب الاستطلاع ٠ وقدم الرجل نفسه باسم مستر يوشيموتو - يابانى فى الاربعين من عمره ٠ يبدو من ملابسه أنه رقيق الحال ٠ ويضع منظارا على عينيه ٠ وكان فى تلك الحالة المثالية التى تميز اليابانى عندما يشعر بأنه يحمل رسالة هامة ٠ وكان قصير القامة اسمر اللون تشع عيناه ببريق النشاط وحدة الذهن كما تدل ملامحه على التعصب مما يتعارض مع هيئته الزرية ٠

قدم مستر يوشيموتو نفسه على أنه موظف بادارة الخرائط البحرية٠ وذكر أنه فى هذه الايام يقاسى متاعب عائلية ومصروفات غير عادية مما

جعله يعيش أوقاتا عصيبة · وقد أحضر معه بعض خرائط استراتيجية هامة لها طابع السرية ويود أن يستغنى عنها فى مقابل ما تستحق من التقدير ·

ولا يستطيع أن يقدر كابتن واطسن الا أولئك الذين يعرفونه معرفة تامة ويعلمون أنه يهدىء بال محدثه بقوله « لماذا أيها الرجل الطيب · كم أنت لطيف بقدومك الى » وتلن هذه الملاحظة محادثة بسيطة ثم أضاف الكابتن « أنت تعلم ـ طبعا ـ أنى لا أستطيع ان أدفع مبلغا كبيرا من المال قبل أن تتوفر لى فرصة لفحص الشىء الذى اشتريه · فان حكومتى لا تتحرج عن قطع رأسى فى أية لحظة » · فأومأ مستر يوشيموتو برأسه موافقا على ملاحظة الكابتن الذى مضى يقول فيما يشبه الحق « ليس من الافضل لك أن تبقى هنا طويلا · واقترح أن تعود فى مدى ساعتين حيث أخبرك بما قررته بشأن هذا الموضوع » · وهكذا كان الامر مناسبا ولكن يوشيموتو انصرف منبرما ·

حتى اذا خرج الى الطريق استدعى كابتن واطسون سيارته وتوجه فى الحال الى Kaigun-Kho لمقابلة كابتن نومورا مدير المخابرات البحرية · حيث استدل على مكتبه وتحت ابطه لفة من الخرائط ·

وبعد أن حياه نومورا بطريقته الودية المعتادة صافحه واطسون وأمسك بذراعه كمن يعتبره أقل ادراكا وتجربة منه وقال « كان يجدر بك أن تكون على دراية أكثر من أن تبعثلى بأحد الهواه من طرفكم ليعرض على أوراقا سرية لبيعها » · ثم توقف هنيهة واضاف » على الاقل كنت أرسلت لى شيئا أفضل » ·

فضحك نومورا وارتسمت على وجهه دهشة مصطنعة·وأمسك بذراع واطسون قائلا :

« تعال هنا · دعنا نجلس سويا فى مكان مريح » ·

وقال واطسون « لا · أستطيع أن أجلس بضع دقائق فقط · اذ قد يعود الرجل ولست أريد أن أضايقه · والان انظر الى هذه الخرائط التى تريدنى أن أدفع لها ثمنا غاليا » · وتظاهر نومورا بالتعجب والاهتمام

بالامر · وجذب نفسا طويلا بينما أخذ كابتن وطسون يتلو عليه القصة بأكملها مستنتجا « أيها الصديق نومورا · هذه أوراقك قد ردت اليك سليمة · ولكن لهذا خطره يا سيدى » ·

« حقا انك لعلى صواب · انه شيء خطير · لقد حذرتنى خشية أن تقطع رأسى · وعلى أية حال قد حددنا موقفنا الان » · وبهذا وباعتذار نومورا عن اليابانى الخائن أسرع كابتن وطسون عائدا الى مكتبه ·

وكما كان من المنتظر لم يعد مستر يوشيموتو – على أى حال بعد بضعة أشهر أشار المترجم اليابانى فى مكتب الملحق البحرى باهتمام الى نبأ صغير فى صفحة داخلية لاحدى الجرائد · وكان من الغريب أن يلتقط المترجم اليابانى مثل هذا النبأ اذ تجنب الكابتن مناقشة هذا الموضوع مع أى شخص سوى مساعديه الموثوق بهم · وجاء بالصحيفة « مستر يوشيموتو – موظف سابق فى ادارة الخرائط البحرية – حكم عليه بالسجن لمدة طويلة لمحاولته بيع أوراق سرية الى حكومة أجنبية معينة » · حتى ذكرت الصحيفة اسم يوشيموتو مما يعد ضربا من الخيال ·

واتضح معنى هذه الحادثة كاملة بعد بضعة أشهر عندما تكررت نفس المحاولة على ملحقنا البحرى ، ولكن فى هذه المرة احتفظ الملحق بالاوراق حوالى ساعات ثمانية ولم ينبىء احدا بالامر · وفى نهاية هذه الفترة استدعى لاستجوابه بمعرفة المخابرات الحربية اليابانية حول شخص مشتبه فيه زار الملحق فى ذلك اليوم ، ولما رأى الضباط الاوراق التى تركها الزائر سخطوا أشد السخط وكانت نتيجة الحادثة أن تورط الملحق العسكرى اليابانى بشكل خطير ·

وكانت هذه هى المحاولات المثالية من ناحية اليابان للحط من شأن الولايات المتحدة وكذلك لتبرير التوسع العسكرى اليابانى الذى يهدف الى توسيع رقعة الامبراطورية نحو الشمال ونحو الجنوب ·

٥

قضية كولونيل «×» الغريبة

ان ازدياد عدد المخبرين حول منزلى • والذين يتظاهرون بأنهم من الخونة ويترددون على مكتب كابتن واطسون وكذلك على مكتب كولونيل تشارلس برنت ملحقنا العسكرى والشباك الساذجة التى أعدت لكل فرد منا بمعرفة جون كيوكو ، كل ذلك كشف النقاب عن أن اليابانيين أدركوا أننا خصوم لهم فى حقل المخابرات • ومن الواضح أنهم كانوا يحاولون تشوية سمعة أوجه نشاطنا أو العمل على الغائها قبل أن تسبب أضرارا لليابان • فتكررت اجتماعاتنا بمكتب كابتن واطسون ـ وفى الواقع ـ أصبحت فى غالب الاحيان • وطالت فترات الاجتماع • اذ أصبحت المهمة التى بين أيدينا أشد خطرا • وكان فى استطاعة مؤتمر واشنجطون لتحديد القوات البحرية أن يسوى مسألة نزع السلاح بصورة مؤقتة بموافقة اليابانيين • وذلك لانه لم تكن لديهم وسيلة أخرى بالنسبة لعجزهم عن النهوض بالاسس الاقتصادية والصناعية التى تقام على دعائمها القوة البحرية الحديثة • ولكنه أوجد للمخابرات ضرورتها • وهذا ما أشار اليه كابتن وطسون الذى كان متيقظا للمهام الجديدة التى القيت على كاهل المخابرات •

فقال الكابتن : « لدينا الآن ثلاث مشكلات كبرى تستدعى الحل • وكل واحدة منها تتطلب ـ لحلها ـ عملا يستغرق كل الوقت ـ وأول مشكلة ـ بالطبع ـ هى مراقبة اليابانيين من حيث تمسكهم باتفاقية واشنجطون • وبالاختصار • علينا أن نكتشف اذا كانوا سيوفون بعهدهم الى واشنجطون : والاستغناء عن قسطهم فى السفن التى تزيد عن العدد المحدد • والمشكلة الثانية هى معرفة اذا كان اليابانيون سوف يلتزمون بالشروط التى فرضتها عليهم عصبة الامم للانتداب على عدة جزر فى الباسفيك • والمشكلة الثالثة هى اكتشاف مقاصد القيادة العليا للبحرية اليابانية واتجاههم نحو الشرق من الوجهة الجغرافية • وعلى الاخص طريقة تنفيذهم لسياسة الجحود التى ينتهجها المتعسفون من جمعية بلاك دراجون •

وكان كابتن وطسون رجلا واسع الافق يعتبر مهمته فى اليابان تمهيدا لضمان السلام • وذلك بالحصول على معلومات وافية عن خطط اليابان للحرب • وكان يقول دائما : « لو أننا عرفنا التفاصيل الدقيقة لخطط اليابان العدوانية لوقفنا فى وجوههم وهم ما زالوا فى مرحلة التخطيط • اذ أن معرفة تحركاتهم قبل الوقت المحدد بمدة كافية سوف تمكننا من أن نتخذ اجراءات مضادة لتلك التحركات • والا سيأتى يوم نجابه فيه مفاجأة قد تصيبنا بين أعيننا » •

وخلال مؤتمراتنا التى عقدناها فى مكتب كابتن واطسون تبين لنا أن منظمة مخابراتنا كما هى بحالتها الراهنة فى طوكيو تحت مباشرة الكابتن مناسبة تماما لمعالجة المشكلة الاولى وهى مراقبة تحديد القوات البحرية التى تنص فى الفصل الثانى ـ الفقرة الثالثة ـ القسم الثانى ـ على مطالبة اليابانيين باستهلاك عشر سفن كبرى فى الحال • وعشرة أخرى ما بين سنة ١٩٣٤ وسنة ١٩٤٢ • وكذلك بعدم الاستمرار فى برنامجهم الانشائى الذى يتضمن بناء بعض حاملات الطائرات وقد تم ذلك بمعرفتنا أثناء الحرب فى الباسفيك •

ولم تتناول المعاهدة قوة اليابان البحرية فيما يتعلق بطراز سفن الحراسة وطائرات التغطية ـ وهى ميزة وافقت عليها اليابان بارتياح • وفى مناقشاتنا مع هيئة أركان حرب البحرية علمنا أنهم يأملون بنوع خاص فى استثناء الطرادات الخفيفة والمدمرات وغيرها مما يستخدم فى الحراسة • فوجهنا عنايتنا الى هذا النوع من السفن وقمنا بدراسة وافية لتكتيك المدمرات اليابانية ووجدناهم يحتفظون بهذا الطراز لاستخدامه فى العمل أثناء الليل • وقد أعدوا لذلك خططا غاية فى المهارة • ولم تتدخل معاهدة واشنجطون فى هذه الخطط بأى حال من الاحوال (وتلك حقيقة اعتبروها أحد وجوه النقص الكبرى بالنسبة للمعلومات التى فى أيدينا) •

وأما المشكلتان الثانية والثالثة فقد كان حلهما يحتاج فى الواقع عناية خاصة بل ويحتاج أيضا فئة خاصةمن الموظفين• اذ كانت الوسائل المحدودة التى فى أيدينا لا تكفى لمراقبة اليابانيين فى اشرافهم على الجزائر التى تحت الانتداب • فلم يكن لدينا الوسائل أو الرجال بحيث نتمكن من اكتشاف المقاصد اليابانية وخططهم العدوانية فى نطاق أوسع مما نستطيع التقاطه علنا عن طريق المخابرات فى زمن السلم • وكان القبطان واطسون

قلقا بشأن الجزر تحت الانتداب . حيث وردت أنباء موثوق بها بأن اليابانيين ينتهكون شروط الانتداب التى تمنع اقامة التحصينات . ودلت التقارير القليلة التى جاءتنا من جزر الباسفيك على أن هناك نشاطا مثيرا : فقد كان التجار يوردون المواد التى تصلح لاقامة مواقع المدافع ومخازن الفحم فى السفن والممرات السرية : وكانت السفن البحرية تأتى الى هذه الجزر محملة بالمدافع الساحلية الثقيلة وغيرها من المعدات مما يعد تهريبا طبقا لشروط الانتداب . وبالرغم مما ساور كابتن وطسون من القلق الشديد فانه لم يستطع الحصول على اذن باجراء تفتيش فعال على هذا النوع من النشاط كما لم يكن على يقين من دقة التقارير العديدة التى تصل اليه .

فأخذنا فى تدبير خطط مرتبطة ببعضها على أساس من الطموح . وكنا نعدها فى مكتب الكابتن . وتضمنت هذه الخطط انزال الجواسيس من الغواصات وتهريب المراقبين الى جزر الانتداب متنكرين فى زى التجار المسافرين وأعضاء البعثات وما أشبه ذلك . ولكن السلطات العليا لم تشجعنا على تنفيذها أو أننا تخلينا عنها باعتبارها وسائل غير عملية . وأخيرا توصلنا الى حل شعرنا بأنه سيوفر لنا المعلومات التي نريدها . فقد كان المعتاد وقت السلم ارسال سفن بحرية فى زيارات ودية الى القواعد البحرية الاجنبية . واقترحنا أن تقوم بعض الطردات الامريكية وخاصة السفن المسافرة الى الصين والعائدة منها (وعلى ظهرها ضباط متيقظون من المخابرات) بزيارة جزر الانتداب بهذه الصورة الودية ويقضون معظم أوقاتهم فى هذه القواعد على قدر المستطاع فى حدود التصريح المعطى لهم . وبينما كانت هذه الخطة موضع اعجاب وتأييد كبير من السلطات العسكرية والبحرية كانت السلطات الدبلوماسية تقف فى سبيلها فقد كانوا يشعرون بأن الطلبات التى تقدم لمثل هذه الزيارات قد تخلق متاعب وارتباكات من الناحية الدبلوماسية . وعلى ذلك رفضوا أى شىء يتسبب فى ازعاجهم داخل دوائرهم فى كل من طوكيو وواشنجطون .

وبذلت مساع قليلة مائعة غامضة المعنى فى صورة مذكرات دبلوماسية فى لهجة مهذبة . نقترح على اليابانيين « من باب النصيحة » فائدة هذه الزيارات الودية لاواسط الباسفيك ولكن اليابانيين لم يردوا على مقترحاتنا ولو بالطريقة غير المباشرة التى خاطبناهم بها فى مذكراتنا . وشعرت أن بعض رجالنا الدبلوماسيين قد ارتاحوا لرفض اليابانيين قبول مقترحاتنا اذ تخلصوا مما كانوا يعدونه تعقيدات دبلوماسية لا لزوم لها .

فلما بدا لنا أن هذه الزيارات الودية أصبحت غير ذات موضوع عاودنا الكره الى خططنا الاصلية في مجال مخابراتنا الاكثر فاعلية ٠ وأصبح اعتقادنا يزداد شيئا فشيئا في الحاجة الماسة لارسال مراقب الى جزر الانتداب سواء رضيت اليابان أم لم ترض ٠ وكان من الواضح أن المراقب لن يسمح له بالتوجه اذا ما عرفت شخصيته أو تبينت مهمته علانية ٠ فلابد أن يكون البدل عميلا سريا يسافر متنكرا في هيئة مناسبة ويستطيع مراقبة الامور في الميدان بطريقة فنية ٠ وبينما كنا نفكر - في طوكيو - في صلاحية مثل هذه الحركة من الوجهة العملية - بدا لنا أن السلطات في واشنجطون قررت أن نعمل - وأدى عملهم الى احدى الاحداث الغريبة التى حظيت بمشاهدتها طيلة حياتى فى المخابرات البحرية ٠

وفى ربيع سنة ١٩٢٣ حين ارتاح كابتن وطسون لاستبداله بكابتن ليمان ٠هـ٠ كوتن من البحرية الامريكية ٠ لفت نظر ملحقنا البحرى رجل أمريكى وصل الى يوكوها ، وأصبح يرى غالبا وهو يغشى المشارب المبتذلة ومنازل الجيشا ٠ فكانت « الخطة » التى وضع رسومها كابتن واطسون قد اثمرت ٠ اذ تأكدنا أن هذا الامريكى ضابط متقاعد من المفهوم أنه أرسل فى مهمة سرية ٠ وكما ذكر خلال لحظات « التجلى » فى يوكوها أن واشنجطون قد اختارته للسفر الى جزر الانتداب متنكرا فى زى مسافر برىء « لاكتشاف الشرور التى تجرى هناك » ٠

ولم يكن الملحق البحرى الامريكى يفطن بنوع خاص لهذا السر المثالى الذى تقوم به واشجطون وكانت الخطة فى نظره غامضة تمام الغموض كما لم يكن كابتن كوتن ممن يشعرون بالوجوم اذا صرفت البيروقراطية عنهم ٠ وأدرك فى الحال - سواء أعلن رسميا أم لم يعلن - ان مهمة ذلك الضابط تدخل فى دائرة اختصاصه مباشرة - واضافة الى واجباته المعقدة رأى من واجبه مراقبة هذا الامريكى الغريب فى مشارب يوكوهاما ٠

ولم تكن هناك صعوبة كبيرة فى معرفة شخصية ذلك الغريب ومقاصده ٠ كما اننا لم نفهم مطلقا أن شخصا غير مسئول انتهك كل القواعد والمبادىء الصحيحة للمخابرات كيف يعهد اليه بمهمة لها طابع الخطورة ٠ ولو أننا كنا نشعر بشىء من الخوف ومن الفضيحة الا أنه كان من الصعب أن نفعل شيئا بشأن هذا الغريب الغامض ومركزه كضابط متقاعد ٠ أو - فى الواقع - كانت لدينا تعليمات سرية من سلطات عليا ٠

فلبثنا عدة أيام نفرض رقابتنا على هذا « العميل » ونلاحظه وهو ينزلق مسرعا الى حانات يوكوهاما · ووجدنا فى تحركاته ومظاهره ما كشف عن معلومات أكثر حول رحلته المفروضة · وليس هذا بالنسبة الينا فحسب بل فى نظر المخابرات المضادة أيضا · وأدركنا أن هذا « العميل السرى » قد أضاع ثمرة مهمته قبل أن يباشرها بصورة فعلية ·

ولم يمض وقت طويل حتى وصلت الانباء الاولى الى الملحق البحرى بشأن « كولونيل X » كما أطلقنا عليه الآن · وساعدنى الحظ لان أشترك فى بعض منافشات طارئة · اذ قال الملحق ثائرا :

« نحن نلقى متاعب حقه مع « كولونيل X » ·

وأبديت ملاحظة « أعرف أنه عاد لتناوّل الخمر » ·

فأجاب الكابتن « لم يعد لتناول الخمر فحسب بل أصبح مخمورا بصورة دائمة » ·

وحتى فى هذه الحالة الطارئة كان الكابتن محتفظا ببشاشته ·

وسألته « وماذا نستطيع أن نفعل ؟ » وأجاب الكابتن :

« لدى خطة · أن الكولونيل يبدو معتل الصحة وفى حاجة الى عناية طبية بصورة عاجلة · وأقترح نقله الى مستشفى البحرية الامريكية فى يوكوهاما حيث يتم فحصه بمعرفة كابتن وب (رئيس القسم الطبى للبحرية) · ثم نعيده الى الولايات المتحدة بأسرع ما يمكن » وبصفة عامة كانت الخطة موضع القبول والاعجاب · وفى صباح اليوم التالى أخذته سيارة الاسعاف وكان قد أعد نفسه لنوم طويل أثناء هذه الاجراءات التى لا مناص منها · حتى اذا استيقظ وجد نفسه فى جو هادىء بغرفة خاصة فى مستشفانا البحرية وفى خدمته رئيس الصيادلة زمباخ · الذى كان موضع ثقته وبمثابة حارس سجنه أكثر من أن يكون ممرضا له · ولو أن الدافع لهذه الاجراءات كان أصلا لاعتبارات تتعلق بالامن الا أن اهتمام الكابتن بحالة الكولونيل الصحية كان له ما يبرره بعد أول فحص أجراه دكتور وب · فقد كانت حالة مثالية لنهاية أسبوع ضائعة The Lost Weekend مع لفته من المخابرات · اذ كان الكولونيل ضعيفا بحيث لايمكن نقله الى بلاده · وعلى ذلك نصح لنا المختصون بالسماح له باستعاده شىء من صحته على الاقل فى غرفته الخاصة قبل ارساله فى رحلة تحتاج الى

مجهود كبير • وكان كابتن كوتن مترددا فى قبول هذا التأجيل ولكنه وافق فى النهاية على بقائه تحت رعاية المستشفى وزمباخ •

بعد مضى أسبوع جاءتنى دعوة من مكتب الكابتن لعقد مؤتمر طارىء آخر • وحيانى قائلا : « زاخارياس ها هو موضوع صاحبنا X ثانيا ! » •

« ماذا جرى الآن • يا سيدى ؟ » وصاح الكابتن :

« اللعنة للجميع » Damn it all « هو » A. W O. L. من المستشفى » •

« هل لجأ الى الهرب ؟ » •

« لا أدرى • فقد جاءنى وب ينبئنى بأنهم لم يجدوا الكولونيل فى أى مكان • وأن زمباخ قد قضى يوما كاملا يبحث عنه فى جميع الانحاء ولكن لم يعثر له على أثر » •

وفى حالتنا هذه التى تجمع بين التسلية والشعور بالقلق طلبنا المساعدة من مكتب الاشخاص المفقودين فى اليابان وبعض السلطات المحلية • وجرى البحث فى طوكيو ويوكوهاما بمعرفتنا وبمساعدة اليابانيين • ولكن دون جدوى • واستمر الحال على هذا المنوال مدة شهرين حيث وضع الكولونيل فى قائمة المفقودين • وفى نهاية هذه المدة استدعى الملحق الى وزارة البحرية اليابانية لاستلام معلومات معينة تبين منها أن الكولونيل مقيم فى جزيرة جالوت احدى جزر الانتداب — بناء على طلبه وأنه وصلها من يوكوهاما • ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الكولونيل رجل يتميز بالنبوغ والعزم بالرغم من سلوكه وما انطوى عليه من اخطاء مؤسفة • وكانت الانباء التى وردت من الجزيرة تبعث على الانزعاج لاكثر من سبب • فقد كان الكولونيل مريضا • وسمع الكابتن من موظف وزارة البحرية يقول : « فى الواقع أن الاطباء لا يتوقعون أن يعيش الكولونيل طويلا » •

فسأله الكابتن « وكيف نتمكن من اعادته الى طوكيو فى الحال ؟ وتلقى وعدا باتخاذ اجراءات سريعة مما جعله يشتبه فى الامر • ثم اخبرنى

الكابتن بعد عودته من السفارة التى علمت بالمشكلة من حيث الاتجاهات الدولية فقال « سوف ترى أن اليابانيين على استعداد للطوارىء ولا أتوقع أن يعود كولونيل X حيا ــ والى الابد » ٠

وأكدت لنا وزارة البحرية أن الاجراءات ستتخذ فى مدى أربع وعشرين ساعة وبعدها يعاد الكولونيل فى الحال ٠ ولكن فى صباح اليوم التالى أرسلت الوزارة اشارة تليفونية للملحق تقول أنه لا لزوم لاتخاذ اجراءات لنقل الكولونيل ٠ ثم اخبرتنا الوزارة « قد توفى الكولونيل فى الليلة السابقة وأحرقت جثته فى الحال ٠ ورفاته تحت طلبكم اذا رغبتم فى استلامها » ٠

أثارت هذه الظروف مزيدا من الشكوك فى نفوسنا اذ كانت الشواهد تدل على رواية قد أعدت من قبل ٠ ثم ترددت موجة من الشائعات ٠ فأخبر الكابتن اليابانيين فى صراحة أنه كان يتوقع منهم أن يوضحوا الظروف الحقيقية التى أدت الى وفاة الكولونيل ٠ وكانت معاينة الجثة لمعرفة سبب الوفاة أمرا لا محل له فلم يتبق من X سوى رفاته ٠ ولكن الموقف هيأ الفرصة لاتخاذ اجراءات وأبحاث معينة فى الحال وأسرع الكابتن فى انتهازها ٠

وأخبر اليابانيين يقول : « سوف أرسل مندوبا عنا ليتسلم الرفات ٠ فقد كان هذا السيد شخصية هامة فى الولايات المتحدة ونرغب فى دفنه بما يليق بمقامه من الاحتفال والتكريم » ٠

فكان هذا الطلب مفاجأة للمتحدث اليابانى ٠ وكما جرت عادة اليابانيين عندما يلاقون شيئا لا يتوقعونه لم يكن لديهم خطة جاهزة لمجابهة الموقف ٠ اذ كانوا يأملون أن قصة « كولونيل X » الغريبة سوف تنتهى الى الابد وأن رفاته ستصبح فى زوايا النسيان ٠ ثم هم يحتاجون الى وقت طويل لتهيئة أنفسهم لمثل هذه الطوارىء ٠ فقد كان أمامهم عدة مشاورات مع أشخاص كثيرين : وتوزيع المسئوليات ومايتفرع منها : ثم التغلب على ترددهم فى حمل المسئولية ٠ وهم لا يخشون شيئا أكثر من ضرورة اتخاذ قرار على الفور ٠ وفى حالة الارتباك الذى سادهم على أثر خشونة كابتن كوتن والقرار غير المنتظر ٠ عرضوا عليه أنه لا مانع لديهم من ايفاد رئيس الصيادلة زمباخ الى الجزيرة ٠ وهكذا رفع الحجاب ٠ وأعد أحد الامريكيين عدته للسفر الى جزر الانتداب علانية ومعه جواز

مرور أصدرته وزارة البحرية اليابانية • وشعرنا بأن « كولونيل X » ـ في وفاته ـ قد قدم لبلاده خدمة أكثر مما كان يستطيع وهو على قيد الحياة •

وفى مكتب الملحق البحرى استعد زمباخ للرحلة فى عناية ودقة • حيث أصدرت اليه تعليمات مفصلة كيف يؤدى مهمته وما هى الامور التى يتولى فحصها والبحث عنها • وفى هذا الوقت المحدود لتلقينه هذه الدروس أفهمناه جزءا من تكتيك المخابرات مع مراعاة الظروف بحيث لا يكون واعيا تماما لاغراض المخابرات من تلك الرحلة •

جاءت بعد ذلك فترة انتظار طويلة • فقد كان على زمباخ أن يسافر كلا الطريقين على بواخر يابانية • واستغرق ذلك حوالى أسبوعين فى كل رحلة • وكان اليابانيون على اتصال بنا ينبئوننا عن خط سيره وأخيرا علمنا بوصوله • ولكن بعد ذلك انقطعت أخباره اطلاقا لمدة أسبوعين • حتى ذات يوم خلال الاسبوع السابع من غيابه ابلغتنا وزارة البحرية أنه من المتوقع أن يصل زمباخ الى يوكوهاما فى صباح اليوم التالى • فتحولت لهفتنا وتذمرنا خلال سبعة أسابيع طويلة الى حماس شديد لاستقبال رئيس الصيادلة • وسافر أكثرنا الى الميناء لاستقباله • وكان انتقالنا على عربة الاسعاف التى تستخدمها مستشفى البحرية كوسيلة للنقل • وكنا فى حاجة ماسة اليها فى مثل هذه الحالة •

حتى اذا رست الباخرة اليابانية أخذنا ننتظر عبثا أن يظهر زمباخ أمامنا • ولما لم نستدل عليه صعدنا الى ظهر الباخرة للتعرف على مقره ومعرفة سبب التأخير • فأستقبلنا القائد فى أدب جم • وكان يرقبنا من أعلا الدرج وهبط لمقابلتنا عند البوابة • ثم قادنا الى قمرة تحت السطح حيث كان زمباخ • فلما فتحنا الباب وجدنا رئيس الصيادلة جالسا على سريره مذهولا يجول بعينيه فى الفضاء وهو فى ثياب غير منتظمة يدل مظهره على أنه تائه العقل • ولم يتحرك مطلقا عند دخولنا كما استطال شعر رأسه وذقنه ولم يستطع الوقوف لتحيتنا • فى الواقع بدا عليه أنه لم يتعرف علينا مطلقا بل استمر يتمتم بكلمات لا معنى لها فلم نصل الى شىء يدلنا على هذه الحالة المذهلة • وكان يضم بين ذراعيه صندوقا أبيض كمن يحمى كنزا لا قيمة له • وكان هذا هو الصندوق الابيض المثالى الذى يستخدمه اليابانيون فى نقل الوعاء البسيط حيث رفات الجثث التى تم احراقها •

وكان سائق عربة الاسعاف أول فرد فى المجموعة استرد نشاطه وأفاق من حالة الدهشة التى استولت على مشاعرنا · فبعد أن تحدث اليه حديثا مناسبا وضع يده على كتف زمباخ فى حنان وساعده بلطف على الوقوف لكى نستطيع حمله الى عربة الاسعاف · وغادرت السيارة فى عناية ثم شقت طريقها خلال شوارع يوكوهاما المزدحمة حتى وصلت الى مستشفى البحرية الامريكية التى تقع على مرتفع بارز يطل على الخليج · وتبين لنا أن الرجل الذى قد عاد لتوه من رحلته الغريبة الى الجزيرة لا يكاد يكون أكثر نفعا لنا من الرفات الذى يحرص على الاحتفاظ به بين يديه ·

واستدعى كابتن وب فى الحال ولكن لم يكن فى استطاعته أن يفعل شيئا كثيرا · فقد استمر عدة أيام فاقد الشعور وفى حالة ذهول شديد · وبالرغم من العلاج والعناية بحالته العقلية لم نتمكن من اختراق الجدار الذى أقامته أحداث غريبة بين زمباخ وبين العالم الخارجى ·

وظل كابتن وب ملازما الفراش مدة أربعة أيام يجرب كل الوسائل الطبية المعروفة لعلاج قواه العقلية لكى يستعيد وعيه · وأخيرا – فى اليوم الخامس – بدا الرجل السىء الحظ أنه يتجاوز منطقه الذهول اذ أصبح يستطيع النطق وظهر أن هناك تناسقا بين أفكاره وتصرفاته · ولكن بينما كان واعيا للحاضر منعته حالة حادة من فقدان الذاكرة لان يتذكر شيئا من الماضى القريب · وكذلك كنا نعود الى جانب فراشه يوما بعد يوم تجذبنا حالته الغريبة أكثر من أملنا فى الحصول على ايضاح لاسبابها · وفى كل يوم كان كابتن وب يلقانا بهذه الكلمات التى توهن من عزيمتنا : « ليست هناك فائدة · لا يزال فى حالة سيئة » ·

وسألته « ماذا تظن أن يكون سببا فى انقلابه هذا ؟ ألم يكن فى صحة تامة قبل مغادرته ؟ فقال الضابط « بالعكس · كان رجلا لطيفا يفيض بالنشاط والتحمس · ولم يكن يشكو من شىء مطلقا على قدر معلوماتى عن صحته · ولابد أنه حدثت له صدمة اختل لها عقله فى الفترة بين رحيله وبين عودته كما ترى » · ثم أضاف فى شىء من التفكير « أظن أن أصدقاءنا اليابانيين هم وحدهم الذين يستطيعون أن يفسروا حالته الراهنة » ·

فقلت « أتقصد يا كابتن أنهم فعلوا له شيئا ؟ » ·

وأجاب « ليس لدى تفسير آخر لهذا الغموض • فلابد أنهم دسوا فى طعامه بعض مخدرات قوية تضعف من حواسه ــ مورفين أو جرعات من الافيون ــ كما أن الرجل الذى تولى هذه العملية أداها باتقان تام • وليس فى وسعنا أن نصنع شيئا لان زمباخ فى حالة عقلية سيئة وسوف يمضى بعض الوقت قبل أن يعود الى حالته الاولى » •

ولم نتمكن من الوصول الى حل نهائى لهذا السر المزدوج ــ كولونيل ورئيس الصيادلة زمبـاخ • وقبل أن يسترد زمبـاخ صحته على الوجـه الاكمل هلك هو وزوجته فى نفس المستشفى على أثر الزلزال الكبير الذى حدث فى اليابان فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٣ • وبقيت معظم أسرار وفاة الكولونيل مدفونة فى ذلك الوعاء الصغير الذى احتوى على رفاته • وبطبيعة الحال أخذنا نحاول الحصول على بعض معلومات ــ على الاقل ــ حول الظروف التى لابست وفاة الكولونيل • ونجحنا فى العثور على أحد المبشرين كان يقف بجانب فراشـه بينما كان يلفظ أنفاسـه الاخيرة • وظهر لنا أن اليابانيين أنفسهم ساعدوا الكولونيل فى الوصول الى الجزيرة اذ كانوا قد وضعوا الخطة للتخلص منه هنـاك أفضل من أن يكون ذلك فى بلاد اليابان ذاتها • فقد أعدوا له المرور فى سهولة غامضة وجعلوا رحلته ساره له كما يشتهى • حيث امتلات مائدة قبطان السفينة بالكثير من المشروبات أثناء الرحلة • وكان هناك « أصدقاء » يسودهم المرح فى انتظاره بالجزيرة • وكانت اقامته القصيرة فى هذه النقطة الاستراتيجية عبارة عن سـلسلة متصلة الحلقات من حفلات لتناول الخمر • وليس من شك أن كانت جرعات السموم تضاف الى كل قدح يتناوله الكولونيل • وأثناء تلك الفترة كان يزوره أحد رجال البعثات الدينية كان مقيما بالجزيرة من عهـد الاحتلال الالمانى ومن الواضح أنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا من أجله • وكان يستعلم عن حالته من أحد اليابانيين فى أغلب الاوقات • ومات الكولونيل أثناء وجوده فى المستشفى • وجاء يابانى آخر نقل جثته الى حيث أحرقت فى الحال قبل أن يحتج رجال البعثة على هذا الفعل التعسفى •

وهكذا انتهت قصة « كولونيل X » الغريبة وكذلك أون محاولة لنا للحصول على معلومات عن الجزر تحت الانتداب اليابانى • ومن الواضح أن اليابانيين أوجدوا هذا الحادث بمثابة انذار لنا • وأنهم قصدوا أن يبينوا لنا أنهم لا يحتملون أى تدخل فى مشروعاتهم فى الجزيرة وفى غيرها من جزر الانتداب • وأنهم سوف يعملون الى أبعد مـدى لكى يثبطوا حمتنا ويضعوا حدا لفضولنا • وباستثناء بعض الاجانب ــ من المعتقد أنهم أبرياء

فى ذلك الحين ـ الذين تصرح لهم بدخول بعض الموانى المفتوحة • لم يستطع أى غريب أن يضع قدمه على جزر الانتداب لكى يعود الينا بأنباء عن حالة دفاعهم هناك وعن مقدار قواتهم العدوانية •

ولم تتضح لنا أسرار اليابانيين فى هذه الجزر الا بعد عدة سنوات عندما قررنا اكتشاف أمرها ـ وفى هذه المرة بقوة السلاح • فعندما قمنا باحتلال Truk وجاليت Jaluit وغيرها مما سموها نقط الدفاع القوية فى الباسفيك • وذلك فى مجرى الحرب الاخيرة • تبين لنا أن حالة ضعفهم أكثر من قوتهم هى التى كان اليابانيون يحرصون على اخفائها • ثم أن الادميرال مرى الذى استولى على ترك Truk ـ التى كانت تسمى فيما مضى البرج المنيع • وجبل طارق الباسفيك ـ وجد أن هذه القاعدة اليابانية الكبرى لم تكن أكثر من قنبلة فارغة اذا ما قيست بأمثالها • وأن جالوت التى أعلنت عنها الدعاية اليابانية بمهارتها أنها « حاملة طائرات لا يمكن اغراقها » كانت نقطة دفاع قديمة العهد بها مدافع عتيقة ومناطق ضيقة بدائية لانزال الجنود ـ تلك حقائق حرص اليابانيون على عدم وصولها الى مسامعنا عن طريق « كولونيل X ورئيس الصيادلة زمباخ • فقد كانت صعوبة العمليات البرية البحرية أكثر من معدات الدفاع فى هذه الجزر ـ هى التى جعلت احتلالها أمرا شاقا لهذه الدرجة • وسوف يظل تقديرا على مدى الزمان لتلك العبقرية الاستراتيجية التى تميز بها أسطول الادميرال نيمينز وغيره من واضعى الخطط من حيث القرار باحتلال هذين الموقعين بالرغم من الموانع التى أعلنتها الدعاية اليابانية ودون أن تسبق المخابرات بتقديم معلومات عن حقيقة أمر هذه الجزر• وقد كان مجرى حرب الباسفيك يتحول الى انتصار سريع لو علمنا ـ عن طريق الملاحظات والمراقبة وقت السلم • الدور المحتمل أن تلعبه هذه المواقع فى حالة حرب طارئة • ولكن المخابرات الامريكية كانت مكتوفة الايدى حتى اذا جابهت أهم واجباتها القانونية •

وبعد حوالى اثنى عشر عاما • سنة ١٩٣٥ • عندما تدهور الموقف فى الباسفيك الى درجة أن الحرب بين اليابان والولايات المتحدة لم تكن بعيدة الوقوع • حاولنا عبثا أن نحصل على معلومات عن الظروف الداخلية فى اليابان • وفى ذلك الوقت كنت رئيس قسم الشرق الاقصى فى ادارة المخابرات البحرية فى واشنجطون ـ اقليم كولومبيا • واردت أن أحيى فكرة قيام سفننا البحرية بالزيارات الودية التى أوصى بها ـ منذ أكثر من عشر سنوات ـ مكتب الملحق البحرى فى طوكيو • وقدم الاقتراح الى وزارة

الخارجيـة حيث نوقش فى قسـم الشرق الاقصى • وقوبل بنفس الحيرة والامتناع كما قوبلت اقتراحات كابتن وطسون وكابتن كوتن من قبل ــ وعارض يوجين دومان ــ الذى كان رئيس القسم اليابانى بوزارة الخارجية ــ فى الحصول على تصريح من اليابانيين لمثل هذه الزيارات الودية •

وقال مؤكدا « لا أظن أن الاصرار على هذا الموضوع قد يحقق غرضـا نافعا فى هذا الوقت » • فعارضته قائلا « حتى اذا رفضوا فمن واجبنا أن نرغمهم على التعبير عن هذا الرفض كتابة • وحينئذ تتاح لنا الفرصة لعرض الامر على عصبة الامم ونطالب بالتنفيذ بطريق أو بأخرى » •

وبالطبع لم تكن اليابان عضـوا فى عصبة الامم فى ذلك الحين ولكن التزاماتها بشأن جزر الانتداب ظلت باقية لم تتغير • ولم أسـتطع دفع مستر دومان الذى قال فقط « هـذا موضوع جـدال • وانى أعارض كل محاولة لاثارته » • وقد كنت أدرك تماما الصعاب التى يلقاها الدبلوماسيون فى عملهم وكذلك أيتيكيت العلاقات الدوليـة التى تثير موضوعات هامة مقابل مذكرات دبلوماسية هادئة • حتى كان فى استطاعتى أن أعطف على وجهة نظر مستر دومان التى لم يشاركه فيها آخرون من القسم اليابانى فى وزارة الخارجية • ولكنها كانت تتخذ عادة فى سفارتنا فى طوكيو ــ وذلك عندما أدركت أن اليابان دأبت على اتخاذ مواقف مثيرة للغاية وعلى ارتكاب مخاطرات لا يمكن تسويتها بالطرق الدبلوماسية • والشىء الذى كان موضع استيائى هو خشونة مستر دومان فى رفضه وعدم رغبته فى الوصول الى حل وسط حيث يمكن الاحتفاظ بالاتيكيت الدبلوماسى مع استقرار أمن البلاد • فقد كانت القيود ــ الى حد كبير ــ التى فرضتها دبلوماسية ما قبل الحرب على مخاطراتنا وقت السلم • هى التى أرغمتنا على الاشتباك فى حرب شاملة دون الحصول حتى على المعلومات الاولية عن حالة العدو •

وقد تنبأنا بهذا التطور قبل سنة ١٩٣٥ بفترة طويلة عندما حاولت الحط من شأن معارضة الدبلوماسية لخططنا ومطالبنا • حتى فى سنة ١٩٢٢ عندما كان كابتن وطسون لا يزال فى منصب الملحق البحرى فى طوكيو • أدركنا أنه من واجبنا أن نوسع نطاق نشاط المخابرات اذا أردنا أن نبدد الضباب الصناعى الذى كان يحاول اليابانيون من ورائه اخفاء أسرارهم عن أعيننا •••

٦

« الخطـة م »

كان الموضوع الحيوى فى سنة ١٩٢١ هو : كيف يتسنى لنا أن نخترق الحواجز اليابانية فى أوقات السلم ٠ ليتوفر لدينا نظام فعال يمكن تطبيقه على الفور اذ ما نشبت الحرب ؟ ٠ وكل ما كنا فى حاجة اليه ونأمل فى الحصول عليه هو تنظيم مكتب للمعلومات مماثل لتلك الادارات التى نظمتها الامم الاخرى التى اعتبرت ــ حسب تقاليدها ــ أن الامن القومي هو أول الشئون الهامة فى نظر رجال السياسـة ٠ وقد كنـا فى حاجة لمثل هذه الادارة فى اليابان ٠ وأبلغ كابتن وطسون المسئولين فى واشنجطون أنه عزم على تنظيم مكتب قبل أن يترك منصبه ٠

ولكي يدفع هذه الفكرة الى حيز التنفيذ أسر كابتن وطسون الامر الى المقربين اليه فى طوكيو ولكنه فشل فى الحصول على التأييد اللازم لهذا الاقتراح السليم ٠

فكان يسمع عادة في الدوائر المتمسكة بالآراء القديمة من يقولون له « أن ما يدور بذهنك يا أيدى أمر مستحيل » ٠ وما كان يبدو مستحيلا في نظر الآخرين لم يكن سوى تحد للكابتن ٠ ومع ذلك كان لا يزال يرى عقبة في سبيله ٠ اذ لم يتيسر له الحصول على أحد له معرفة فنية لوضع تفاصيل الخطة التي رسمها فى ذهنه واضحة جلية ٠ وبلغ تحمسه غايته وكذلك أصبحت أشعر بالقلق حول حاجتنا الى تنظيم ادارة للمعلومات ٠ ولما كنت حديث العهد فى المخابرات وقادما جديدا على اليابان شعرت بأنى على غير دراية تامة بالظروف هناك وبالتالى لايصح أن أحاول رسم الخطة لوطسون٠ وعلى ذلك نقلت فكرة الكابتن الى أحد مواطنينا ممن أقاموا مدة طويلة فى اليابان ٠ وكنت أعرف أنه على المـام تام بالشـعب اليابانى ويدرك عمق نفسيتهم وسلوكهم الفعلى وكان يهتم كثيرا بحفظ كرامة الامريكيين ٠

وقلت له « توم ٠ ينبغي أن تعمل أحســن الوسـائل للحصول على معلومات من مختلف أنحاء هذه البلاد الغامضة » ٠

وأدهشني بقوله « ليست هناك أسرار فى اليابان » فكان هذا ردا غير سليم • ولما لاحظ دهشتي أراد أن يصلح بيانه فقال « أتذكر الشـباك » Grapevine • تلك العملية فيما يتعلق بزيارة ساتو لمنزلك ؟ فكل ما عليك هو أن تدق هذه الشباك وسوف تعلم كل شيء يجرى فى اليابان » • ولم أصدق هذا الكلام حينئذ • ولكن فيما بعد أتيحت لى فرصة مناسبة لكى أتحقق من صدق هذا البيان • وبينما كنت أحرر هذه الاسطر وصل الى الجرائد تأكيد آخر لهذه المناسبة • وهو أن بعض ضباط الجيش اليابانى ـ ممن لم يعتبروا هزيمتهم الاخيرة أمرا نهائيا ـ قاموا باخفاء كمية من الذهب والبلاتين تقدر قيمتها باثنين بليون دولار فى المياه الضحلة بقرب طوكيو وذلك « لليوم المعلوم » عندما يستطيعون توجيه عنايتهم الى اعادة تكوين قوات اليابان المسلحة • ولكن حدث أخيرا ـ بالرغم من أنه من المفروض أن الكنز كان مخفيـا فى مكان أمين ـ أن قام فريق من الامريكيين بغارة على المكان وأحاطوا بالمياه من كل جانب وتم الاستيلاء على الكنز ومصادرته • وكانت المعلومات التى أرشدت السلطات الامريكية الى مكان الكنز قد أدلت بها احدى بنات الجيشا التى تمكنت من التقاطهـا بينما كانت تصغى الى محادثات بين ضيوفها • وسرعان ما نقلتها الى سلطات مخابراتنا المضادة • ولما أطلعت على هذا الحادث تذكرت ما قاله توم منذ خمسة وعشرين عاما « ليست هناك أسرار فى اليابان » •

ثم أن محادثتى مع توم كونت فى ذهنى أوجدت حلا لنصف مشكلتنا الاساسية • فأصبحت مقتنعا بأن المعلومات يمكن الحصول عليها عن طريق استراق السمع حول Grapevine ، ولكن المعلومات تكون عديمة النفع ما لم تنقل ـ بوسيلة سريعة ـ الى ادارة تقوم بجمعها وتفصيلها •

فسألت توم « ما رأيك فى كيفية نقل المعلومات الى خارج البلاد بعد تحصيلها ؟ » وابتسم لهذا السؤال وأخذ يحرك رأسه من جانب الى آخر ، اذ لم يكن لديه حل لهذا السؤال ، وكذلك مكثت فترة أشعر بخيبة الامل • فأبلغت هذه المناقشة بالتفصيل لكابتن وطسون الذى رفض أن يشاركنى فى شعورى بالفشل •

وقال « قد يكون صديقك على دراية باليابانيين ولكن من الواضح أنه لا يدرى من أمر المخـابرات الا قليلا • فلمـاذا لا تتحـدث الى من يعرف

اليابانيين كما يفهم شئون المخابرات ؟ » وأخذ يفكر لحظة ثم قال « أظن أنى أتناول هذا الموضوع مع سدنى ماشبير × » واعتزم أن يقوم بذلك ٠

وكان سدنى ٠ف٠ ماشبير ضابطا فى جيش الولايات المتحدة ويختص باللغة اليابانية كذلك ٠ وفى سنة ١٩١٦ كان يعمل مع جنرال فتستين على حدود المكسيك فى الشئون اليابانية ٠ وفى الحرب العالمية الاولى التحق بالمخابرات المضادة ٠ وكنت دائما اعتبر عمله مطابقا لعملى فى الجيش عندما كان الضباط المهتمون بالمخابرات يعدون على الاصابع ٠ وكانت أوجه نشاطه الناجحة ـ حيثما سمح له بممارستها ـ قد بلغت ذروة النجاح بحيث لم يتفوق عليه أحد ٠

وسأله الكابتن « سدنى : أتظن أنك تستطيع أن ترسم لنا خطة لارسال المعلومات خارج اليابان فى زمن الحرب ؟ » فدهش صاحبنا لهذا السؤال اذ كان مقتنعا بمثل هذه الحاجة منذ وقت طويل ولكن عدم اهتمام رؤسائه بالامر كانت تثبط همته ٠ وأخيرا ها هو ضابط كبير يدرك تماما ٠ مثله ٠ ما تحتاجه مخابراتنا ٠ ومصمم على أن يصنع شيئا من أجلها ٠

ولذلك أجاب « أجل يا سيدى ٠ أستطيع بكل تأكيد » ٠

« وكم من الوقت تحتاج لعمل مسودة لهذه الخطة ؟ » ٠

« مالا يزيد عن أسبوعين اذا اشتغلت ليلا ونهارا » ٠

« حسنا ٠ أبدأ فى الحال ٠ أكتب خطتك وسلمها الى ٠ وسوف أهتم بارسالها بحيث تصل الى من يهمهم الامر فى وشنجطن » ٠

وأجاب سيدنى « ويسعدنى أن تصل الى كل من الادارتين » ٠

وفى نهاية الاسبوعين بالضبط عاد سيدنى الى مكتب كابتن وطسون ومعه نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة وموضوعة فى ملف خاص وأطلقنا عليها « الخطة م » ٠ وأدرك كابتن وطسون أهمية هذه الفرصة المثيرة فقام

× راجع كتاب (كنت جاسوسا أمريكيا) اصدار الهيئة ٠

بفحص المكتب الخارجى ليتأكد من غلق الابواب جميعها قبل أن يبدأ فى تصفح الخطة ٠ ثم فتح الملف وأخذ يقرأ صفحاته الواحدة تلو الاخرى فى شيء من السرعة فتارة يمط شفتيه ويومىء برأسه تارة أخرى مؤكدا ما يدور بذهنه من الافكار ٠ ويتوقف من حين الى آخر ليستطلع الى كابتن ماشبير أو الى مبتسما ويصيح « رائع ! » فى اعجاب ظاهر ٠ وأشرق وجه ماشبير لهذا التقدير والاعتراف بالعمل الذى قام به ٠ حتى اذا انتهى وطسون من قراءة الصفحة الاخيرة طوى الملف وتحول الى ماشبير قائلا :

« هذا شيء جدير بمنتهى الاعجاب ٠ كيف تسنى لك أن تتمه بهذه السرعة وفى هذه الصورة الرائعة ؟ » ٠

فأجاب ماشبير « حسنا يا كابتن ٠ لقد كنت أفكر في هذه المشكلة منذ وقت طويل وانى شاكر لك اتاحة الفرصة لى لاضع الخطة فى هذه الصورة المتماسكة » ٠ وظهر من مذكرته أنه درس اليابان دراسة وافية وأنه كان له نشاط مثمر فى المخابرات من قبل ٠ فكان خبيرا فى الناحيتين ٠ ولكن ربما بسبب مؤهلاته البارزة كان مقيدا بالعمل فى حدود واجباته وبسبب ألوان الغيرة اللاذعة فى محيط عمله٠ فقد كان ضابطا بالجيش تابعا للملحق العسكرى فى طوكيو ٠ وتصرفه الآن من أجل الملحق البحرى لم يكن داعيا لتقوية مركزه أمام رئيسه٠ وكان كابتن وطسون واعيا تماما لهذه الصغائر من المنازعات الناشئة من ألوان الغيرة في الدوائر الحكومية ٠ ولكنه كان يتوقع أن مذكرة ماشبير ومالها من قيمة كبرى جديرة بأن تجعل الملحق العسكرى ينسى ما يشبه التخلى عن مبادىء الرئاسة القديمة العهد ٠

فقال لماشبير « أتدرى ما أنا صانع على الفور ؟ سأذهب لمقابلة رئيسك لاعرض عليه ما قمت به من عمل مجيد ٠ وانى أعلم أنه يرتاب فى الامر كلـه ٠ ولكن لا أظن أنه سوف يصر على شـكوكه بعـد اطلاعه على هذه الخطة » ٠

وكان الامر المدهش فى هذه الخطة البارعة التى وضعها ماشبير هـو أنها كانت على جانب كبير من السهولة والبساطة ٠ فقد بينت المواضع حيث يمكن التسلل خلال الستار اليابانى ــ وأهم من هذا ــ أوضحت النظـام لارسـال المعلومات المتحصلة الى خارج اليـابان ٠ وتضمنت تنظيم بعض الشـخصيات الاسـتراتيجية التى لم يكن من المتوقع أن تتأثر بالظهور المفاجىء لهذه الخطة ٠ كما وصفت فى تفصيلات وافية وسائل المواصـلات

التى تكون فى متناول هؤلاء العملاء • وكان ماتخيله واضحا فى كل صفحة : فمثلا تذكر ـ بعد مناقشة بيننا ـ أن هناك عادات دبلوماسية فى اليابان تمكن لمن يغادر من الدبلوماسيين التخلص من أمتعتهم ومنقولاتهم الزائدة عن الحاجة بطريق المزاد العلنى • وبهذه الطريقة تصورنا نقل معدات معينة للاتصال وتركها لـدى العملاء • وتضمن أحـد المقترحات عرض احدى سيارات الملحقين للبيع بالمزاد العلنى مع وجود عميل من المنتظر أن يفوز بها علنا بايعاز منا • وليست هذه ـ بطبيعـة الحال ـ سـيارة عادية بل مجهزة بخزان مزدوج للوقود • ويحتوى الخزان الداخلى على جهاز ارسال صغير يتصل بواسـطته العميل مع الغواصات الصـديقة التى تقترب من ساحل اليابان لاستقبال الرسائل • وكانت الفكرة تدل على منتهى الحذق والبراعة اذ كانت السيارة تستطيع السير من مكان الى آخر بقصد الارسال متحدية اكتشـاف أمرها بما فى جهازها من تصميمات حساسـة لاقصى حد •

ولكن مهما بدت هذه الخطة صالحة فى نظرنا كان قبولها وتطبيقها فى الواقع يتوقف على أن تكون موضـع قبول أيضـا لدى رؤساء ماشبير فى مكتب الملحق العسكرى • فلم يدخر كابتن وطسون وسـعا فى تعريف الاقتراح الى زميله فى الجيش بنفسه • واستدعى سيارته واستقلهـا الى حى هبكاوا ـ شو حيث مقر الملحق العسكرى الذى اتخذه مكتبا ومسكنا له • ونظر الملحق فى الملف • وقبل أن يستوعب ما فيه أو يفكر فى الخطة قال :

« لست أرى جديدا فى هذا • أن هـو الا اقتباس من النظـام الالمانى القديم » •

فاعترضه كابتن وطسـون قائلا « قد يكون الامر كذلك • ولكن هل لديك شىء جديد • وفى الواقع هل لديك أى شىء » •

« لا » • • •

« اذن انتهى الامر • انى مرسل بهذه الخطة الى ادارة البحرية •ويمكنك أن تحتفظ بهذه النسخة • وترسلها الى مقر رئاستكم فى وشنجطن أو تفعل بها ما تشاء • وأكون ممنونا جدا لو تكرمتم بتقدير هذا الرجل حق قدره لهذا العمل المجيد الذى قام به من أجلنـا » • ولم يكن هذا الطلب الاخير

موضع قبول لدى الملحق العسكرى . اذ كان « التقدير » الذى ناله ماشبير فيما بعد فى صورة مزيد من الغيرة والحقد والمهاجمة أدت الى عقبات وقفت فى طريقه عندما اشتغل ضابطا احتياطيا في المخابرات الحربية بعد استقالته من الجيش النظامى سنة ١٩٢٣ . وذلك لغرض مفصل حيوى يتعلق بعمل المخابرات فى اليابان . وكان كولونيل برنت ــ الملحق العسكرى ــ هو الذى يدرك هذه المقاصد . وما زال هذا الامر غامضا فى نظر كولونيل وارن .ج. كلير وفى نظرى أيضا .

وهكذا أصبحت فكرتنا « الخطة م » فى جو ملتهب بين وجهات النظر المتناقضة . وتسير على هدى مقترحات غير معتدلة فى حدود البيروقراطية . وكان كابتن وطسون قد أرسلها فعلا الى وشنجطن ولكنه لم يدر مطلقا ماذا جرى لها بعد استلامها من كيس البريد وارسالها الى فروع الادارة مرفقة بقائمة محدودة لتوزيعها . وبعد أن قدم ماشبير خطته بقليل سحب كابتن وطسون من منصبه ومنعته واجباته الجديدة من متابعة الخطة بعد مغادرته طوكيو . فلما فقدت الخطة هذا التشجيع الكبير . فقدت أيضا فاعليتها . اذ أصبحت من ذلك الحين احدى المذكرات التى لا عدد لها والتى تزدحم بها جميع مكاتب الحكومة . وكان بقيتنا من الشبان ومن ذوى الرتب الصغيرة بحيث لا نستطيع دفع الخطة الى الامام لتكون لها صورة فأعلية كالاقتراحات التى تقدم من كبار الموظفين . فظلت باقية فى المحفوظات حتى استخرجتها سنة ١٩٣٦ واتخذت الخطوات لوضعها موضع التنفيذ . ولكن أولئك الذين كان فى أيديهم تنفيذها عجزوا عن ادراك الحاجة الماسة لمثل هذه الخطة المتماسكة لاستخدامها فى المخابرات مما أدى بها الى مصيرها المحتوم .

وعندما أعود الآن بنظرى الى الوراء لالقى نظرة على « الخطة م » فى ضوء الاحداث التى تلت بعد ذلك . يزداد أسفى مائة مرة عما كنت أشعر به قليلا بين طوكيو ووشنجطن . اذ أن الحرب التى تنبأ بها كابتن وطسون فى سنة ١٩٢١ نشبت فعلا بعد أقل من عشرين سنة . ولكن خطة المنظمة لمجابهة هذه الحالة الطارئة كان يعلوها التراب فى « ملف الموضوع » فى احدى خزائن الغرف الخلفية . وفى النهاية يرسل مع أوراق أخرى لوضعها فى ادارة المحفوظات .

حتى اذا نشبت الحرب لم يكن لدينا فى طوكيو من يخترق الحجاب المفروض على ما يدور فى اليابان للحصول على المعلومات . ولا من يرسلها خارج اليابان لتصل الينا . وكان جهلنا بالظروف الداخلية فى اليابان

جهلا تاما • لدرجة أن رئيس العمليات البحرية فى سنة ١٩٤٢ كان مرغما على الاعتراف علنا بأنه لم يكن يعرف أن اليابان كانت بصدد بناء سفن حربية ضخمة تزيح من المياه مقدار ٤٥ ألف طن وهذا الموقف ثبط همة الرجال ونشاطهم لخلق نظام كأفضل ما يكون فى بلاد تحجبها عنا حواجز الحرب التى لا يمكن اختراقها • ثم نجحنا فى تنظيم هيئة مبدئية للمعلومات داخل اليابان • ولكنها أثبتت أنها غير جديرة بجمع المعلومات السياسية الحيوية التى كانت خطة ماشبير توفرها لنا اذا تم تنفيذها • وكما تبين لى تماما من الحقائق كلها أنه كان من الممكن تقصير أجل الحرب على الاقل ستة أشهر اذا توفر لنا النظام الذى وضعه • وكان من الممكن انقاذ أرواح عديدة من الهلاك واعادة سلام العالم فى فترة أقرب • ثم تجنب ذلك الكفاح المرير خلال الاشهر الستة التى تضمنت المعارك الدموية فى أيوجيما وأوكيناوا •

وفى سنة ١٩٢٣ عندما مرت الايام فى طوكيو ولم تصلنا كلمة بشأن اعتماد « الخطة م » من وشنجطن • هبطت عزيمتنا بعض الشىء واتخذنا سبيلنا المألوف فى حياتنا خلال أشهر الصيف فى اليابان • وتوجه ماشبير وآخرون الى أويزو Oiso للاستجمام فى تلك النواحى الهادئة وحيث الجو اللطيف الجميل على شاطىء البحر بينما بقيت فى زوتشى للانتهاء من دراستى • وكان واجبى على وشك نهاية دورته • وأمامى عدة ترتيبات نهائية لانجازها قبل عودتى الى بلادى بعد شهرين •

وحل أول سبتمبر سنة ١٩٢٣ كأحد الايام البهيجة المثالية من فصل الخريف فى اليابان • فاستيقظت من نومى قبل طلوع النهار • وفى سكون الصباح الباكر أخذت أرقب خيوط الفجر بألوانها الزاهية وهى تتلاشى فى بطء كحيوان شبه نائم يتحرك فى الغابة • وكان القمر يرسل أشعته الفضية على سطح المياه الهادئة التى كانت تتحرك فى بطء شديد • وفى هذه الفترة حيث لم يكتمل الضوء وكانت الاشياء البعيدة تحمل أصواتها النسمات الرقاق • تناولت طعام الافطار المكون من اللحمة • والبيض • ثم أسرعت لكى الحق بالقطار « الخاص برجال الاعمال » • وهو قطار يقوم فى الصباح الباكر وبه عربة اضافية لرجال الأعمال القادمين من كاماكورا وهى قرية مجاورة لزوتشى • وكنت لا أزال أتبع خط سيرى فى كل شهر الذى يشتمل على رحلة الى يوكوهاما ثم الى طوكيو لاستلام مرتبى • وكان بعض أصدقائى مغادرين الى بلادهم على ظهر الباخرة Empress of Stralia وكان على أن أودعهم • فبعد أن انجزت مهمتى فى طوكيو عدت ادراجى الى يوكوهاما حيث اشتريت بعض لوازمى وفى الساعة الحادية عشر واصلت

السير الى الميناء حيث تستعد الباخرة الكبيرة للرحيل فى تمام الساعة الثانية عشر • وكان هناك جمهور كبير من المسافرين على غير العادة وجم غفير نسبيا فى وداعهم • وكان الممر المقام على البحر يبلغ طوله ألف قدم وعرضه مناسب • وعلى دعائم من الاسمنت المسلح • وكان مركزا لنشاط مثير : مؤخرة الباخرة • وعلى جانب نهايته كانت The Steel Navigator راسية • وهى باخرة صغيرة لنقل البضائع من صنع مؤسسة الصلب الامريكية • وعلى الجانب الآخر من الممر كانت الباخرة الفرنسية الكبيرة André Lebon لاجراء اصلاحات لآلاتها •

وفى الساعة الثانية عشر الا دقيقة كان الممر قد اتخذ مظهرا بهيجا تضطرب فيه الاعلام بألوانها المتنوعة وتخفق بين نسمات تتحول الى ريح خفيفة تهب على سطح السفينة من آونة الى أخرى • وأخيرا أنزل الجسر المتحرك فارتفعت الايدى ملوحة بالمناديل اشارة الى الوداع وعلت الوجوه الابتسامات أو اتسمت بمظاهر الحزن •

وفجأة اختفت الابتسامات • ولفترة ملحوظة ثبت كل فرد فى مكانه عندما دوى صوت يفوق صوت الرعد • وزئير غير مألوف انبعث من جوف الارض يوحى باقتراب زلزال لا يبقى ولا يذر ويشير الى العقول التى شلت أفكارها بقرب الكارثة الكبرى • وطغت أمواج البحر على الممر الضخم بحيث أصبح من المستحيل الوقوف عليه • وجاهد كل شخص للوقوف على قدميه ولكنه لا يلبث أن يسقط مكانه • وتاهت صرخات الذعر وعويل النساء بين ضجيج سقوط التركيبات وزئير باطن الارض • وبدا الامر كما لو كان الانسان متعلقا بعجلة آلة بخارية تسير فوق أرض شديدة الوعورة •

وحاولت دون وعى أن أغادر الممر ولكن حدثت رجة أخرى أشد ضراوة من الاولى • ومرة أخرى بدأت أجزاء الممر تتأرجح وتزمجر تحت الضغط الشديد الذى كان يمزق أوصاله • وشعرت كأنى أسقط فى الفضاء عندما انقلب الجزء الخشبى من الممر فى الماء • فتعلقت بجزء من سلم مناسب بالقرب منى وجاهدت حتى وصلت الى نهايته حيث قفزت الى قسم من الممر كان لا يزال فى مكانه • حتى اذا وجهت نظرى نحو يوكوهاما وجدت المنظر كله قد اختفى تحت ستار قائم من التراب والرماد خيم على المدينة وتجرفه الريح نحونا • وأدركت أن الدوى المخيف الذى تلا الهزة الاولى نشأ عن تدمير مفاجىء لاحدى المدن الكبيرة • وجاءت بعد الرماد سحب متلبدة من

الدخان • وأرسلت الانفجارات أعمدة من اللهيب والدخان الاسود صاعدة نحو السماء •وساعدت الرياح المتزايدة على انتشار النيران التى مر شرارها فوق رءوسنا مما ينذر بقرب السنة اللهب الى المياه أمامنا •

واشتدت قوة الهواء اللافح وتزايدت بحيث وصلت الى درجة لا تسمح لاى فرد أن يبدى حركة ما • وكنت اذ ذاك فى قارب مسطح بين الباخرتين André Lebon - Embress أساعد فى عمليات الانقاذ التى اشترك فيها الاجانب على الممر منذ الهزة الاولى المدمرة •

ومنذ اللحظة الاولى من هذا الرعب والفزع كان الاجانب من بين جمهرة الموجودين على الممر هم الذين أفاقوا من الذعر الذى استولى على القوم وشرعوا فى عمليات الانقاذ • وأما اليابانيون فكانوا فى حالة ذهول لا يبدون حراكا • وبدوا عاجزين اطلاقا عن السيطرة على الموقف أو الوقوف فى وجه الكارثة بانقاذ أنفسهم أو المبادرة بمساعدة غيرهم • فكانوا كأنهم فى حالة عجز تام •

وكانت الرياح تشتد من دقيقة الى أخرى تجرف أمامها المياه حتى بدأت تطغى على مقدمة القارب وكانت جبهة المياه أمامنا أشبه بجدار صلب من اللهيب بحيث بدا النزول الى البر أمرا مستحيلا • وأرغمنا على دفع القارب نحو سلم احدى البواخر الراسية على الشاطىء وننتظر هناك •

وانتشرت النيران على الشاطىء فى سرعة مذهلة واشتد سعيرها لدرجة لا يمكن وصفها • حتى اذا اقتربت من المخازن على طول حاجز المياه انقض عليها اللهيب كما ينقض النمر على فريسته • فانطلق من المبانى دوى هائل أخذ يحلق فى الجو مما يدل على انهيارها • كما بلغت سرعة الرياح خمسة وستين ميلا • فاشتعلت النار فى قوارب تفريغ البضائع وجرفتها الرياح نحو الميناء تسبب الدمار اينما حلت •

ثم أن حرارة النيران على الشاطىء جعلت موقفنا بجانب الباخرة الضخمة لا يمكن احتماله • ولكننا خشينا أن نلاقى خطرا أكبر اذا تحركنا من مكاننا • وازدادت حدة التوتر من لحظة الى أخرى وكان علينا أن نقف مكتوفى الايدى •

حتى اذا تحول الشرر الى دخان أسود فوق المياه الملتهبة أقدمنا على المسير بجانب الشاطىء • وكانت الساعة الخامسة أى بعد خمس ساعات من حدوث الزلزال • وقضينا بقية النهار وطول الليل فى عمليات الانقاذ

ومساعدة النساء والاطفال للوصول الى بر الامان · وانقاذ الرجال من تحت الانقاض واعادة النشاط لمن أصيبوا بالاغماء ·وأسعاف الجرحى والمصابين· وتهدئة خواطر أولئك الذين ساورتهم أشـد المخاوف على أقاربهم داخل المدينة ـ تلك المدينة الكبيرة التى كانت حافلة بالرجال والاعمال منذ بضع ساعات وأصبحت الآن أكواما هائلة من الانقاض المتوهجة ·

وانتشر فى الليل وهج النيران المستعرة فى المدينة مما جعل مظهرها كالكابوس الرهيب · وقد أصبح البحر فى ظلمات بعضها فوق بعض · وبين النيران والظلام تحطمت أعصاب من كان على ظهر السفن الراسية فى الميناء · ثم ظهرت معالم البحر تحت أشعة الشمس المبكرة كما اتضحت الامواج الثائرة تحمل طبقات سميكة من الزيوت التى تدفقت من الشاطىء والتى غطت سطح المياه على مدى النظر ·

ولما لم تكن هناك مهمة تستحق الذكر على الشاطىء عدت أدراجى الى الباخرة Empress فى الساعة الرابعة صباحا يرافقنى ميجر وليام ·س· كرين من الجيش الامريكى · وكان يبحث عن زوجته فى يوكوهاما بينما كانت ـ كما علمت ـ آمنة على ظهر الباخرة ولكنها أصيبت بصدمة هائلة مما جرى · وهدأ بال كل منهما عند اللقاء · بعد ذلك اتجـه تفكيرى الى طبقات الزيت المنتشرة فوق سطح الماء التى قد تسبب اخطارا لنا فى البحر كما حدث على الشاطىء واصبحت أدرك الموقف الخطير الذى لا حيلة لنا منه وانتظرت اللحظة حيث يشتعل الزيت من النار التى ما زالت متوهجة على الشاطىء · ولم يطل انتظارى ·

فحوالى الساعة السابعة صباحا اشتعلت نيران جديدة على سطح الماء بالقرب من منتصف الشاطىء وتبعد قليلا عن مكتب شركة استاندارد أويل· واعتقدنا فى أول الامر أنها اشـتعلت فى نوع من الطلاء · ولكن عنـدما استمرت النيران فى توهجها اتضح لنا أن السبب هو انفجار بعض خزانات الوقود تحت الارض · وكانت الرياح ساكنة مما أبعد الخطر المباشر عن السفينة · فلما ارتفع اللهيب وصعد الدخان الاسـود السميك توترت أعصاب القوم على ظهر السفينة · وفى هذا الجو المتوتر هرع النساء الى سور الباخرة حيث وقفن بجانبى يحدقن النظر الى الشاطىء ويسألننى فى أصوات وتجفه « الى متى تستمر هذه النيران ؟ » ·

وكنت فى كل مرة أحاول تهدئة خاطرهن بقولى « يبدو أنها فى طريقها لان تنطفىء وأصبح الدخان أقل كثافة مما كان » · ولم يكن صوتى يحمل

معنى الاقناع اللازم فكانت النساء ينصرفن غير راضيات تماما • وفى مدى نصف ساعة هبت نسمات دفعت النار فى بطء على سطح الماء الى أحد أركان الممر الموصل الى سفينتنا • وأصبح الخطر على الباخرة أمبريس محققا وقريب الوقوع • فاستعد الملاحون بقوارب النجاة وانزلوها تحت سور السفينة كما أعدوا خراطيم الحريق • وعقد القبطان روبرتسون اجتماعا طارئا مع المساعد الاول للباخرة ستيل نافيجيتور فى مؤخرة باخرتنا • وكان قائدها قد قتل فى المدينة •

فتقرر ربط مؤخرة سفينتنا بالحبال مع مقدمة السفينه الاخرى ثم فك حبال المرساة • وحينئذ تستطيع السير الى الوراء وتجرنا معها •

حتى اذا بدأنا فى العمل شاهدت منظرا رهيبا لم تره عيناى من قبل • اذ اندلعت النيران فى ركن الممر ملتهمة الحاجز واشتد أوارها حتى وصلت حرارة اللهيب الى السفينة • وأخذت ألسنة اللهيب تتصاعد منتشرة فى حلقات حتى اتخذت شكل أعصار أو الماء المنبثق من النافورة • وكان القوم يراقبون ذلك من على ظهر السفينة وهم فى شبه ذهول يصلون من أجل خفة حدتها وقد أصبحت كتلا متراصة من آلاف المواقد المشتعلة التى تزأر وهى تتحرك نحونا مدفوعة بقوة دورانها الرهيب • وكان الركاب على السطح يندفعون الى الامام والى الخلف وهم فى حالة ذعر لا يستطيعون ضبط مشاعرهم • وهنا أدرك كل فرد أن هذه النيران وقد بلغ قطر دائرتها مائة قدم وارتفاعها فى الجو خمسمائة قدم • لو مرت فوق سفينتنا لقضت عليها •

وفى مدى لحظة بدت النار كأنها تتردد فى مسيرها • حتى اذا اتسعت قاعدتها المخروطية القائمة انفجرت فجأة وهبط نهيبها وأصبحت كتلة ضخمة ملتهبة • وكان هبوطها من القوة بحيث قذفت بكميات كبيرة من الماء تحولت الى بخار بينما أطفأت اللهيب • وفى الوقت نفسه كانت النيران قد امتدت الى السفينة ستيل نافيجيتور واتت على السلاسل والحبال التى تربطها بالرصيف • وبدأت مؤخرة السفينة ترجع الى الوراء • ولم تتحرك لفترة قصيرة بينما كانت النار لا تزال متجهة نحونا • ثم أخذنا نرتعد بينما كانت السفينة تتحرك فى بطء شديد • وكان فى نظرى ونظر أولئك الذين يحتملون الامور البعيدة الوقوع أن السفينة قد اعتدلت فى سيرها • وتنفس الصعداء كل فرد منا عندما أدركنا أن السفينة تسير بانتظام : لقد نجونا •

وأخذنا نتلو صلاة الشكر ثم تطلعنا الى الوراء لنلقى نظرة على الممر الذى كان سجنا لنا منذ لحظات وكانت النيران قد أتت عليه وأطاحت بكل شيء هناك ٠

كانت هذه هى ذروة الاحداث فى تلك الفترة العصيبة فى هذين اليومين ٠ وهى أحداث كبرى اذا ما قورنت بالمغامرات المدمرة وما بذل فيها من جهود للانقاذ ٠ ومما يدل على أنها حادثة جليلة الشأن تقدير السلطات الامريكية التى منحت وسام الشرف من الكونجرس الى تومى رايان (وهو كابتن الآن) مكافأة على جهوده فى الانقاذ ٠

وبطريق الصدفة ٠ تمكنت من رؤية منزلى فى زوتشى بعد مضى ثلاثة أيام على الحادث ٠ وذلك عندما سرت مع فرقة للانقاذ بطريق البر والبحر الى كاماكورا حيث وجدنا عائلات كثيرة من الاجانب يقدمون لنا التهنئة كأول القادمين من يوكوهاما أو طوكيو ونحمل أنباء عن أزواجهم وأصدقائهم ٠ وكان كل من القريتين الصغيرتين ضحية لكارثة مشابهة ٠ اذ أن الفيضان الذى لم يصل الى يوكوهاما أصاب كلا من زوتشى وكاماكورا فى شدة طاغية ٠ ولو أن منزلى كان فى طريق المياه الا أنه استطاع أن يصمد أمامها فلم يرتفع الماء على أرضه أكثر من أربعة أقدام ٠

وعندما اقتربت من منزلى وأنا أجوس خلال طرقات غطتها الانقاض وحاجز المياه الذى تحطم فى عدة أجزاء من مبانيه ٠ وجدت خدمى يجففون أمتعتى فى أشعة الشمس المشرقة فى صباح يوم الاثنين ٠ وأخذت أراقب الطاهى العجوز وابنته ـ وهما بدلا عن مس سبرنج ومس سومر ـ يؤديان عملهما دون تأثير أو مبالاة بالدمار الذى كان يحيط بهما ٠ والذى كان لابد وأن يثير الفزع فى شعورهما ٠ فتذكرت على الفور ذلك السلوك الغريب لجموع اليابانيين خلال الكارثة ٠ وكان طابعهم العجيب وهم يواجهون الاخطار أوضح وأقوى دليل على حقيقة أخلاقهم مما مر بى من التجارب خلال الثلاث سنوات التى قضيتها فى اليابان ٠ ولاول مرة دخلت الى أعماق الشعب اليابانى ودرست أخلاقه ٠ واخترقت ذلك الجدار السميك الذى تمكن القليلون جدا من الاجانب من التسلل اليه والاطاحة به بصرف النظر عن طول المدة التى قضوها فى اليابان ٠ وقد انهار الحاجز الآن أمام عينى ٠ وكان فى حاجة الى زلزال يطيح ببنائه ٠٠٠

٧

الطابع اليابانى

أثناء تجوالى فى اليابان كلما أردت أن أستطلع مميزات القوم وأخلاقهم وعاداتهم . وكلما حاولت التسلل الى جذور أفكارهم التى هى الدافع الى تصرفاتهم . لاحظت أن جميع الايضاحات التي كانت تقدم لى يعلوها جو كثيف من الغموض والابهام . ثم تحولت الى أصدقائى من الاجانب ومن اليابانيين وبحثت فى الكتب القديم منها والحديث . بقصد العثور على اجابة معقولة .ولكن اينما توجهت قوبلت بنفس الايضاحات بصورة عامة. فكان من الواضح فى نظرى - وفي نظر الكثيرين - أن الطابع اليابانى أو الشخصية اليابانية أو أى اسم آخر نستطيع أن نطلقه على هذه الظاهرة الغريبة الغامضة - دائما يتحدى - كالكهرباء - أى تعريف علمى مناسب فى هذا الصدد . حتى أن بعض الهيئات المعترف بها على نطاق واسع كاحدى السلطات البارزة فى اليابان من ناحية كونها أفضل مرشد لشئون اليابان دون شك لا تزال تتعثر لايجاد ايضاح واف للطابع اليابانى دون أن توفق للوصول الى هذا الايضاح .

ويبدو أن اليابانيين أنفسهم مغرمون بطابعهم القومى ولكنهم يعجزون أيضا عن تفسير الشخصية اليابانية فى اطار بسيط منطقى . وقد قال ماسانورى أو شيما مرة « من الصعب علينا نحن اليابانيين اكتشاف مميزاتنا العقلية . وكما يقول المثل القديم ان الظلام فى أسفل المنارة أشد حلكة منه فى أى مكان بعيد آخر » .

وانشغال اليابانيين بشخصيتهم دفعت د.س. هولتوم - الاخصائى فى شئون اليابان - لان يكتب :« من المحتمل أن ليس هناك أمة على وجه الارض أكثر وعيا لنفسها ولمميزاتها النفسية والتكوينية ولمشاكلها وأعبائها العقلية من اليابان » . ويزخر كل ما كتبه اليابانيون بالموضوعات المطولة حول تحليهم بأسمى الصفات العنصرية الفريدة فى نوعها وعن مميزاتهم الخلقية. وأضاف هولتوم يقول « ولكى نحصى هذه الصفات علينا أن نعدها مرات

ومرات ونفصل أنواعها بعد تحليلها ثم نعلن أنها أساس المكاسب التى لا نظير لهـا وتقرب من العقـائد القوميـة » • وأطلق هولتوم على هـذا Japanese Fethnocentrism روح التسامى لدى اليابانيين واعتبار ثقافتهم أفضل الثقافا •

واذا سئل رجل يابانى متوسط الذكاء كيف اكتسب اليابانيون « شخصيتهم الفريدة » يقول عادة أنها موروثة عن أسلافنا الآلهة الذين خلقت معهم شخصياتهم • وشجعنى هذا المعنى على أن أتفق مع سرفانتس على أن اليابانيين من النشأة الاولى وغالبـا أشد سوءا • ولكن اليابانيين يشعرون بالضجر والملل من حيث هذه الاتجاهات اذ بالنسبة اليهم الشخصية الموروثة عن الآلهة هى تعاليم مقدسة فى وقاية من كل ضرر لا يستطيع أى دارس مثقف للاجناس البشرية أن يزعزعها • حتى فى هذه الايام وهم يواجهون الهزيمة وقد أخذ الشعب يتنور شيئا فشيئا لا تزال هذه الآراء الباليـة ملازمة لعقولهم وبخاصـة فى المنـاطق الريفية حيث يعيش غالبية اليابانيين • وليس من شك أن تقدم هذه المعتقدات والخرافات القديمة ـ نظرية الاصل الآلهى وايضاح الطابع اليابانى ـ سـوف يكون أداة فعالة فى أيدى اليابانيين ممن يكونون المنظمات السرية •

وفى مستهل سنة ١٩٢٠ بدأت فى دراستى الخاصة للطابع اليابانى • أولا بالاطلاع على الموضوع على قدر المستطاع ومقارنة بحوث الذين كنت أعدهم مراجع لا يتطرق اليها الشـك • ثم التغلغل بين القوم كمن يجمع الفراشات فى شبكة خضراء صغيرة للحصـول على نمـاذج تصلح لتكملة التحصيلات التى أقوم بها • وخلال هذه الرحلات القصيرة عثرت على من يرشدنى بين كثير من المقيمين القدماء • وبعض هؤلاء كان ـ فى الواقع ـ من أوائل الامريكيين الذين قرعوا باب اليـابان المغلق • ولكن المراقبين اليابانيين أمدونى بمعلومات أجل فائدة • وكان هؤلاء يتسمون بالانحياز مغرورين بتظـاهر الغرب بالاهتمـام بالطابع اليـابانى وقرروا القيام بدراساتهم القومية كوسائل دفاعية لمقاومة بحوث الاوروبيين والامريكيين•

فوجدت أن أول الملاحظات اليابانيـة والغربية فى المجـالات العلمية وضعت فى وقت واحد تقريبا بين سنة ١٨٩٠ ـ ٩١ بمعرفة أحد رؤساء المدارس اليابانية يدعى نوز NOSE وكاتب أوروبى اسـمه ولتر دننج الذى اشتهر فيما بعد بكتـابة ترجمة Toyotomi Hideyoshi وبطبيعة

الحال كان البيان الذى وضعه نوز عن اخلاق القوم محبوبا لدى اليابانيين. بينما كان تقييم دننج موضع اعتراض شديد وهو التقييم الذى يعد الآن تقديرا سليما وافيا • فقد وجد نوز ثمانية عناصر وطنية محضة تسود **الطابع اليابانى وهى : المقت الشديد للخزى والعار ـ التقدير الكبير للشرف السليم ـ الولاء للرؤساء ـ الشعور بالواجب نحو الآباء ـ الاستقامة ـ النظافة ـ العفة ـ والميل الى الجدال والمناقشة •**

ومن ناحية أخرى وضع دننج أربعة معالم بارزة كأساس للطابع اليابانى وهى : **نضوج العقل قبل الاوان مما أدى الى الاستبداد بالرأى والشعور بالزهو والغرور ـ التصرفات غير العملية ـ الطيش والرعونة ـ التقلب والتردد** • وهناك باحث غربى آخر اعتبر ملاحظاته مقنعة ويمكن الاعتماد عليها وهو كابتن فرانك برنكلى ـ ضابط متقاعد من البحرية البريطانية أضاف الى هذه المعالم : **الاقتصاد والاعتدال ـ الطاعة ـ حب الخير ـ الميل الى التفاصيل ـ الهدوء والثبات ـ ثم قوة الاحتمال •**

وخلال السنوات الثلاث الاولى فى اليابان أقتنعت بأن كلا من نوز ودننج كانا صادقين فى تقديراتهما كما كانت ملاحظات برنكلى الاضافية لها ما يبررها • ولم أجد حتى سنة ١٩٤٣ فى أى كتاب تصفحته تعبيرات وافية مرضية عن الطابع اليابانى • حيث نجح دكتور هولتوم ـ فى غمار الحرب ـ فى رسم صورة صادقة للطابع اليابانى دون انحياز • وكانت معارضة الكثيرين من كتاب العصر الحديث تسودها مقدرتهم على التنبؤ بالهدف الذى كانت تقصده اليابان كأمة ـ أكثر من اعتبار اليابانيين كأفراد ـ كانت تسعى اليه حثيثا دون عواده • كما أن هذه الكتب نجحت فى تحليل الطابع اليابانى جزئيا • وكرد فعل واضح لظاهرة اعتقاد اليابانيين فى أفضلية وسمو ثقافاتهم المبغوضة • كان التأكيد عادة على معالم الطابع السلبية فقط • وغالبا ـ كما فى حالة دكتور O'Conroy أوكونروى وآخرين ـ مع غض النظر عن الناحية الايجابية اطلاقا •

وبطبيعة الحال تجنب دكتور هولتوم الانحياز العاطفى الذى لابد منه وقت الحرب وقدم هذه الصورة للطابع اليابانى وكتب يقول : أن قائمة عامة لتلك الصفات الاصلية ـ النفسية منها والقومية ـ التى تؤكدها المناقشات فى الوقت الحاضر يجب أن تشمل الولاء والوطنية الفريدة فى نوعها • والموهبة الخاصة لاستيعاب أفضل الثقافات الاجنبية مع الاحتفاظ دائما

بالقومية اليابانيـــة • والمقـــدرة غير العـــادية على التنظيم • والكفاءة التى لا منافس لها من حيث التوسع ونيل المكاسب • واحترام الآباء والاجداد • والمحافظة على اسم الاسرة • والطبيعة العملية الملائمة للوقت الحاضر ــ وحب الجمال الطبيعى • والمهارة الفنية (وخاصة ، ما يتعلق بالايدى العاملة) • وحسن النية والوفاء والاخلاص • ثم التفاؤل ومراعاة النقاوة والنظافة • وأخيرا قوة الاحتمـــال فى لطف ودعة وأولئك الذين قرأوا كتاب دكتور هولتوم حول « اليابان الحديثة وقومية الشـــنتو » حيث أوضح الدوافع الدينية للعدوان اليابانى • لابد أن يعجبوا بمعارضته التى أعرب عنها فى وجه الاستفزازات اليابانية فى الحقل السياسى التى وصفها وصفا وافيـــا مقنعا •

ولو أن اليابانيين يفضلون أن يشيروا الى طابعهم بوصفه فريدا لا نظير له • الا أن قليلا ممن لا يعتقدون الا فى الظواهر المادية أرادوا الوقوف فى وجه التيار برسم صورة تعارض الشخصية الجماعيـــة للامة • واذا كان كارليل صادقا فى قوله أن أكبر الخطأ الا يدرى الانسان عن الآخرين شيئا فان هؤلاء الكتاب الوطنيين قد نجحوا ــ وخاصة نيتوب ــ فى ابراز بعض النقائص فى الطابع اليـــابانى مما يصحح أوضاع الشـــعب اليـــابانى فى المستقبل • وكان حقا ما قاله أحد اليابانيين ذات مرة « قد يأتى على وقت قريبا حيث اختار الجحيم أفضل من الحياة فى المجتمع اليابانى » • كمـــا أعلن نيتوب سنة ١٩٣٠ يقول « أغرانى عقلى البـــاحث عن المتـــاعب ــ من حوالى عشرين ســـنة ــ على تأليف كتـــاب بعنوان A Humorous State أقصد به دولة حيث الحكومة والشـــعب يتكلمون كثيرا ويعملون القليل • وحيث فن الحكم عبارة عن رواية هزلية واكاذيب • وما أقل ما كنت أحلم بأنه يجب على أن أنتظر عشرين سنة ــ حتى سنة ١٩٣٠ ــ حيث أستطيع أن أنتخب ايضاحات أوفى وأقرب » •

وحدث خلال بحثى فى اليابان انى اكتشفت أن نيتوب وضع هـــذا الكتاب فعلا • وقد ألفه فى مســـتهل القرن الحـــالى حيث لم تكن الكتب اليابانية عن الطابع الاهلى مقصورة على الدعاية للفضائل فحسب بل كانت تتناول النقائص كذلك • ومن هذه الكتب ما نشره دكتور نيتوب ســـنة ١٩٠٣ بعنوان « طريق الحياة » • واحتل هذا الكتاب مكانة خاصـــة به • اذ كان الكتاب الوحيد الذى وضعه مؤلف يابانى وتناول فيه نقائص الطابع اليابانى بنوع خاص •

واعطى نيتوب للغرور الاهلى المركز الاول فى قائمة تلك العيوب ٠ والمركز الثانى للاتيكيت الاجبارى والادب الرسمى ٠ والمركز الثالث للعداء الطبيعى للاجانب ٠ وأخيرا عدم المقدرة على انتهاج المنافسة الودية المعتدلة ٠ وكل هذه المعالم كانت واضحة أمامى كلما لاحظت الطابع اليابانى بصورة فعلية يظهر فى حياتهم اليومية حقيقة ناصعة ٠ ثم على نطاق واسع وقت حدوث الزلزال سنة ١٩٢٣ الذى أمكننى أن أستدل منه على حقيقة الطابع اليابانى التى كانت موضوع جدال كبير ٠ وعلى أساس الهدوء اليابانى مضرب الامثال ٠ وقد كتبت مجلدات بأكملها حول هذا الموضوع وتقبلت معظم أبحاثها وما جاء بها ٠ واستنتجت أن الشعب اليابانى من الاجناس التى تتميز بالثبات ورباطة الجأش بطبيعتها ٠ ثم أن تشامبرلين ــ على سبيل المثال ــ اعتبر هدوءهم هذا متأصلا فى أنفسهم ونسبه الى مميزاتهم الجسمانية أكثر من العقلية ٠ ولكن دننج ــ على نهج الامثلة التاريخية ــ لفت الانظار الى أن هذا الجمود وهدوء الذهن ليس من مواهب اليابانيين الاصلية وانما هى طابع تطور على مدى قرون من التدريب القاسى والتعاليم التعصبية ٠ وكتب يقول : « أنها تنتحل كثيرا من طبيعة الاتيكيت بما يزيد عن النقص الفعلى للشعور بالعاطفة » ٠ ولما كانت العادة تصبح قانونا على مر الزمن فان التصرف لا يلبث أن يكون من المميزات ٠

وكذلك كان برنكلى ــ ولو أنه يميل الى الاصرار على أهمية ظاهرة الهدوء لدى اليابانيين ــ يتفق على أن هذا الجمود نتيجة للتدريب عليه مع محاولة اخفاء الشعور به ٠ وكتب يقول « لا يمكن اخفاء الشعور عادة دون أن يظهر بطريقة أو بأخرى » ٠

ومن الامور المعتاد غالبا فى اليابان أن تلقى صديقا قد فجع فى حبيب له فتجده مبتسما ٠ ويتساءل نيتوب بهذه المناسبة « أليست ابتسامة فى اليابانيين هى التى فى حاجة الى دراسة جوهرية ؟ » فقد اختلف الناس فى تفسير معنى هذه الابتسامة الغامضة ٠ وان الانسان ليعجب من تلك المشاعر ٠ وأول اجابة قاطعة للسؤال عما اذا كانت مشاعر اليابانيين قابلة للتأثر ٠ وجدتها فى كتاب وضعه طبيب ألمانى ــ دكتور أروين بيلز الذى دعى الى اليابان فى أواخر القرن التاسع عشر لجعل النظام الطبى هنساك مطابقا للعصر الحديث ٠ ونال شهرة واسعة وأصبح من البارزين بحيث تزوج من احدى بنات الطبقة الارستقراطية ٠ وتعتبر مذكراته من أفضل

الارشادات عن اليابان أيام ان كانت تحت حكم الامبراطور ميجى • ولم تكن الاجابة على السؤال ضمن مذكراته الضخمة • بل كانت فى كتيب ناقش فيه هدوء وثبات اليابانيين مضرب الامثال • وخاصة فى مواجهة الموت • وسمى ذلك فى النهاية : احتقار الموت •

انتهج دكتور بيلز فى تحليله • الناحية العلمية جملة وتفصيلا • اذ نسب هذا الجمود الواضح فى مواجهة الموت • أولا « الى التعود والتدريب والتنظيم » • فى شىء من القسوة ثم الى مزيج من الخمول الطبيعى وفقدان الشعور • ثم أن الصدمة التى تنشأ عن الزلازل وغيرها من الكوارث الطبيعة لا تتبخر فى فراغ عاطفي وانما لها رد فعل فى نفوس اليابانيين فيما بعد • والفشل فى الاستجابة لهذه الاثارة الساحقة لا يرجع الى نقص الشعور بها بل الى اعاقة هذا الشعور • ولقد مر دكتور بيلز نفسه بتجربة مماثلة من عرقلة الاحساس خلال زلزال عنيف فى أواخر القرن • اذ أن الصدمة المفاجئة ـ كما حدث لليابانيين خلال زلزال سنة ١٩٢٣ ـ سببت له نوعا من الاغماء استمر حتى ايقظه الخدم •

وتبين لى خلال الزلزال ما يؤكد نظرية دكتور بيلز الى حد بعيد ـ وأدركت أن دكتور بيلز كان على حق : اذ كان الضعف الاكبر فى اليابانيين هو فقدان الشعور الطبيعى فى مواجهة الموت أو الكارثة ـ وكانت الوزارة قد سقطت منذ يومين وتعطلت الادارة الحكومية فى وقت الحاجة الماسة اليها • ولم يدر أحد ماذا يصنع دون أوامر السلطات العليا • ولم تكن هذه حادثة وانما كانت نوعا من نشاط اليابانيين أو خمولهم • وعندما أخذت أرقب هذا التواني والذهول الذى استولى على مشاعر كل فرد فى اليابان • توقعت أن هذا النوع من سلوك اليابانيين سوف يكون فى مواجهة أزمة حرب عظمى وعندما يحدث ما لم يكن فى الحسبان • وهذه التجربة من الركود التام لمدة عشرة أيام بعد الزلزال • وساعدتنى فى تقييم التكوين النفسى لليابانيين فيما بعد • وكانت ذكرى سنة ١٩٢٣ هى التى أوضحت لى معالم الطريق الذى أتخذته سنة ١٩٤٥ •

ولو أن ملاحظاتى أكدت معظم التحليلات التى شرحها كبار الباحثين من رجال الغرب من حيث حكمهم على الطابع اليابانى • الا انى كنت أشعر أن ملاحظاتى كانت أبعد مدى من تفسيراتهم وذلك لانى ـ بصفة خاصة ـ انتهزت كل فرصة لملاحظة أهل القرى وسكان المدن كل على حدة ثم

تصرفاتهم « بصورة فعلية » • فقد كانت فكرتى أن التمييز بين أهل المدن وسكان القرى أمرا ضروريا اطلاقا من حيث الصفات وتكتل السكان • ومما يؤسف له أن مثل هذا التمييز المعقد قد أهملته معظم التحليلات حتى سنة ١٩٣٧ عندما رسم دكتور جون •ف• امبرى Embree صورة واضحة لحياة الريف فى اليابان مما يبعث على الاعجاب • ونجح فى ابراز معالم الطابع اليابانى التى تلازم حشود أهل القرى اليابانيين والتى لم يعد لها أثر بين سكان المدن •

ولقد اكتسب سكان المدن فى اليابان كثيرا من مميزاتنا عن طريق التأثيرات السطحية للصور المتحركة التى يغرم بها اليابانيون الى حد كبير والتى تثير فيهم محاولات كثيرة لتقليدنا • ولكن أهل القرى احتفظوا بالكثير مما يسمى المعالم الاصلية للطابع اليابانى • ويبحث كل من الفريقين وجدت أن اليابانيين ــ كسائر الجنس البشرى والاوساط الاجتماعية ــ منهم الصالحون ومنهم الفاسقون • وان كل فرد منهم له حسناته وسيئاته سواء اعتبرنا هذه المميزات نسبيا أو بصورة مطلقة وسواء استخدمنا مستوياتهم الادبية أو مستوياتنا كأداة قياسية • ومن بين « الاثار الطيبة » نجد النظافة العامة ــ ورقة طبيعة معينة ــ وذوق فنى رائع لكل يابانى مهما كان مستواه منخفضا من الوجهة الاجتماعية أو التعليمية • ولكن لهم مميزات سلبية أيضا من بينها الخيلاء والغرور وفشلهم الذريع فى تقدير الآراء المجردة والمعنوية وهى مميزات تبدو فى وضوح وجلاء ثم أن عدم تناولهم الامور بطريقة فلسفية يزيد من اعتماد اليابانيين على تجاربهم وينقص من مقدرتهم على مواجهة تجارب جديدة ومواقف غير متوقعة • كما تبث فيهم حياة سلبية ونوعا من التهاون يتبين فى عدم مبالاتهم بالكوارث الطبيعية والاحداث الشاذة الساحقة • ويتجلى فى حلولهم المحبوبة للمشاكل العويصة عندما تصادفهم فيقولون Shikata ga Nai ــ « ليس فى وسعنا أن نصنع شيئا » •

وقد يكون أهم اكتشاف لى هو أنه يجب تقدير الطابع اليابانى من منشئه الادبى وبيئته الاخلاقية وأنه لا يمكن فصله عن التعاليم الموضوعة وتنظيمات الاتيكيت المشددة التى خضعت لها الامة اليابانية على مر القرون • وبسبب اختلاف مستوياتهم الادبية عن مبادئنا الادبية لابد أن

نقدر تصرفاتهم طبقا لمستوياتهم وليس جريا على مبادئنا • واذا نظرنا الى الطابع اليابانى فى ضوء مبادىء المسيحية لوجدنا أنهم لا يدركون معنى الذنب وذلك لان هذا الادراك يفسر بمعنى مختلف فى اليابان •

والمرأة اليابانية من أرقى نساء العالم من الوجهة الاخلاقية وقد يكون ذلك راجعا للقانون اليابانى الذى ينص على معاقبة المرأة الخائنة بالسجن لمدة سنتين بناء على شكوى من زوجها • بينما الزوج مطلق الحرية فى هذا الصدد حتى فى جلب مخطية فى منزل الزوجية • ولكن هذه الشروط لا تمانع فى الاستحمام الجماعى الذى نعتبره أمرا غير لائق • وهى الطريقة الوحيدة للاستحمام حيث الينابيع الحديثة الساخنة • واقتضى الامر أن أتناول هذا الموضوع فى أبحاثى مما أدى الى نتائج مسلية سوف أذكر أحداها • وأقول أنها مما يثبت المثل السائر « نستطيع أن نعتاد على أى شىء » •

فلما سمعت بشهرة هذه الينابيع الساخنة التي هيأت لدراسة الحياة اليابانية عن كثب من الوجهة الانسانية المعروفة بالتكوين البشرى • وقررت أن أقضى أجازة رأس السنة فى ايزو سان حيث ينبوع ساخن مشهور يرتاده عليه القوم فى طوكيو ومعروف باسم Sen-nin-buro (حمام الالف شخص) فى فندق يابانى ممتاز • وعلى ذلك اتخذت سبيلى الى ايزو سان يرافقنى تويودا ـ سان وهو أحد الطلبة اليابانيين فى جامعة واسيدا •

حتى اذا وصلنا الى فندق خلعنا ملابس الطريق وارتدينا الكيمونو القطنية المنصرفة الينا من الفندق كلباس للحمام ورداء للنوم أو ملابس للطريق • ثم تناولنا قدح الشاى المعتاد • وكانت الخطوة التالية فى البرنامج الموضوع هى الرحلة الى الحمام وهو جزء من الفندق بقرب نهاية ردهة طويلة تؤدى الى فناء يسمى طقس شهر يناير وهو شديد البرودة • فلما وصلنا الى الباب الاول لمبنى الحمام دفعته بنشاط وقفزت فى داخله • وكانت دهشتى ـ عندما اصطدم بى تويودا بسبب توقفى فجأة ـ لما رأيته أمامى من مجموعة معظمها من النساء يغتسلن وهن فى أوضاع مختلفة مذهلة • فأسرعت بالعودة الى الخارج حيث قلت لصديقى « هل من حقنا أن ندخل من هذا المكان ؟ » وخشى أن يرتكب خطأ وأجاب فى سرعة « لا •

نحن ندخل من الباب المجاور » • فوجدت هذا الباب صفا من المشاجب معلقا عليها بعض ملابس الكيمونو • وبنساء على نصيحة تويودا خلعنا ملابسنا فشعرت ببرودة الردهة وأسرعت نحو الباب واندفعت الى داخله ممسكا بالمنشفة في احدى يدى وبالصابون فى اليد الاخرى •

وكم ذهلت عندما وجدت أننا فى نفس الغرفة التى هرولت فيها راجعا منذ بضع دقائق ولكننا كنا على مسافة قصيرة من نفس المكان • فوصلت الى مسامعنا ضحكات النسوة من الداخل وهن يعبثن ويداعبن بعضهن البعض ساخرات من احراج الاجنبى الذى أسرع بالعودة الى الوراء • وتركزت العيون على منظرى حين دخلت من الباب الآخر •

فلم يكن أمامى بديلا سوى أن أخفى شعورى بالاحراج بقدر ما أستطيع • وعلى ذلك تشجعت متقدما الى حوض صغير على طول الجدار المقابل للباب وبدأت أغتسل •

وكشفت لى هذه التجربة عن حقيقة واحدة : وهى أن الاغلبية العظمى لما تسمى معالم الطابع اليابانى المثالية هى من نتائج التأثيرات الثقافية وأكثرها من الثقافة الصينية التى طبقها اليابانيون بمهارة على ظروفهم واحتياجاتهم • فان التأثيرات الثقافية المختلفة قد ينشأ عنها طابع مختلف أيضا • واقتباس وحساسية اليابانيين للتأثيرات الاجنبية تجعل من السهل عليهم نسبيا تشكيل أو تغيير ما يبدو فى نظر المراقب طابعا قديما لا يتغير •

ولم أستطع أبدا أن أشترك فى استنكار الطابع اليابانى أو الاعجاب الشديد به مما لجأ اليه كثير من المراقبين الذين سحرتهم المعالم الايجابية أو اجتذبتهم المميزات السلبية العديدة التى يتصف بها متوسط الشعب اليابانى • وانما كنت أحاول أن تكون تقديراتى فعلية واستبعدت كل ما سبق تصوره من آراء وشعور بالتحامل من تفسيراتى لتكوين الطابع اليابانى •

وأهم من ذلك كله ــ انى تناولت الطابع اليابانى على ضوء مستوياتهم الادبية ونجحت فى تفهم كثير من الحوافز التى كانت وراء تصرفاتهم سواء

وقت الحرب أو في زمن السلم · وبدا لى أن اليابانيين الذين اتصلت بهم قد أدركوا تقديراتى هذه · وأظهروا ثقة أكبر واخلاصا فى معاملاتهم معى أكثر من صلاتهم العادية مع الاجانب الآخرين ·

وبعد أكثر من عشرين سنة عندما كان على أن أدبر حملة موجهة الى الطابع اليابانى كانت هذه الملاحظات القديمة خير عون لى وتكللت جهودى بالنجاح · اذ اعتبر اليابانيون ما أذعته فى هذه الاذاعات دراسات موثوقا بها بالرغم من أن الاحاديث كانت تعد من الاذاعات المعادية · وهكذا التحقت لدراسة الاخلاق فى ميدان العمل الذى اشتمل على كفاح ضد كارثة كبرى ومعيشة هادئة فى ريف قرية يابانية للصيد · وأصبحت مقتنعا بأنه لولا الاسى والآلام التى سببها زلزال سنة ١٩٢٣ لغاب عنى كثير من الطابع اليابانى · كما كانت دراستى ستظل ناقصة لولا اقامتى فى زوتشى ···

٨

قصة « فيجارو »

بعد رحيلي من واشنجطون بثلاث سنوات وستة أشهر بالضبط عدت ثانيا الى ادارة البحرية حيث كنت أقف في المكتب المألوف ـ مكتب مدير المخابرات البحرية · وكان كابتن لونج قد ترك عملـه ونقل الى مكتب الملاحة الذى كان في تلك الايام يتناول شئون الموظفين · وفي الواقع كان الكابتن هو الذى وقع الاوامر التى عدت بموجبها الى الولايات المتحدة ·

وخلال الاثنين والاربعين شهرا الماضية حـدثت أمور كثيرة جعلتنى أسبر غور خطط اليابان وطموح اليابانيين مما دعانى الى تجديد أفكارى ورغباتى · فقد كنا في مواجهة قوة استعمارية مصممة على أساس متابعة خطتها : « يجب أن تسحق الولايات المتحدة » · وكانت تنظم شبكة من العملاء السياسيين والعسكريين داخل حدودنا وخارجها · لينشروا قواهم السرية استعدادا لليوم حيث تستطيع اليابان أن تلقى بضربتها بصـورة علانية · وكنت آمل أن عودتى الى واشنجطون ستتيح لى فرصة لتنظيم اجراءات مضادة باستخدام ما حصلت عليه من معلومات جديدة في تعبئة قواتنا للحد من نشاط اليابانيين ·

ولكنى واجهت وضعا عند عودتى أشبه شيء بالماء البارد ألقى على النار التى كانت تضطرب بين جوانحى · فقـد كان المدير الجـديد للمخابرات البحرية لا يزال يدرس مهمته · وكانت الادارة لا تزال سادرة في التراخى والتأجيل · ولم يبدو أحد في الادارة سوى اهتمام سطحي بما تلته من تجارب وآراء · كما لم يتناول أحد ـ بصورة جدية ـ مسألة تعيينى في منصب يعود علينـا بالفائدة ويكون مبررا لفترة السـنوات الثلاث التى قضيتها في اليابان · وكانت التقارير عن ملاحظاتي موضع اهتمام بسيط عابر وكذلك اشارتى الى حقائق معينة لا يمكن انكارها مما كنت أشعر بأنها جديرة بالاعتبار على الاقل · وجازفت بتشبيهى بمن يحلم في اليقظة ويرى الاشباح في ضوء النهار ·

وكان المدير لطيفا فى معاملة مرءوسيه فأصغى الى تقريرى فى شىء من الملل ثم أقفل باب المناقشة دون أن يشير الى تعيينى فى وظيفة فيما بعد . وسرعان ما وجدت أن ليس هناك من لديه أدنى فكرة بشأنى فلم يكن ذلك ضمن برنامج سير العمل . فكأنى قد قضيت ثلاث سنوات أدرس لغة غير مألوفة وأتسلل الى عقول شعب غريب . وأجمع معلومات ذات أهمية حيوية وأشترك فى بعثات سرية . لكى يأتى الآن دورى لالتحق بخدمة البحرية . وصراحة كان على أن أنسى كل الشئون الخارجية وأعد نفسى للخدمة العامة فى سلك البحرية . فذهبت الى قسم الشرق الاقصى فى المخابرات البحرية وهناك وجدت أيضا التهاون وعدم المبالاة فى جو من الغبطة والارتياح لا يقيمون وزنا للاتجاهات العدائية التى يعبر عنها اليابانيون فى صحفهم اللاذعة . وقد اعترفت الادارة بتقاريرى ولكنها غضت النظر عنها اطلاقا . لذلك شعرت بالضيق وخيبة الامل . وهو شعور كان وضوحه سوف لا يجعلنى محبوبا من رؤسائى . كما لم أستطع أن أحثهم على مواجهة أخطار الوقت الحاضر . فقد أصبح التوتر الذى ساد العلاقات بين أمريكا واليابان فى سنة ١٩٠٧ ، سنة ١٩١٢ فى زوايا النسيان وكذلك طواف سفننا الحربية حول العالم فى سنة ١٩٠٧ وتورطها فى استعراضاتها لقوة البحرية الامريكية .

فكان من الواضح أن أرسم خطوط المستقبل اذا أردت مواصلة ما كنت أعتبره عملا حيويا للمخابرات بأن أتابع أبحاثى مطلق الحرية فى أوقات فراغى التى غالبا ما تتوفر لى فى عملى فى البحرية . ولا حاجة بى أن أقول أنى لم أكن على استعداد لان أفعل ذلك . بل أفضل أن أخاطر بكل شىء فى سبيل توسيع دائرة المخابرات حتى ولو شعر من لا يهمهم الامر بأنى أتدخل فى شئونهم . وخلال تلك الايام تجاوزت حدود اختصاصهم وما هم فيه من مرح وسرور ولكن ذلك لم يفلح فى ايقاظهم من سباتهم .

وناقشت اهتمامى ورغبتى مع بضعة أصدقاء ممن يشعرون بالعطف على فى مطعم نادى الجيش والبحرية . وكان أحدهم قد عاد قريبا من الخدمة فى منطقة قناة بنما وأخذ يروى بعض تجاربه . وفجأة اقترح على قائلا :

« لماذا لا تتجه بنظرك الى الموقف فى قناة بنما ؟ فهناك المكان زاخر باليابانيين . وتستطيع مواصلة دراساتك اليابانية كما تشاء فى تلك البقعة التى هى مهد الدسائس » .

بنما . حقا ! لم أكن خلال اقامتى فى اليابان أتلهف شـوقا وأهتم اهتماما كبيرا بالقناة اذ كنت معنيا باليابان وحـدها ، ولكن ألم يكن من الواضح لى ولكل مراقب له أقل صلة بالحقيقـة أن القنـاة كانت احـدى الاهداف الكبرى للمخابرات اليابانية .

قد زرتها سنة ١٩١٢ عندما كنت أعمل فى البـاخرة الحربية الجديدة أركانزاس التى كانت تقل الرئيس تافت الى منطقة القناة للتفتيش على تلك الاعمال الضخمة قبل افتتاحها للمرور فوق مياهها . وحتى فى ذلك الحين ظهر أول العملاء اليابانيين على حدود العشرة الاميال من المنطقة المحرمة التى تشق طريقها الى مسافة ستة وأربعين ميـلا بين النهايتين الامريكتين ــ كريستوبال على جانب الاطلنطى وبالباو على الباسفيك ويفصلها خط وهمى من منطقة بنما فى مدينتى كولون ومدينة بنما . وفى فنـدق تيفولى كان هناك خدم من اليابانيين المتيقظين غير متطفلين. ومنهم حلاقون فى صالونات جديدة . وأطباء أسنان ينتشرون فى أنحاء المدينة . وبطبيعة الحال كان هناك قوارب لصيد السمك يقودها ملاحون من اليابانيون . والاوضح ظهورا فى هذا النشاط المنتشر كانت القنصلية اليابانية أشبه بخلية النحل تعمل ليلا ونهار لحماية مصالح اليابان كما كان يقال .

وكنا نشعر بشىء من الغموض لمحـاولة النزول الى مسـتوى هؤلاء اليابانيين المنهمكين فى أعمالهم والذين لهم رغبة جامحة وميل شديد للتصوير الفتوغرافى . فقد هرعوا الى القناة . وساورنا الشك فى أن بعضهم من الجواسيس ولكن الاتجاه العام ــ ماذا كان ! ان فكرة التجسس والمخابرات كانت بعيدة عن مخيلتنا حيث كان كل ما يختص بها مقصورا على صفحات المجلات حيث كانت تسـليتنا قراءة قصص التجسس وأوصـاف حلقات الجاسوسية البارعة .

ولكن بعد عشر سنوات . وبعد أن أصبحت لى دراية جديدة بالامور الخفية فى اليابان . اختلف تقديرى لاوجه النشـاط هذه . فلم اعتبرهم ممثلين فى رواية هزليـة . بل كخصوم فى حاجة الى الخيال والنشـاط والشجاعة لمكافحة خططهم المقامة على أسس سليمة .

فبعد اقتراح بنما لتكون مقرى فى المستقبل توجهت فى صباح اليوم التالى الى مكتب الملاحة أرحب بتعيينى فى منطقـة القناة . وكان أملى أن أكون هناك ضابطا فى المخابرات . ولكن نظام ادارة الملاحة كان جامـدا لا يقبل التجديد وعلمت انى لست جديرا بهذه الوظيفة .

وسألت الضابط المنوط « اذن ما نوع العمل الذى تعرضه على ؟ » ٠

فقال « لقـد تم تعيينك فى الطراد « روشستر » سـفينة قائد سرب الخدمات الخاصة فى وظيفة ملاح ٠ وأظن أنك ترغب فى ذلك » ٠

وبدا لى أن هذا العمل يناسبنى اذ كان السرب بمثابة أسطول لحماية منطقة القناة ٠ وزيادة على ذلك كان عمل الملاح مطابقا لواجبات ضابط مخابرات السفينة ٠ وفى الوقت المحدد جاءتنى الاوامر باستلام العمل فى الباخرة الامريكية روشستر وكانت راسـية فى بالباو ٠ ثم كان على أن أوجهها الى عدة مواضع هامةحتى الى اكتشاف التقلبات الدورية الطبيعية ــ عندما تجرى مياه تيار الخليج فى الجهة المضادة ٠

وكنت آمل أن عملى فى الباخرة سوف يوفر لىوقتا كافيا لبحث موقف اليابانيين ولكن سرعان ما تبدد الامل عندما وجـدت انى مشـغول دائما سواء على ظهر السفينة أو على الشاطىء ٠ ويمكن التجاوز عن التأخير فى تحقيق الغرض الذى كنت أسعى اليه بسفرى الى بنما ٠ لانه أصبح من الممكن الحكم على الاحداث حكما صحيحا فى سـنة ١٩٢٤ ٠ وأخذ الهدوء يسود العالم شيئا فشيئا بعد خمس سنوات من الشقاء والفوضى جاءت على أثر الحرب ٠ وكانت انجلترا لا تزال تعانى شيئا من المتاعب وكذلك بلاد أوروبية أخرى وفى أمريكا اللاتينية ٠ ولكن لاول مرة ــ بعد انتهاء الاعمال العدوانية ــ أخذت الامور الداخلية تحل محل الشئون الدولية ٠ حتى فى نظر المراقب المتشائم أصبح العالم يتمتع بالسلام بمقارنته بمدار الحرب الطاحنة الذى اعتدنا السير فيه ٠

فلما خفت حدة التوتر الدولى قلت كذلك الرغبة فى المخابرات التى هى امتداد لتوتر العلاقات وبدلا من مطاردة الجواسيس اليابانيين تفرغت لمتابعة أمور أخف وطأة وتبعث على البهجـة والسرور ٠ واذا كانت بنما مزدحمة بالجواسيس اليابانيين فهى أيضا زاخرة بالفتيات الحسان اللاتى يشع منهن السحر أينما وجدن سواء فى صالونات « سنشورى كلوب » أو فى أروقة فندق تيفولى ٠

وحدث أن جاء بعض رفاقى فى الباخرة الى أروقه الفندق ورأوا لاول مرة فتاة أمريكية معينة وكان وصولها الى بالباو موضع الاعجاب والاثارة ٠ وسرعان ما انتشر نبأ وصولها على ظهر السفينة وأعدت الخطط للقيام برحلة خاصة الى الفندق ٠ ولم يسعدنى الحظ بمشاركتى فى هذه النزهة ٠ ولكن

أحد رفاقى فى الباخرة وافق على أن يبدى ملاحظاته فى تفصيل واضح ٠ وكان يدعى جيمسى بين ٠ فلما عاد من الشاطىء كان يفيض حماسه أكثر مما أصبح كابتن ممتلىء الجسم على رأس فرقة بحرية فى أوقات السلم ٠ وقال :

« سرت فى الردهة مع بيل نجول بانظارنا فيما حولنا واذا برفيقى يقول فجأة وبلهجة البحار الذى يلقى خطابا ٠ ها هى تسير ٠ وتبطلعت ـ واستحق اللعنة أن لم تكن كلير ملر هى نفسها تلك الفتاة التى سبق أن قدمتها الى دنكز راندال ـ الطيار البحرى الذى قتل فى حادث سقوط طائرة منذ وقت مضى ٠ وحدث أن خطبها ٠ فكان موته صدمة قوية للفتاة ولمجموعة أصدقائهم ٠ ولك أن تتصور الموقف ٠٠ وأخبرك يا صديقى زاك أنها أجمل من رأيت » ٠

وتركت جيم يثرثر دون أن أزعجه الى أن قال :

« ودعوتها لتناول العشاء معنا على ظهر الباخرة » ٠

وسألته عن الموعد وبدا له انى كنت أشعر بالملل وقلت « متى ؟ » فأجاب على الفور :

« فى مساء الغد ان كان هذا يناسبك » ٠

وفى اليوم التالى عندما انتهيت من سيرى الهوينا على سطح السفينة بعد الظهر جاءت الفتاة ٠ وكانت شابة رشيقة القوام يشع وجهها بالجمال والذكاء ٠ وتختال فى مشيتها وحركاتها بما لا نظير له من رقة تأخذ بالالباب ـ تلك كانت كلير ميلر التى جاءت لتناول العشاء فى غرفة ضباط الباخرة روشستر ٠

وفى العشاء كانت تجلس على يمينى بينما جلس جيمى بجوارها ٠ وعبثا حاول أن يشترك فى محادثتنا ٠ ولم يكن من الصعب أن أكتشف أن كلير كانت فتاة غير عادية ـ كما وقعت فى حبها ٠ وأخبرتنى بكل ما جرى لها خلال السبع السنوات الماضية وشربت تحت حديثها فى شغف ملحوظ ٠ فاتضح أنها كانت رائدة كما كانت من المحاربين القدماء فى الطيران الامريكى

الذى اشــترك فى أعوام « التجربة والخطأ » التى شــهدت سلاح الطيران يصبح أداة هامة فى قواتنا المسلحة ٠ وفى مستهل الحرب العالمية الاولى أثارها ما كانت البلاد فيه من حاجة ماسة للقيام بعمل مفيد ٠ فذهبت الى واشنجطون حيث عهد اليها بوظيفة فى قسم التصوير الفتوغرافى التــابع لسلاح الاشارة فى جيش الولايات المتحدة ٠ وسرعان ما انضم هذا القسم الى سلاح الطيران الجديد حيث اشــتغلت بقراءة الصــور الجوية ٠ ومما أسعدنى أن ذلك كان نوعا من عمل المخابرات بشرط أن يكون عن طريق تحليل مكروسكوبى للصور المأخوذة من الجو للاهداف الارضية المحددة ٠

وأثناء التحاقها بالمجموعة الاصلية التى أصبحت فيما بعد فرقة طيران الجيش تمكنت من مشاهدة استعراض الضباط المقرر لهم أن يكونوا أسماء لامعــة فى مسرح الطيران الامريكى ٠ وكان فى المقــدمة جنرال باتريك ومســاعده بيلى ميتشــل ٠ ونائب الجنرال بردت رايت وبعد ذلك جاء الضباط بملابسهم الزاهية ـ هاب أرنولد ٠ هارمون ٠ اسباتز ٠ برت ٠ فرانك ٠ وكثيرون غيرهم ٠ وكذلك أولئك الابطال الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل بلادهم : هيكهام ـ دارجيو ـ وتنكر ـ وكلهم أعضاء فرقة تميزت بالحماس وقوة الادراك وبعد الخيال ـ وشاهدت الاســتعراض ـ بعضهم يسير فى تكلف ظاهر وآخرون فى سهولة انطلاق الطيارين ٠ بينما يسير الضباط الجدد فى دقة واحكام ٠ تدل تعبيراتهم على مظاهر السلطة والنفوذ٠ وكان الفنان الشهير ستيشن قد عاد من الحرب لارشادهم الى معالم القيمة العمليــة الكبرى للتوضيح الفتوغرافى ٠ وكان بوصفــه ضابط قســم التصوير لجنرال برشنج مؤسسا للصور الجوية ٠

ثم أن تجارب كلير فى التصوير الجوى وقراءة الصور الجوية ركزت اهتمامها على الهدف الحيوى العالمى للطائرات المغيرة ـ قناة بنما ٠ واثنــاء الطعام تحول حديثنا الى مناقشات فنية حول المهنة ٠ مما زاد فى ســحر هذه الفتاة البارعة حتى فى نظر رجل لم يشعر بحبها كما حدث لى من أول نظرة ٠

وتساءلت الفتاة « ألا تظن أن قناة بنما معرضة لان تكون هدفا سهلا لأية طائرة معادية تجرؤ على مهاجمتها ؟ » ٠

فأجبتها باهتمام ٠ « انها كذلك دون شك ـ فقــد تنقض الطــائرات عليها اذا أرادت ٠ وحقيقة أن المداخل المائية على جانبى القناة مزودة ببوابات

الامان ويمكن فتحها اذا لزم الامر • ولكنها لا تصلح للعمل الا اذا أصيبت بأضرار طفيفة • اذ أنها ليست مصممة لتحمل القوة التـدميرية للقنـابل الجوية » • واتفقنا على أنه لابد من صنع شيء في هذا الصدد •

ولما انتعشت حياتي بحبي لهذه الفتاة تذكرت حبي الاول ــ المخابرات• ففي صباح اليوم بعد اجتماعي بكلير • كان على أن أتوجه الى بنما لبعض شأني • وأثناء سيري في Avenida Central وهو شارع مزدحم في قلب المدينة•رأيت أحد اليابانيين يحول وجهه فجأة الى الناحية الاخرى وكان يرتدى ملابس مدنية في هيئة غير منتظمة نوعا • وتدل ملامحه على أنه ضابط بحرى في زى عادى • ودفعني شعوري لكي أتبعه عندما أوسع خطاه مما يدل على أنه يتجنب مطاردتي له• ثم توجه الى Calle Carlos A Mendoza وهو شارع آخر حيث اختفى في منزل رقم ٥٨ •ويضم هذا المسكن كثيرا من الصيادين اليابانيين الذين كان مصرحا لهم بصيـد السمك الى جانب عملهم بالمخابرات حول القناة • ودلت تحرياتي على أن هناك فئة من اليابانيين يشغلون الطابق الثاني من هذا المنزل تحت ستار أنه مكاتب لنقابة الحلاقين • وفي ذلك الوقت لم يكن هناك اهتمام خاص بتجمع صالونات الحلاقة حول منطقة القناة ولكن هذا الوضع لفت انظاري اليه • فلما كنت أجوس خلال هذه الطرقات أخذت أتطلع الى هذه المحلات الصغيرة وأراقب أربعة أو خمسة من الحلاقين يجلسون في مقاعدهم لا عمل لهم سوى انتظار العملاء في غير اهتمام أو مبالاة • وكانت هذه الصالونات من الكثرة بحيث شرعت في عدها ووجدت في كل منها أربعة أو خمسة من الحلاقين بالرغم من ندرة العملاء الذين يفدون للحلاقة • ثم تصادف أن رأيت أحد البحارة الامريكيين يتخذ مقعده في أحدها فتوقفت لحظة لابحث الامر على نطاق أوسع ووجدت الحلاق يشرع في عمله باهتمام ظاهر ويندمج مع البحار في محادثة مرحة شأن كل الحلاقين في جميع أنحاء العالم •

وعلى النقيض من « حلاق اشبيلية » كان أولئك « الفيجارو » × من خلاصة اليابانيين ينهمكون في أمور أكثر جدية من تهذيب اللحى أو تجاذب أطراف أحاديث ودية • وكان من الواضح من هذا البحث السريع في هذا الموقف الغريب أن هذه الصالونات لم تكن سوى نقط صغيرة للحراسـة تابعة للمخابرات اليابانية ــ وكان اليابانيون كغيرهم من الاجانب ممنوعين من الاقتراب من المنطقة الحساسة من القناة نفسهـا • ولـكن لـم يكن من

× فيجارو حلاق اشبيلية ، له أوبرا بعنوان « زواج الحلاق » • (المراجع)

الصعب عليهم التقاط بعض معلومات لها قيمتها من كثير من البحارة ومن قليل من المواطنين الذين يعبرون خط التقسيم بانتظام من منطقة القناة الى بنما ·

وحاولت التعرف على شخصية الرجل الذى مر بى فى شارع افنيدا سنترال · وكل ما علمته أنه تاجر يابانى يمر فى طريقه الى بنما باسم تتسيو ماتسوكا ومعه جواز سفر قانونى صادر من طوكيو منذ بضعة أشهر · ولم أره بعد ذلك مطلقا ·

وعند لقائى بكلير بعد ذلك أخبرتها بما جرى لى من تجربة غريبة فأصغت الى وصف الامور التى اكتشفتها بمزيد من الاهتمام · ومن ذلك الحين فصاعدا أخذنا نجوب الطرقات وشوارع أفنيدا سنترال وكان ميندوزا نراقب النشاط والامور التى تجرى فى صالونات الحلاقة · فلاحظنا أن كثيرا من اليابانيين يختفون فى هذه الاماكن دون حاجة الى الحلاقة أو قص الشعر · ومن وقت لآخر رأينا بضعة أشخاص من مجموعات أخرى يترددون على الصالونات · واتضح لنا أن معظمهم ليسوا من العملاء اذ كانوا يتوجهون عادة الى غرفة خلفية ثم يغادرون المحل بعد بضع دقائق ·

ولفتت كلير نظرى الى هذا العدد الكبير من الحلاقين يتسكعون فى هذه الصالونات مع أن العمل نفسه نسبيا لايمكن توزيعه بينهم لقلته وركوده · فكان من الواضح أن عددهم هذا كان بمثابة تغطية لنشاطهم · واذا كان الصالون يضم أربعة أو خمسة من الحلاقين فلا يتيسر لاى شخص أن يلحظ غياب فرد أو فردين منهم للعمل فى المخابرات أو التقاط بعض المعلومات أو جمع الرسائل « كصندوق للبريد » · واكتشفنا أيضا أن القنصل اليابانى كان يتردد غالبا على رقم ٥٨ كاليه ميندوزا ويحضر بانتظام اجتماع اتحاد الحلاقين يوم الاحد · وفى هذا الاجتماع يحضر جميع الاعضاء اليابانيين · ومما يدل على ظاهرة التجسس فى هذه الطرقات وجود عدد كبير غير عادى من أطباء الاسنان اليابانيين · فلابد أن هؤلاء كانوا يعملون كصناديق للبريد اذ كان من الصعب اكتشاف أى زائر لهذا النوع من الاطباء ان كان يشكو من ألم فى أسنانه حقا أو جاء لاستلام رسالة لنقلها الى طوكيو ·

وكان من الغريب مراقبة أولئك الذين يتنبأون بالحرب فى وقت يسوده الهدوء والسلام اذ أن نشوب حرب مع اليابان كان يبدو أمرا بعيد الوقوع الى حد كبير وأن وجود هؤلاء العملاء اليابانيين لم يكن ليشغل بال السلطات الامريكية التى كانت تشعر بالامان فى هذه « المنطقة الحساسة » وهى فى حراسة رجال أكفاء من الشرطة الحربية ٠

وقد علمت أن منطقة القناة كان لها دور هام فى خطط اليابان ضد الولايات المتحدة ٠ وتأكدنا من وثيقة المانية أعدها ضابط من سلاح الطيران الالمانى ٠ بأن هجوما قد أعد بصورة جدية على القناة لبدء حرب عدوانية على الولايات المتحدة ٠ وفى ذلك الوقت كانت القناة مسرحا هاما للجاسوسية على الساحل الغربى وفى بيرل هاربر ٠ ووجود عدد كبير من العملاء هناك كان يعكس أهمية هذه المنطقة على خريطة أمريكا الوسطى فى دفاتر المخابرات اليابانية ٠ وبالنسبة للجهود التى ضاعت سدى فى منطقة القناة لم استطع أن أوضح لماذا لم نقم بمحاولة للتدخل فى تلك العمليات كما تدخل الالمان ــ فى سرعة وفى غير انتظام ــ فى شئون المرور من قناة السويس ٠ وكان أمرا تقرر فى الدوائر العسكرية العليا كما كانت مرحلة تدخل فى دائرة اختصاص المخابرات وذلك لان الحرب السرية التى أعدت ضد الولايات المتحدة وصلت الى أول مرحلة لها منذ فترة طويلة فى سنة ١٩٢٥ عندما لاحت لى فرصة لملاحظة المخابرات اليابانية وهى تعد الميدان للعمل ٠

وقد كنت أجرى أبحاثى فى الفراغ ٠ وعندما عدت بنظرى الى الوراء وجدت أنها كانت سابقة لاوانها ٠ اذ أن الجاسوسية اليابانية فى بنما سنة ١٩٢٥ لم تكن عملا عدوانيا ضد دولة لها علاقات ودية مع اليابان ــ بل كانت توطيدا ــ بصورة دائمة ــ لقوة السياسة اليابانية التى بدأت سنة ١٨٦٨ فى وقت عودة حكم ميجى ٠ ومن الخطأ انتقاد اليابان لمحاولة مطابقة قوتها لطريقة تفكيرها ٠ **وذلك لان المخابرات ــ فى الواقع ــ هى وسيلة طبيعية لتعزيز قوة الدول ٠**

وحتى فى سنة ١٩٢٥ أدركت قيمة المناقشات الجوفاء (التى كان يثيرها بعض المراقبين) ضد الولايات المتحدة التى تهتم بعمل المخابرات ٠ فهل تستطيع المؤسسات الحديثة أن تثبت أقدامها دون تحليل سليم للاسواق ؟ ألسنا نقوم بفحص المنزل قبل شرائه ؟ ثم أن احتقار جنرال

سوينى Sweeny ـ مؤلف كتاب « المخابراتالحربية : سلاح جديد فى الحرب » والذى كان فى طليعة المخابرات الامريكية خلال الحرب العالمية الاولى ـ لموضوع استخدام المخابرات كأداة لتدعيم سياستنـا الخارجيـة وتحقيق أمانينا الشرعية كان له دائما انطباع فى نفسى أنه بمثابة التنازل عن حقوق هى جزء لا يتجزأ من دعائم مركزنا بوصفنا قوة عالمية • ففى انجلترا تلعب المخابرات دورا هاما فى سير العلاقات الدولية كأى قسم من أقسام وزارة الخارجية • ونتيجة ذلك أنه متى كان على أية دولة أن ترسل جنودها لتحقيق أغراضها • ترسل بريطانيا رجلا أو رجلين من عملائهـا اللامعين لنفس الغرض •

قال فردريك الاكبر ذات مرة فىحديث له حول خصمه جنرال سوبيس « بينما يسبقه مائة من الطهاة يسبقنى مائة من الجواسيس » • فقد كانت قوة مخابراته الخارقة وليست قواته المسلحة الضعيفة نوعا هى التى مكنته من البقاء بعد حرب السبع سـنوات بالرغم من العقبـات التى وقفت فى طريقه من حيث المجال العسـكرى • وفى أوروبا حيث اعترف القوم بقيمة المخابرات وأشـادوا بالقـائمين على شـئونها منذ عصر مونتين وقـدروا العملاء حق قدرهم واحسنوا جزاءهم • اذ أنها أفضل العقول فى جميـع الامم لمساعدتها فى جمع المعلومات السياسية الحيوية التىتحتاجها أية دولة كبرى لرسم سياستها الخارجية فى الطريق السليم • وكان سومرست موم يفخر بوصفه الدور الذى لعبه ببراعة كعميل بريطانى للمخابرات × كما فعل الكتاب الاقل قدرا ولكنهم عملاء أكبر قيمة وأجل تقديرا • وغالبا ما كان لقب الفروسية يمنح للعملاء البريطانيـين البـارزين والدبلوماسـيين وغيرهم • ولتأكيد رأيى استشهد بكل من سير تروث لوكهارت وسير بول ديوكس • اذ كان من دواعى الفخر التى لها ما يبررها أن أطلق لوكهارت على كتابه حول أوجه نشاطه فى روسيا اسم « العميل البريطانى » • ولم يطرد خلال السنوات التى تلت طبع هذا الكتاب • وتاريخ الامبراطورية البريطانية حافل بالاعمال المجيدة ومكاسب البطولـة التى حققهـا رجال مشهورون نالوا مراتب المجـد فى ميدان المخـابرات واعتـبروا مؤسسى الامبراطورية • وفى التحليل الاخير كان من عملاء المخابرات فىالتنظيمات العسكرية العليا كلايف ورودس ممن اعتبروا من مؤسسى الامبراطورية • وتزين تماثيلهم اليوم الميادين البريطانية ولهم فى وستمنستر أبى النصب التذكارية •

× راجع (أشندن) اصدار الهيئة • (المراجع)

ثم ان على أمريكا الآن أن تتعلم الكثير وهى تنطلق الى موعــدها مع القدر • وقبل كلّ شيء لابد أن تتعلم كيف تميز بين أعمال الجاسوسيــة الهدامة التى هى من اختصاص السلطات الحاكمة وبين المخابرات القانونية التى تحتاجها كل دولة ولها كل الحق في ارسال قواعدها • ولست أعتبر العمل المثالى لعميل المخابرات هو ممارسة النشاط السرى مع ماتاهارى فى أروقة الفنادق من الطراز الحديث • ومن تجاربى ــ فى الواقع ــ أجد أن المعلومات القليلة التى لها قيمة حقيقية يجمعهــا قراء المجــلات المعروفين بنشــاطهم ــ مع شيء من المبالغة ــ فى العناية بصــور «B. B» وخــلال ارتبــاطى مع المخــابرات كنت دائمــا أرفض التعــامل مع الجواســيس المحترفين الذين هم دائما على استعداد للعمل مع أى دولة أو دولتــين فى وقت واحد اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا • وخلاصــة القول عن العميــل الصالح الذى يباشر عمله فى المخــابرات هــو ذلك المواطن المحب لوطنه والمتفتح الذهن الذى يقوم بعمله فى المخابرات وهو يتابع مهنته الاصلية المعتادة • ورجل الاعمال الامريكي الذى يسافر فى بعثــة تجــارية تتعلق بمؤسسة الى بلاد نائية يستطيع أن يقدم تقريرا عن ملاحظاته دون أن يخل بالتكريم الذى يلقاه فى البلد حيث يقيم • والامريكيون أكثر الناس انتقالا على وجه الارض • وفى كل شهر يشترك مئات منهــم فى رحــلات بحرية حول الارض • يزور الآلاف مناطق بعيــدة للعمل ولعقــد الصفقــات • وللجرائد الامريكية مراسلون فى جميع أنحاء العــالم • وحتى مع هــذا الجيش ممن يجوبون الكرة الارضيــة ــ على وجــه التحقيق ــ لا ندرى الا القليل عما يحدث فى البلاد الاجنبية • واذكر حادثا فى وقتما سنة ١٩٤٠ اذ كنا فى حاجة الى بعض معلومات عن منظمة للمخابرات الالمانية تسمى المعهد الاجنبى الالمانى وطلبنــا الملف الخاص به • ولم يكن لدينا شيء من ذلك بالرغم من سفر عشرات من الامريكيين الى استوتجارت لمشاهدة هذا المعهد الذى كان فى الحقيقة أحد معالم العاصمة •

وفى بنما سنة ١٩٢٥ عندما كنت أرقب نشاط المخابرات اليابانيــة كانت هذه الافكار غير متصلة الحلقات فى ذهنى • ولم أدرك حينذاك المشكلة المعقدة وما بها من تورطات متنوعة • وشعرت باننا لم نسلك أفضل الطرق لمعالجتها • وخلال العشر سنوات التى تلت فترة اقامتى فى بنما خصصت أفكارى ومعظم أوقاتى الى هذه المشكلة • والنتائج التى توصلت اليها كانت واضحة فى أوجه نشاطى خلال السنين المقبلة • وأصبحت الدوافع لبعثاتى السرية •

وفى هذا العمل من دراسة وتطبيق وجدتفى كلير رفيقا يتميز بالحكمة والادراك والنشاط وهى التى أصبحت زوجة لى بعد ستة أشهر من وقت لقائنا فى غرفة الضباط على الباخرة روشستر ٠ وكان كل منا مناسبا للاخر تمام المناسبة ٠ كما كان كل منا يقوم بجولات الى بنما ثم نلتقى على غير موعد ٠ ولكن من ذلك الحين كنا نسافر معا فى طرقات كانت نهايتها الشعور باليأس والفشل ٠ ولم تكن أبدا نهاية تشرف على الهلاك ٠ وفى هذه الجهود التعاونية كنت أضع تكتيك العمل بينما كانت كلير تقدم نصيحة استراتيجية رائعة ٠

وكذلك كانت فى بنما خير عون لى خلال خطواتى الاولى نحو عمل ايجابى للمخابرات حتى كان على أن البى نداء الواجب لترك هذا النشاط الذى لم يكن سوى نوع من الهواية فى ذلك الحين٠اذ أن الباخرة روشستر عهد اليها فى بعثة هامة لنقل جنرال جون برشنج الى شيلى لكى يتوسط للبت فى نزاع Tacnarica القائم بين بيرو وشيلى ٠ وكنا نتوقع أن نبقى عشرة أيام فقط ولكننا قدرنا هذا تبعا لجهلنا بمنازعات أمريكا اللاتينية ٠ فقد دخل عنصر Manana فى هذه المفاوضات الدولية ٠ وحتى جنرال برشنج ذلك الرجل الكفء كان فى حاجة الىستة أشهر لفض ذلك الجدال ٠ واخيرا كنا على استعداد للعودة الى الولايات المتحدة مع الجنرال ٠ وقبل عيد الميلاد بيومين دخلنا ميناء نيويورك حيث جاءنى الامر الذى كنت أتوقعه منذ أمد بعيد ٠ وأمرت بالتوجه الى واشنطون لعمل مؤقت مع رئيس العمليات البحرية ٠ وكانت جميع الادلة تشير الى عودتى للعمل فى المخابرات ٠ وفى هذه المرة الى النهاية ٠

٩

فترة سرية تامة

حتى أولئك الذين يتفقون مع الفيلسوف الاغريقى على أن كل شيء في هذه الدنيا انمايتناوله التغييرلابد أن يشعروا بأنرؤساء مخابراتنا البحرية يستبدلون من وقت لآخر وحتى فى هذه الايام يبدو أن ليس هناك نظام لاختيار الموظفين لهذا المنصب البالغ الاهمية•وان الامر يحتاج الى مؤهلات خاصة ليكون الرجل صالحا لمثل هذا العمل • فمن عهد قريب بين سنة ١٩٤٠ و سنة ١٩٤٥ تولى مخابراتنا البحرية مالا يقل عن سبعة مديرين بينما استبدلت البحرية البريطانية مدير مخابراتها البحرية مرة واحدة •

ومن بين المديرين السبعة (ويسمون الآن رؤساء المخابرات البحرية) كان هناك مدير واحد كانت مؤهلاته عبارة عن تدريب سابق واستعداد ذهنى وشخصى لشغل هذه الوظيفة الخاصة • ومن الغريب أنه لم يستمر فى عمله سوى فترة قصيرة • وكان الباقون ضباطا فى البحرية تميز بعضهم بانهم من المديرين الاداريين أو مشرفين على المنازعات • ولكن لم يكن لاحدهم المؤهلات الخاصة ليكون صالحا لهذا العمل الدقيق • وأكثر من ذلك كان بعضهم لا يرغب مطلقا فى القيام بهذه المهمة • وفى وقت ما فى حالات الطوارىء الكبرى عين ضابط لامع مديرا للمخابرات رغم احتجاجه بأن رغبته هى أن يجوب البحار أفضل من أن يظل «غارقا تماما» وراء مكتبه فى ادارة البحرية • واشترط آخر أن تكون مدة خدمته فى المخابرات محدودة ليؤدى عملا لا يهمه كثيرا وليواجه مشاكل لا يدرى عنها شيئا • وثالثا كان مغرما بالوظيفة ولكنه اعتبر عمل المخابرات عبئا ثقيلا وعملا يتقاضى عنه مرتبا ولا يعمل الا القليل • كما تميز بشيء من الجبن الطبيعى مما جعله مصدر عدوى للآخرين اذا سمح له بتأدية واجباته بطريقته الخاصة • وكان الاستقرار هو خير ضمان لمخابرات البحرية البريطانية وعندما استبدل الادميرال املامع جود فرى الذى كان يصلح لوظائف أكبر قدرا حل مكانه الكومودور رشيروك وهو ضابط

حسن المعاشرة يؤمن مخلصا برسالة المخابرات ويبث فى روح معاونيه نفس الثقة • وفى الحرب العالمية الاولى كان للمخابرات مدير واحد ــ القبطان رجنالد هول ــ قام بعمله طيلةمدة الحرب بجدارة وكفاءة• وبطبيعة الحال كان من حسن الحظ أن وضع ضابط على رأس هذه الادارة ــ فى مدة محدودة ــ وحاول أن يصلح من شأنها وكانت قد عهدت اليه بطريق الصدفة × •

ومن هؤلاء كان كابتن وليم •و• جالبريث ــ من البحرية الامريكية الذى عين سنة ١٩٢٥ مديرا اداريا • وقد يكون ذلك لسد الفراغ حتى يتيسر نقل رجل آخر أقل كفاءة منه لشغل هذا المنصب : وقام الكابتن بواجباته بنشاط ملحوظ • وساهم بابتكارات وتغييرات نظامية عندما كان كثير من سياساتنا البحرية ومبادئنا وقدرتنا الفنية معرضا لتغيرات جوهرية • وعندما كنت بعيدا أقوم بعملى فى بنما لم أعلم بأن كابتن جالبريث أصبح يهتم بشأنى • فقد كان من مدرسى الاكاديمية البحرية عندما كنت ضابطا بحريا تحت التمرين واجتمعت به بعد عودتى من اليابان فيما بعد • وبدا لى أن تجاربى فى اليابان كان لها انطباع فى ذاكرته • اذ أصبح يشعر الان أن معلوماتى الخاصة تضيع سدى فى بنما فى عمل لا أحتاج فيه الى مؤهلات لها قيمة معينة •

وفى ذلك الوقت حدث تغيير فى الاسطول الاسيوى وتم اختيار أدميرال كلارنس وليمز ليكون قائدا عاما للاسطول • وكان من الضباط البارزين فى البحرية الامريكية ويعتبر من علماء البحرية كما كان فنانا بارعا فى تحركات القوات • وكان الادميرال على وشك اتمام مدة تعيينه كرئيس للمعهد العلمى للبحرية وهو أول المعاهد فى الكلية الحربية البحرية فى نيوبورت .I. R • وكان القبطان جالبريث قد اقترح على الادميرال الحاقى بعمل يضمن مستقبلى • وتبودلت المراسلات بينهما لفترة ما اقترح فيها الكابتن تعيينى فى الاسطول الاسيوى كضابط للمخابرات للعناية بمشكلة خاصة بدأت أن تحتل مكانا بارزا فى مجال تفكيرنا • وبالطبع لم أكن أعلم الا القليل عن الخطط التى كانت تجهز لى حتى يناير سنة ١٩٢٦ عندما سحبت فجأة من السفن الامريكية روشستر وأمرت بالتوجه الى واشنطون وتقديم نفسى الى رئيس العمليات البحرية للقيام بمهمة مؤقتة • وكانت المخابرات قسما فرعيا من هذه العمليات •

× راجع « الغرفة رقم ٤٠ » اصدار الهيئة • (المراجع)

وكانت وظيفتى الجديدة يحوطها بعض اسرار قليلة الاهمية. ولم يذكر لى فى الحال نوع العمل الذى سوف أقوم به . ولكن وضع مكتبى الجديد فى الحجرة رقم ٢٦٤٦ فى الادارة البحرية دل على أنى سأقوم بمهمة سرية للغاية . اذ وجدت غرفتى فى نهاية ردهة طويلة فى الطابق الثانى من الجناح السادس فى منأى عن بقية المكاتب . ولابد من الحصول على اذن خاص قبل الدخول اليها . وهذا القسم من الادارة البحرية كان يضم أفرادا قليلين يمتازون بالصمت والسرية ويرفضون مناقشة أعمالهم أو الكشف عن تفاصيلها . فكنت جزءا من هذه الاعدادات الخيالية طيلة الستة الاشهر التالية . أشبه شيء بأحد تروس عجلة تدور فى الخفاء . اذ كانت فترة سرية للغاية فتحت أمامى آفاقا جديدة من المخابرات الحديثة .

وكان مكتبى مسؤلا عن أحد فروع المخابرات الدقيقة المعقدة : التحليل للمعلومات . وقد قال تاليران مرة أن اللغة ليست سوى وسيلة يخفى بها الانسان ما يدور فى رأسه من الافكار . وبالطبع لا تقتنع المخابرات بهذه الوسيلة لاخفاء أغراضها . ومثلها كمثل المراهقين الذين يستعملون ألفاظا وعبارات عامة لاخفاء أو تأكيد معنى محادثاتهم . فللمخابرات لغتها الخاصة التى تخفى بها رسائلها عن أولئك الذين يسعون لاشباع رغباتهم. وتتضح لغتها هذه فى الكتابة السرية وألوان الشفرة . وهو علم يتطور ــ الى حد بعيد ــ فى هذا العصر الحديث ولكنه يحتفظ بكثير من أسرار اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة .

وتطورت أساليب الكتابة السرية والشفرات عن طريق الدبلوماسية الحديثة التى تطورت نفسها من الاصول البدائية حوالى نهاية القرن الثامن عشر . فالاحداث فى فرنسا وأولها الثورة الفرنسية ثم عصر نابليون ومقارنته بمصالحه التى سيطرت على محيط السياسات الدولية . كل ذلك كان سببا فى احياء الدبلوماسية السرية على نطاق أوروبى واسع . وهذه الدبلوماسية انتهجتها الحكومات الايطالية والفاتيكان فى تذوق ومهارة فائقة . وكان للمخابرات جزء فى هذا الدور . ففى جميع العواصم الاوروبية تتخذ الدول عملاء لها فى الوقت الحاضر . وفى الغالب يتنكرون فى هيئة دبلوماسيين .

وطبقا لرأى ولتر أليسون فيليبس ــ أحد كبار مؤرخى الدبلوماسية ــ كان السفراء فى القرنين السابع عشر والثامن عشر « جواسيس من

الاشراف » . ومن كلمات فرنسوا دى كاليير وكان نفسه سفيرا للويس الرابع عشر « أن الوظيفتين الرئيسيتين للمبعوث : أولا العناية بشئون الامير التابع له : وثانيا اكتشاف الامور التى تجرى فى الطرف الآخر » . وأكد أن السفير الماهر هو الذى يعرف كيف يكون على دراية بما يدور فى ذهن الحاكم وفى مجلس الوزراء وفى أنحاء البلاد ــ ولتحقيق هذه الاغراض « تكون أمارات البشر والترحاب وتأثيرات النبيذ الدافئة خير حلفاء له » .

وبقيت هذه الآراء سائدة فى النظام الذى فرضته ألمانيا النازية على العالم عندما حولت الجواسيس الاصليين الى دبلوماسيين من وراء ستار .

والنازيون كانوا صادقين فى ارسال مبعوثيهم كعملاء دبلوماسيين يهتمون باسرار الدول التى يلحقون بها . حتى أن العلوم العسكرية والسياسية التى وضعوها رسميا وصفت عمل المخابرات كأنه أول وظائف الدبلوماسيين وجنرال هوز هوفر الذى كان زعيم الجيوبوليتيكيين فى الهتلرية أصر على أن الدبلوماسى الصالح يجب أن يتوفر له « ادراك للحصول على المعلومات مقدما يعززه ذكاء مناسب » .

وفى الحق كان القرن التاسع عشر هو الذى جعل الدبلوماسيين لان يكونوا من « الجواسيس الاشراف » فقد جمع بين حروب نابليون والحلف المقدس ومؤتمرات فينا واكس لاشابل وغيرها من مناورات الدول السياسية فضلا عن الارشاد البارع لكل من تالليران ومترينيخ .

وكان أولئك الدبلوماسيون البارعون يعهدون الى حملة الرسائل بتوصيل تقاريرهم الى لندن وباريس وفينا وسان بطرسبورج . وكانت أسفار هؤلاء محوطة بالاخطار . فلا يدرى أحد ان كانت الرسائل ستصل الى الجهة المقصودة أو تقع فى أيد غير مسئولة وبذلك تصل المعلومات الى يد الخصم الذى هو فى أشد الحاجة اليها . وتجنبا لهذه المواقف الشائكة اخترعت الكتابة السرية والشفرات واستخدمت بمهارة فائقة حتى فى عهد الدبلوماسية السرية فى تلك الايام الخالية . اذ كان لابد من تدعيم ثابت للدبلوماسية وأداتها ــ المخابرات .

ثم ان الأمريكيين ــ كعاداتهم دائما من ناحية الانتباه ــ قد فطنوا الى قيمة الكتابة السرية فى أول عهد هذا المضمار واستخدموا وسائلها وتفننوا فى كتابتها فى سنة ١٧٧٦ وكذلك خلال الحرب بين الولايات سنة ١٨٦١ ــ ١٨٦٥ . كما أن انتشار استخدام هذه الكتابة على أيدى البريطانيين خلال

الحرب العالمية الاولى • والمكاسب التى حققها حلفاؤنا عن طريق استغلالها على الوجه الاكمل دفعتنا وحببت الينا استخدام هذه الاداة الهامة ، وكان اشـتراكنا فى الحرب العالميـة الاولى لفترة قصـيرة بحيث لم نتمكن من وضع نظام أمريكى متطور • فأمدنا البريطانيون الذين كانوا قد تقدموا عنا كثيرا بمعظم ما احتجناه فى هذا الصدد • وكان لديهم عدد كبير من شفرات العدو • وتمكنوا من قراءة رسائله • وكانوا يرسلون الينا نسخا طبق الاصل من تلك الشفرات ـ فلما جاء السلام وانحلت عرى التحالف فى زمن الحرب وانتهى التعاون مع المخابرات البريطانية عند مفترق الطرق بالنسبة لدبلوماسية ما بعد الحرب انفردنا بأنفسنا ولجأنا الى تصميماتنا الخاصة •

وكان الشعور عاما بأن الاعمال الحربية كانت فى أشد الحاجة لهـذه اللغة السرية • ولكن لم تكن الاعتمادات الماليـة متوفرة بحيث تعمـل على تقدم هذا السلاح الهام ـ وفى يقظة الحرب العالميـة الاولى المظفرة كانت القوات المسـلحة نفسهـا فى زوايا النسـيان بقـدر ما غض النظر عن احتياجاتها الجديدة • وبالنسبة للقوات كانت الكتابة السرية احدى تلك الضروريات التى حرمت منها من بين لوازمها الناقصة والتى كان لا غنى عنها • وعلى أى حال كان معترفا بها كأداة هامة للدبلوماسية الحديثة • وأعطيت وزارة الخارجية الامكانيات اللازمة لاعداد فئـة صغيرة للـكتابة السرية بقصد المنافسة ـ على قدر المستطاع ـ لتلك الهيئـات الاجنبيـة الطموحة • وكان نشاط ونبوغ ومهارة الافراد القليلين الذين عهد اليهم بهذا العمل بمثابة تعويض لنا عن حاجتنا لوضع التنظيم اللازم ـ ولو أن منظمتنا للكتابة السرية كانت أصغر من أية منظمة أخرى لاية دولة كبرى الا أنها اعتبرت من أحسنها التى تمد صانعى السياسـة الخارجيـة بأهم المعلومات النافعة •

وكان تطور المواصـلات الحـديثة مقترنا بتطور الكتابة السرية فى نواحيها السلبية والايجابية • وأصبحت الاصطلاحات والشـفرات أشـد تعقيدا وتقدمت وسائل حلولها بأكثر مما كان متوقعا ـ وأثبتت الابحاث التى أجريت فى بيرل هاربر التى كشفت عن الكثير من جهودنا فى هذا السبيل أن أساسها كان هذه الادارة الهامة فى متنـاول أيدينـا • وفى الواقع كان لدى كل المحاربين وسـائل للاتصـالات السرية غاية فى الجـدارة والبراعة • ولكن بعض موظفينـا أعمت بصـائرهم مكاسبنـا ولجـأوا الى

السكون والرضى معتمدين على قوتنا بينما كان الآخرون يسيرون في طريق التقدم . ولم تتغير طرق الكتابة التى كانت تستخدم فى وكالاتنا الدبلوماسية على مر السنين الا قليلا ومن ثم أصبحت قديمة بالنسبة للنظم الحديثة . وكانت عرضة للتحليلات السرية فى شيء من السهولة نسبيا . وكنت على يقين من أن المخابرات فى اليابان وغيرها من الدول قد حققت تقدما ملحوظا فى هذا الميدان . وكثيرا ما نصحت السلطات لدينا بتغيير أساليب الكتابة السرية من وقت لآخر وعلى الاخص خلال المؤتمرات الدولية لمنع من يحتمل أن يكون عدوا لنا من الاطلاع على دخائل أسرارنا. ولكن شفراتنا الدبلوماسية ظلت كما هى لمدة خمسة عشر عاما ولم يكن القيام بعمل تحليل للشفرات الاجنبية سوى عبث أطفال .

وجدير بالكتابة السرية والشفرات أن يتناولها التغيير اذا أريد لها البقاء على مستوى عال . ومثل هذه التغييرات حدثت مرتين خلال الحرب العالمية الثانية وأدت الى تطورات تعد الآن على جانب كبير من الاهمية . وفى اعتقادى أن احداها كان له أثر مباشر على نتيجة الحرب . فبعدسقوط فرنسا أعد الالمان عدتهم لغزو انجلترا . ثم وهنت قواتهم المسلحة نظرا لما تكبدوه من خسائر فى أوروبا وأصبحوا عرضة لهجوم العدو عليهم على طول ساحل أوروبا . وكان فى المملكة المتحدة حفنة من عملاء الالمان لاكتشاف المواقع وعدد القوات استعدادا للغزو الالمانى . ولكن مهمة هؤلاء كانت ثانوية بالنسبة للمخابرات الممتازة التى كانت تحت يد الالمان والتى كانت تحل رموز الشفرات البريطانية . وفى الواقع كان لدى الالمان طيلة فترة الحرب نظام دقيق للكتابة السرية تتمناه أية دولة محاربة أخرى ، واكبر انتصارات مخابراتها كان راجعا الى جدارة هيئة حل الشفرات المختلفة .

وكانت العمليه التى صممها الالمان لاخضاع انجلترة تجرى تحت اسم حركى (Sealion) « أسد البحر » . وكانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق على ساحل القناة المحتل . وكانت الاجراءات البريطانية المضادة تعلم ذلك . وبلغ الامر مسامع هتلر وواضعى خططه عن طريق قراءة الشفرات البريطانية . وكان المشروع قد رسمت خطوطه على أن يبدأ فى أغسطس سنة ١٩٤٠ بهجوم شامل على انجلترا على أن يبلغ ذروته فى ١٥ سبتمبر ثم يتلوه مباشرة غزو على موجتين مع اتجاه نحو الشمال لخداع الاسطول البريطانى وابعاده . وفى الحقيقة لم يكن الاسطول الالمانى ملتزما

بالجهود الاساسية للغزو وانما كان استخدامه نوعا من الشرك لاغراء الاسطول البريطانى ليكون بعيدا عن مهمته فى حراسة منطقة الغزو الحيوية على خط الساحل : وكل هذه الخطط وضعت على أساس المعلومات التى تصل الى المخابرات عن طريق شفرات الرسائل البريطانية ـ ولكن ما كاد الالمان يطمئنون لمعرفتهم الاسرار البريطانية حتى حدث تطور قلب اعداداتهم رأسا على عقب • ولم يكن هذا التطور تكتل القوات البريطانية أو اجراءات دفاعية • بل كان مجرد حركة كلفت بريطانيا شيئا يسيرا ولكنها أنقذت كل شىء • فقد حدث فى مساء الغزو الالمانى أن تغيرت الكتابة السرية والشفرات البريطانية بجميع أنواعها • وعلى ذلك ساد الذعر القيادة العليا الالمانية الى حد كبير بحيث أصبح هتلر كمن فقد عينيه وأذنيه يتلمس طريقه فى ظلام حالك كجهله بمجريات الامور داخل بريطانيا • وقبل كل شىء كان يأمل فى اكتشاف مدى الخسائر التى سببها الهجوم الجوى على انجلترا عن طريق قراءة الشفرات البريطانية • ولكن القائمين بحل الشفرات أعربوا عن عجزهم فيما يتعلق بالاساليب الجديدة • وأصبح هذا الضباب الصناعى يشمل الجزر البريطانية عدة أشهر • كما أصبح هتلر محروما من أحد أسلحته الحيوية فلم ـ يجرؤ على فعل أى شىء حتى يتسنى له اختراق هذا الضباب • حتى اذا توصل الالمان الى حل هذه الشفرات الجديدة كان الغزو قد فات أوانه • واكتشفت بريطانيا مجالا حيويا تتنفس منه • وأكثر من ذلك تمكنت من احباط أكبر تهديدا لها واجهته خلال سنى الحرب •

والحادث الآخر كان خسارة لنا وسببا فى تأخير بعض ترتيباتنا لتحرير أوروبا اذ حدثت غارة ـ دون مسوغ ـ على مكتب الملحق العسكرى اليابانى فى لشبونه ـ البرتغال • مما وضع الاعداء على قدم اليقظة وجعلتهم يغيرون شفراتهم التى كنا نستطيع قراءتها بانتظام وفجأة حرمنا من هذا المصدر الحيوى للمعلومات ـ واحتاج الامر لعدة أشهر من عمل شاق لاضاءة الطريق أمامنا بالوصول الى حل للشفرات اليابانية الجديدة•

فى سنة ١٩٢٦ عندما عهد الى بهذا النوع الخلاب من المخابرات الحديثة كان التحليل السرى فى بداية التقدم الكبير الذى حققته فى السنوات التالية • وكانت مهمتى مقصورة على اليابان لاعداد الطرق والوسائل التى نستطيع بها أن نستمع الى المحادثات اليابانية وأن نلتقط الرسائل وأن نعلم

محتوياتها . وأود أن أؤكد هنا أن التحليلات السرية هى نوع واحد من أنواع المخابرات رغم أهميتها الكبرى . فلا يستطيع أحد أن يكتشف كل شىء داخل معسكر الاعداء بتركيز اهتمامه على حل شفرات الرسائل فحسب . اذ أن جزءا واحدا من المعلومات التى تحتاجها المخابرات يمكن جمعه بهذه الوسيلة . كما أن معظم الحلول السرية مهما كانت كافية وسهلة الادراك لابد أن تترك ثغرات شاغرة وكثيرا من المشكلات دون حل . ثم أن الرسائل التى تدور بين الوكالات المختلفة للقوى المحاربة لا تدل بنفسها على معنى مفهوم . فهى تحتوى غالبا على شفرات فرعية بين السطور واشارات غير مباشرة الى حقائق معلومة من قبل أو الى تعبيرات مختصرة بناء على تعليمات شفهية . وللمخابرات وسائل أخرى للحصول على هذه المعلومات الاضافية . وبالنسبة للمخابرات تحتل الحلول السرية مركزا اضافيا فهى تملأ الثغرات التى تتركها المعلومات الاخرى . ومما يعد من الضياع حقيقة أن دولة كبرى لها التزامات دولية تحاول أن تسد حاجاتها بتركيز اهتمامها على الحلول السرية وحدها . فكل هذا عبارة عن جزء من منظمة المخابرات المعقدة يكمل أحدها الآخر دون أن يعد زائدا عن الحاجة .

ولما كنت حديث العهد بعمل الشفرات وفك رموزها احتجت الى وقت طويل لكى اتعود على هذا العمل الفنى الدقيق . وهذه الفترة السرية للغاية استغرقت نحو سبعة أشهر فى واشنجطون ـ قسم كولومبيا .D.C وبالرغم من حب استطلاع أصدقائى وفضولهم لم يدروا شيئا عن وظيفتى الاخيرة . وكذلك اليابانيون المتيقظون مهما كانوا متلهفين على معرفة حقيقة عملى . فقد كنت أبدو فى نظر الجميع انما « أطلع » على نقاط متنوعة اعدادا لوظيفتى الجديدة . ولجأت مستترا الى احدى شعاب واشنجطون الهادئة التى كانت فى ذلك العهد بعيدة كل البعد عن أن تكون العاصمة العالمية والمركز الدولى الزاخر بسكانه كما هى الآن . ولم يكن من الصعب البحث فى احياء المدينة ـ ولما كنت منهمكا فى الارقام التطبيقية فقد اخترت رقم ١٦١٦ فى الشارع ١٦ وهو مسكن فى صف سفارات واشنجطون . وقضيت أيامى فى الدراسة والعمل بين قوم كان الامن طبيعة ثانية لهم . فكانت الساعات تمضى دون أن ينبث أحدنا بكلمة بل يجلس كل منا أمام أوراق حسب الحروف الابجدية وعليها رموز من أرقام أو حروف فى غير نظام ثم نحاول حل الالغاز جزءا بعد الآخر كجمع وتركيب أجزاء لغز

معقد . وكنا افرادا قليلين فى الغرفة ١٦١٦ وهبنا أنفسنا لدراسة الكتابة السرية كمن يكرس حياته من الشبان ويلوذ بالزهد عند دخول الدير . وكان معلوما للجميع أن سرية عملنا ستكون حائلا دون التعرف المعتاد على المهمات الاخرى . واذ ذاك علمت لاول مرة أن عمل المخابرات ـ كالفضيلة ـ هو نفسه الثوابوالجزاء وحتىفى الوقت الحاضر لايعرف الجمهور الامريكى شيئا عن رجال الطليعة فى الكتابة السرية فى أول عهدهم . ولو أن بعضهم أصبح من المحاربين القدماء الذين ترجع اليهم الانتصارات العديدة خلال الباسفيك . ثم أن الضابط الشاب فى سلاح الطيران الذى أسقط الطائرة التى كانت تحمل ياماموتو ـ أدميرال الاسطول اليابانى نال أرفع الاوسمة التى تستطيع أن تمنحها دولته . بينما الرجال الذين أمدوه بالمعلومات الحيوية التى ساعدته على القيام بعملياته وأولئك الذين كانوا يعملون فى حل الشفرات فى حجراتهم السرية لم يعترف بهم أحد ولم ينالوا شيئا.وكذلك السفن والرجال الذين حولوا تيار موقعة ميدواى واعترضوا أسطول الغزو اليابانى الضخموالحقوا به الهزيمة نالوا من الامة ايات الثناء والتقدير . ونقشت أسماؤهم على جدران التذكار الحربى المقام لابطال أمريكا . بينما تلك المجموعة الهادئة من رجال ونساء التى كانت تقوم باعمال مجيدة غير معترف بها . والتى مهدت السبيل للانتصارات عن طريق قراءة الشفرات اليابانية وفك رموزها . لم تذكر أسماء أفرادها ولم ينالوا شيئا جزاء لجهودهم . وما أشد ما يتأثر الانسان عندما تقترن الكتابة السرية باغفال ذكر القائمين بها . ويتبادر الى الذهن أن المشتغلين فى الغرفة رقم ٢٦٤٦ فى الادارة البحرية كانوا أشبه بالرهبان فى المخابرات يعرفون ويرون كل شىء ولكن لا يتكلمون .

ويبدو لى أن زملائى كانوا غافلين ـ بصورة عجيبة ـ عن الخيال الذى كان يلازم عملهم . اذ كانوا من البسطاء المتواضعين ينهمكون فى اداء واجباتهم دون اعتبار لأى شىء آخر . ويعملون بجد واجتهاد ساعات طويلة . ناسين وجبات الطعام وأيام الآحاد اذا عليهم أن يفكوا رموز لغز بين أيديهم . وغالبا ما كانوا يصلون الى حل لها بعد منتصف الليل فى فراشهم حيث يمعنون فى التفكير فى مشكلاتهم.فيغادرون منازلهم بأسرع ما يمكن وينطلقون الى مكاتبهم حيث يواصلون العمل فى جو هادىء لا يزعجون أحدا حتى يتأكدوا من الحل الصحيح أو حقيقة الطريق المسدود الذى كانوا يسلكونه . ومما يأخذ بالالباب مشاهدة هؤلاء القوم وهم

يعملون أسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر وسنة بعد الاخرى عشرات السنين يدربون أنفسهم ويدخلون التحسينات على فنهم فى جو من السرية التى هى جزء من مهنتهم • وانى آمل أن هذه السطور سوف يعترف بها كتقدير متواضع لهؤلاء الجنود المجهولين من الرجال والنساء ـ جنود المخابرات السرية • وان تكون سببا للفت انظار الامة الى اغفال ذكر أسمائهم بالرغم مما يؤدونه من أعمال مجيدة • وقد أعلنت عنها الصحف الآن ودلت عليها الابحاث •

واصبحت الآن جزء من هذه المنظمة السرية ولى كل الفخر بأن أكون أحد أفراد هذه المجموعة الصغيرة التى لا تذكر اسماء أعضائها • ولكن عودتى الىواشنطون لم تتم دون ملاحظة الرجل الذى كان يراقب كل حركة أتولاها • فما أسرع ما علم اليابانيون بمهمتى الجديدة فى واشنجطون وبذلوا ما فى وسعهم لمعرفة طبيعة واجباتى الجديدة • ولكنهم لم ينجحوا كثيرا فى محاولاتهم حتى زوجتى التى كانت تعلم معظم أسرارى لم تكن تدرى نوع العمل الذى كنت منهمكا فى ادائه مستغرقا معظم أوقاتى • فاذا كانوا يقتفون أثرى ـ مما لا شك فيه ـ فانهم لم يلاحظوا سوى مغادرتى مسكنى فى الصباح الباكر ـ شارع ١٦ ـ متوجها الى الادارة البحرية حيث اختفى بين مئات من الضباط زملائى الذين يهرعون الى أعمالهم • وكنت دائما أتأكد أن ليس هناك من يتبعنى الىالغرفة ٢٦٤٦ • اذ تعلمت من تجاربى فى المخابرات كيف أتخلص من المراقبين وسماجتهم كما كان يفعل بيتر شيلميهل •

فلما فشلوا فى الحصول على معلومات حول مهمتى بالوسائل غير المباشرة لجأوا الى الطرق المباشرة • وبدأوا يرسلون الى الدعوات لحضور حفلات يقيمونها فى واشنجطون • وغالبا ما كنت أنا وزوجتى الغربيين من بين الحاضرين • وكنا نخوض فى المحادثات العامة والطويلة عادة ثم يتقدم اليابانيون ـ وهم ممثلون مبتدئون كعادتهم ـ باستفهامات تناسب الموضوع • واتقنوا اعدادها من قبل فى عبارات ساذجة تبدو كأنها شباك معدة للصيد • وكانت زوجتى تبتسم فى ركن آخر بينما هى « تتلظى » • ولكن اليابانيين الفضوليين لم ينجحوا فى معرفة أى شىء • وليس من شك فى أن فشلهم فى معرفة نشاطى فى واشنجطون لم يكن الا ليزيد من فضولهم • فازدادت الدعوات لحضور الحفلات اليابانية كما احتوت المحادثات على نقط

معينة حتى أصبحت أشعر بأن مثلى كمثل الشاهد غير المختص الذى يجلس فى قفص الاتهام يعانى استجوابات مثيرة يلقيها المدعى العام جزافا . لقد كان شيئا مضحكا .

وفى ذلك الوقت سنة ١٩٢٦ أرسل الى واشنطون ملحق بحرى يابانى جديد . ويدل اختياره لهذا المنصب على الاهتمام المتزايد بالمخابرات اليابانية فى هذه المنطقة . اذ كان الكابتن ايزوروكو ياما موتو الذى كان مقررا له أن يصبح قائدا عاما للاسطول اليابانى المتجمع وهو الرجل الذى ساق اليابان الى الحرب ـ وقد كنت أعرف ياما موتو فى اليابان معرفة سطحية ولو أنى كنت أعلم أنه سيصبح ضمن هيئة أركان حرب البحرية . وكان فنانا متحمسا لامعا فى الحركات العسكرية يهتم أشد الاهتمام بالمشكلات العمليه للاستراتيجية البحرية . وكان مجيئه الى واشنطون يعبر عن تغيير جوهرى فى وسائل المخابرات اليابانية وكذلك من حيث الموضوع الذى كان موضع اهتمام اصدقائنا اليابانيين ـ وحتى وصول ياماموتو كان من سبقوه يركزون اهتمامهم على معلومات عن طبيعة التكتيك ومشاكل فنون المدفعية وتفاصيل صناعة سفننا ونظام المعارك ومعلومات مفصلة عن التقدم الفنى فى أسطولنا . وبدا لنا الان أن مكتب الملحق البحرى فى واشنطون لم يعد يهتم بالمعلومات الفنية والحركات العسكرية . وفجأة قفزت المشاكل العملية فى اطار الاستراتيجية العليا الى قمة الموضوعات المدرجة بجدول أعمال اليابانيين .

وقد أدركنا هذا التغيير وأخذنا نسعى لمعرفة السبب الذى دعا اليابانيين للانتقال من التكتيك الى الاستراتيجية ، واستنتجنا فى النهاية أن ذلك راجع الى مدى ذكاء ياماموتو ومجال اهتمامه الخاص الذى أصبح يسيطر الآن على عمل المخابرات اليابانية فى الولايات المتحدة . لأن شئون التكتيك أصبحت من مهمة عملاء المخابرات الذين هم فى مستوى أقل نوعا .

وأما الملحق البحرى فكان اهتمامه بأمور أجل شأنا . اذ كان يهتم بالحرب .

وكنت أشعر دائما ـ بعد تعيين ياماموتو قائدا عاما للاسطول اليابانى المتجمع وقائد البحرية اليابانية مدة الحرب ـ بأن الخطط الاول للهجوم على

بيرل هاربر هو الذى وضع أسسها فى ذهنه المضطرب أثنـاء وجوده فى واشنطون • اذ كان من تلك المجموعة الصغيرة من ضباط البحرية اليابانية الذين كانوا يعارضون اتفاقية واشنطون لتحديد القوات البحرية أشـد المعارضة • وكان الدافع الى معارضته هو محاولة تصفية حاملات الطائرات • وكانت الفقرة الرابعة من الاتفاقية تنص على أن حاملات الطائرات تعد من السفن الحربيـة (بغـاطس يزيد ١٠٫٠٠٠ طن « ١٠٫١٦٠ طن فرنسى » وهو مستوى الغاطس المصمم والمستثنى كحاملات الطائرات) • وكانت اليابان لديها سفن تزيد عن هذا المعدل بعضها قد تم بناؤه والبعض الآخر فى طريق الانشاء — وكان ياماموتو هو القوة المحركة للموافقة على زيادة عدد حاملات الطائرات فى الاسطول اليابانى • ولما كان من أبرع واضعى الاستراتيجية فقـد أدرك — حتى فى تلك المرحـلة الاولى من تطور القوة الجوية — أهمية حاملات الطائرات وأزعجه أن يرى احلامه التى كان يتلهف على تحقيقها قد بددتها معاهدة واشنطون • ولم يغفر لنا مطلقا اصرارنا على تصفية الحاملات اليابانية الاربع • فقد كانت هذه الحاملات محط آمالـه ومركز طموحه وخططه •

ولو أنه كان معينا فى قيادة الطرادات وخدم فيها فترة قصيرة الا أنه كان دائما على صلة وثيقة بالطيران البحرى اليابانى طيلة مدة خـدمته • وفى الولايات المتحدة أيضا كان يشغل نفسه بالامور التى تربط بين القوة الجوية والقوة البحرية على مستوى عملى عال • ومن أول وقت وصوله الى واشنطون اطلعت على بيان تاريخ حيـاته الذى جمعتـه ادارة المخابرات البحرية على مر السنين ووجدت أنه ولد بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٨٨٤ فى مدينة ناجواكا باقليم ساجـا وهو الابن السـادس لتيكيشى تاكانو • ويحتمل أن يكون ولدا بالتبنى • اذ كانت عادة التبنى مألوفة فى اليابان، ودخل البحرية سنة ١٩٠١ وتخرج فيها سنة ١٩٠٤ • حتى سنة ١٩١٥ رقى الى كومادور ومساعد لوزير البحرية • وكان مثلى طالبا للغات وقضى فى الولايات المتحدة وانجلترا عدة سنوات وأصبح يتحدث اللغة بطلاقة • وكانت صفاته فى بطاقة المخابرات على أنه « رجل قدير بصفة استثنائية • قوى الارادة • وحاضر الذهن سريع البديهة » • ولم يطل بى الوقت لكى أتأكد من دقة هذا التحليل •

وذات ليلة عند عودتى الى المنزل بعد عمل شاق طوال الليل تلقتنى زوجتى بانبـاء دلت على أن الرأس المدبرة كانت تقتفى أثرى • فبعـد أن

فشل أولئك البسطاء في معرفة طبيعة واجباتى وازداد اهتمامهم لما فشلوا أيضا فى الاتصال بى بالادارة البحرية بطريق التليفون · اتصل ياماموتو بشفتى وتحدث الى زوجتى أخيرا · ودعانى الى حفلة فى مقر اقامته الذى كان يشتمل على مسكنه فى الوقت نفسه · وبالرغم من أنه متزوج وله ابنة فقد ترك زوجته وابنته فى طوكيو واقام حفلات التكريم دون وجود مضيفة فى منزله · ولم يتبع الطرق الفنية التى اتخذها من سبقوه فى استخدام النساء للتسلل للوصول الى المعلومات ، وكانت حفلاته تضم فى العادة ضباطا من الرجال فقط معتدلين فى تناول الخمر ـ محتفظين بكرامتهم ولكنهم يقترحون دائما اللعب بالورق الذى كان مغرما به ويلعب بمهارة فائقة · وكان الحفل الذى دعانى اليه يضم أيضا ضباطا من الذكور فقط ومباراة للعب الورق · وكان البوكر هى لعبته المفضلة التى يلعبها فى تصميم ظاهر كما لو كان يريد التغلب علينا قبل أن يستطيع أن يهزمنا فى الحرب · وكنت أعلم أنه بطل مشهور فى لعبة Go (الشطرنج اليابانى) المعتاد ممارسته فى البحرية اليابانية كما كان يربح دائما فى لعبة البوكر · وكان زملائى فى الدراسة يأسفون لانى لم أكن متراخيا فى هذا المضمار · وفى هذه اللعبة التى توفر وقتا مناسبا وفرصة للتحليل الخلقى كنت أهتم كثيرا بما ينطبع فى نفسه عندما يحاول التمويه أو يرى خصمه يحاول مراوغته · وعلى النقيض من معظم اليابانيين الذين يشعرون بالضجر والخجل عندما يخسرون فى اللعب حتى فى مباراة الورق التى لا ضرر منها وتبدو عليهم عادة مظاهر الاحراج · فان ياماموتو كان يقدر كل محاولات تبذل لهزيمته · ووجدت فيه رجلا يميل الى التحدى والنزال السافر ·

وعندما دخلت شقته وجدت نفس الرجل كما كان منذ سنين مضت · رجل قصير القامة قوى البنية بحواجبه السوداء وشعره القصير · وكانت ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة فى تواضع ظاهر · ولكن طبيعته العدوانية كانت تطل من وراء هذه الابتسامة · وفى الحال قدم الينا مشروب الكوكتيل وتلاه طعام العشاء الذى كان مزيجا من أطعمة يابانية وأجنبية · واتضح لنا غرامه بتلك اللعبة التى تجمع بين المخابرات ولعب الورق عندما انتهى العشاء واعدت المنضدة فى الحال للعب البوكر ثم دعانا للاشتراك فى اللعب · وسرعان ما بدأ يداور ويروغ فى اللعب الذى كان يتخلله بعض استعلامات طفيفة يعرضها باسلوبه البحرى الواضح ·

وفي اجتماعاتنا التالية كان دائما يحاول أن يجمع بين هوايتيه المفضلتين • وكان الامر يحتاج لبذل مجهود كبير لهزيمته فى كل منهما • وكان ياموماتو له في يده اليمنى ثلاثة أصابع فقط على أثر انفجار على ظهر احدى السفن خلال موقعة تسوشيما عندما كان يعمل حاملا للعلم على ظهر سفينة القائد توجو « ميكاسا » • ووجدت أنه مما يحيرنى ملاحظته وهو يقلب الاوراق فى مهارة غير عادية بأصابعه الثلاثة الباقية ـ وشعرت بأنه كان واعيا لحيلته هذه وأخذ يؤكدها باستخدام اصابعه الثلاثة بطريقة سحرية وكان يقهقه ضاحكا كلما تلقى مجاملة لما يبديه من المهارة •

والغريب أن هذا الرجل الذى كان لا يؤمن بمهاجمة المواقع حيث تكون المقاومة ضعيفة نوعا ما دعا الى منزله قوما جابهوه فى ميدان المخابرات ولعب الورق • ولست أدرى ما هى المعلومات التى استطاع أن يحصل عليها منا • ولكن الشىء الذى اعرفه هو اننا تغلبنا عليه فى لعب البوكر وعلمنا منه الشىء الكثير وعلى الاقل آراءه حول الاستراتيجية البحرية • وخلال هذه الاجتماعات أدركت لاول مرة اتجاه اليابان من حيث تطوير بحريتها • كما أدركت أن حاملات الطائرات والجميع بين القوة البحرية والقوة الجوية كانت فكرة ثابتة فى ذهن ياماموتو •

وكان انهماكه التام فى مسائل العمليات الحربية يثير فى الواقع اهتمامنا بالافراد الذين عهد اليهم بالمهمة الاخرى من المخابرات التكتيكية لولا أننا تتبعنا أوجه نشاط كثير من تابعيه • فلم يكن من الصعب التعرف على العملاء الذين انتدبهم ياماموتو للقيام بتلك المهمة • وبعد الحرب بقليل • عندما بدأت اليابان برنامجها للمنشآت البحرية • فتحت المكاتب فى نيويورك لشراء التصميمات الجديدة والترخيصات اللازمة من مصانعنا للسير قدما ببرنامج الانشاء عن طريق الحصول على المخترعات الامريكية من الاسواق بصورة علنية • وكان من عادة هذه البعثات الشرائية أن تشترى انموذجا واحدا من كل سلعة سواء كانت طائرة أو آلة تقدر المسافة أو جهاز مراقبة النيران • وكان هذا الحذر والاقتصاد فى مشترياتهم هو الذى لفت نظرى الى هذه الناحية • وحاولت شخصيا أن أحرض أصحاب المصانع لكى يمتنعوا عن بيع انموذج واحد من كل شىء •

وقلت لهم « اذا كنا نرغب فى البيع اطلاقا فلندعهم يدفعون مبالغ كبيرة لكل تصميم جديد ضعوا شروطا ينص على وجوب شراء مائة من كل صنف اذا كانوا فى حاجة اليه » • ولكننى لا أتذكر أنى نجحت فى اقناع

أصحاب المصانع بحكم الاشراف على مقدرة اليابان الفنية . باستنزاف مبالغ جسيمة من اعتماداتها المالية المحدودة . حتى فى مستهل حرب الباسفيك أظهروا غيرة على أعمالهم ومصالحهم لم تكن فى موضعها . بأن باعوا لليابانيين سلعة واحدة من كل صنف بما فى ذلك من آخر تصميمات لطائرة سرعان ما اشتركت فى القتال تحت اسم يابانى ضد رجالنا .

ثم أن ابتعاد ياماموتو عن المخابرات التكتيكية زاد من احتمال أهمية وكالات المشتريات فى نيويورك كما كان يبدو فى نظرى – واتسعت دائرة اهتمامنا فشملت وكالات مماثلة : مكتب المشتريات للجيش ومكتب « معلومات عن الحرب » ومكتب اليابان للسياحة . وأخذت المخابرات البحرية فى مراقبة هذه المكاتب وعلمت الكثير عما كان يجرى بين جدرانها. وفى الواقع عندما بدأت أناقشها فى الادارة علمت أن القيادة العليا قد وضعت الخطط لاغلاق هذه المكاتب باعتبارها أوكار للجاسوسية اليابانية. فدهشت كثيرا لهذا الاقتراح وطلبت الاذن لى بمناقشته مع ضابط كبير .

وقال لى أحد الضباط فى مكتب أمامى : « أن هؤلاء اليابانيين يظنون أنهم يستطيعون اخفاء أى شىء . فهم لا يستخدمون هذه المكاتب « كصناديق للبريد » (يستخدمها عملاء متنوعون لارسال تقاريرهم) فحسب . بل أيضا كمراكز لنشاط المخابرات فى الميادين الفنية » .

فسألته « وكيف علمت ذلك ؟ » .

وأجاب « انى أعلم بها . ولن احتمل هذه الالاعيب اكثر من ذلك . وسوف نضيق عليهم الخناق قبل أن يستفحل الامر ويفلت الزمام من أيدينا » . وفى الحق كان لدينا نظام محكم لمراقبة نشاط الذين يترددون على هذه المكاتب بصفة زوار . وكذلك مراقبة مستخدميها . وكان منهم أفراد قليلون يشغلون أماكن فى تلك الغرف الفسيحة التى كانت مجهولة لمخابراتنا المضادة . فقلت له عندما قص على تفاصيل ترتيباته « أتقصد حقا أن تقضى على أفضل مصادر لديك لجمع المعلومات عن أوجه نشاطهم ؟ هذه ليست مخابرات مضادة . هذه آخر وسيلة للتخلص منهم . فطالما ظنوا أننا غافلون عنهم وأنهم فى امكانهم ممارسة مخابراتهم العلنية والفنية فنحن فى أمان . أليس كذلك ؟ دعهم يلهون بألاعيبهم الصغيرة . وعلى كل حال لن يستطيعوا أن يلحقوا بنا أى ضرر مادمنا على علم بما يصنعون ويبدو أننا نعلم عنهم شيئا كثيرا » .

وفى المخابرات يقولون قولا حقا انك اذا أعطيت الخصم حبلا كافيــا فكن على يقين من أنه سيشنق نفسه ٠ وفى الغالب قد يسمح للعميل أن يواصل نشاطه ويبدو له أن ليس هناك من يتدخل فى شئونه لمدة قد تطول من خمس الى عشر سنوات ــ ويكون طيلة هذا الوقت تحت المراقبة الدقيقة مع فحص ومراجعة المعلومات التى يحصل عليها وملاحظة كل حركة من حركاته وتسجيلها ٠ وبهذه الوسيلة يمكن التعرف على شخصية العمــلاء الاجانب وخاصة البارزين منهم وحتى المنظمات بأكملها ٠ وما دام العميل يقوم بتوريد المعلومات التى يطلبها رؤساؤه فهو عادة يبقى فى عمله وتكون مراقبته سهلة بسبب استمراره فى مزاولة نشاطه ٠ حتى اذا ســحب العميل وحل محله آخر كان من الصعب على المخابرات المضادة تحديد مهمة العميل الجديد ووضع نفس المراقبة التى كانت مفروضة على ســابقه ٠ فان عشرة من العملاء القدماء هم فى العادة أقل خطرا ــ بصرف النظر عن كمية المعلومات التى يحصلون عليها ــ من عميل جديد واحد لا تعــلم مخابراتنا المضادة شيئا عن شخصيته وأوجه نشاطه ٠

وبعد مناقشات طويلة ومجادلات منطقية تمكنا من اقنــاع القيــادة العليا بحكمة عدم اقلاق هذه الخلايا الدقيقة التى أقيمت تحت ستار بعثات شرائية ٠ وبدلا من ذلك رسمنا الخطط لكى « نزودهم » بالمعلومات الحيوية التى يطلبونها ويسعون اليها حثيثا باعداد أنفسنا لتلك المبــاراة الخلابة « العميل المزدوج » التى كان علينا أن نلعبها ــ على نطاق واســع ــ فى معارك حرب الدهاء ٠٠٠

١٠

هجوم مفاجىء عن طريق الراديو

في منتصف صيف سنة ١٩٢٦ كنت قد ألممت الماما كافيا باسرار الكتابة السرية وطريقة ياماموتو فى لعب البوكر مما ساعدنى على انهاء فترتي البالغة السرية في وشنجطن وتطبيق معلوماتي الجديدة بصورة عملية • وفى الواقع كنت مشتاقا لترك جو وشنجطن الهادىء الرزين وما فيها من عمل رتيب بطىء • وحفلات متواصلة مما أدى بى الى الشعور بالملل • ولم يكن لليابانيين نشاط كبير ليخفف من هذا الشعور بالضجر • وفي ذلك الوقت كان ياماموتو ذاته يعاني فترة من التفكير العميق • اذ كانت حياته في مفترق الطرق • وكان يحاول أن يقرر أى طريق يسلكه • واحدى هذه الطريق كانت تؤدى الى السلام بوضع البحرية اليابانية فى حالة ركود بالرغم منها • بينما كانت الدبلوماسية اليابانية تجرى مناورات لتحديد مركز اليابان • ولم يكن الطريق الآخر سهلا اذ كان يحتاج الى اللف والدوران ووسائل الانذار مما يؤدى فى النهاية الى حرب لا مفر منها• وقد أجريت عدة محادثات مع ياماموتو وعلمت منه أنه كان على يقين من اختيار اليابان لطريقها • ووجدت أنه يميل الى منح الدبلوماسية فرصة ليرى ماذا تستطيع أن تصنع دون الالتجاء لاستعمال القوة • ولكنه كان فى نفس الوقت لا يستقر على حال • اذ كان يرغب فى الحصول على الكثير وفي وقت قريب دون انتظار البت في الامور عن طريق التبادل المعتاد للمذكرات الدبلوماسية بلهجاتها المعتدلة المهذبة •

وكان موضوع السلام أو الحرب هو الذى يدور بذهنه المتيقظ خلال جولته الاولى فى وشنجطن • حتى اذا انتهى به الامر ليكون ملحقا بحريا بدا أنه يميل الى ناحية الحرب أكثر من رغبته فى السلام • وكان يعلم أنه لا يزال بعيدا عن منصب كبير يستطيع فيه أن يكون له تأثير على السياسة وأن يفرض آراه على الهيئات العليا التى تدير السياسة اليابانية • وقر رأيه على أن يسرع فى رفع مركزه بالكشف عن خططه كما سنرى فيما بعد •

وفي صيف سنة ١٩٢٦ تقرر تعييني ـ بصورة محددة ـ في المحطة الاسيوية كضابط في المخابرات متخصص في أبحاث الكتابة السرية ٠ وكان تعييني هذا بمثابة خطوة طويلة الى الامام في مخابراتنا الايجابية ضد اليابان ٠ وكانت المحاولة الاولى لاختراق الستار الذى كانت اليابان تأمل أن تخفي وراءه أسرار أساطيلها ٠ وقررنا أن يكون الاختراق من مسافة بعيدة بالاستماع الى المحادثات التى تدور فى اذاعات السفن اليابانية ومحاولة الحصول على نماذج معينة من رسائلهم السرية ٠ وترددنا فى لفت أنظار اليابانيين بأن عهد الى بمهمة مستترة أو بتأدية واجب يبدو ـ فى الظاهر على الاقل ـ أنه لا مبرر له ٠ وبموافقة أدميرال هيبرن الذى كان رئيسا للمخابرات البحرية فى ذلك الوقت اختارنى القبطان جالبريث كي أقوم بوظيفة من وراء ستار وعينت فى قيادة المدمرة « ماك كورماك » ولو لبضعة أشهر ريثما أعد نفسى لمهمتى الحقيقية ٠

فالتحقت بسفينتى الجديدة فى شيفو وسرت بها مجتازا بحر الصين الى هونج كونج ٠ وأينما توقفنا كنا نجد المكان زاخرا باليابانيين الذين جاءوا الى الصين طبقا لنظام الهجرة المعتادة للتخلص مما سموه تضخم عدد السكان فى جزرهم الصغيرة ٠ وفى الواقع كانوا رأس حربة للغزاة القادمين وراءهم عبر البحار ٠ وبقيت فى هونج كونج بضعة أيام مع زوجتى وولدى ثم واصلنا السير الى مانيلا حيث بعد قليل قمت برحلة الى الفلبين الجنوبية وأتيحت لى فرصة لفحص هذه الاماكن التى كانت فيما بعد مراكز حيوية لغزونا المقبل ٠ وكان من الواضح أن اليابانيين كانوا مطمئنين لوجودهم فى الفلبين يبذلون ما فى وسعهم للتودد الى المواطنين هناك ٠ وفى تلك الأيام كان أهل الفلبين يردون الصداقة بمثلها ٠ وكان المراقب العادى لا يستطيع أن يتوقع أنه سيأتى يوم يتحول فيه جو الصداقة الى عدوان مر وأن أهل الفلبين المعجبين باليابانيين سوف يحاربون ضيوفهم السابقين بعصابات لا عداد لها ٠

وقد تبينت لى مقاصد اليابان فى الفلبين عندما جئت الى مانيلا لاول مرة منذ ثلاث سنوات ٠ اذ جاءت فرقة للتدريب تحت قيادة نائب الادميرال س٠ سايتو Saito فى زيارة ودية ٠ وكنا منهمكين فى استقبال ضيوفنا بالطريقة المعتادة حسب اداب السلوك المتبعة دوليا ٠ وفى ٣٠ نوفمبر ٠ فى الساعة الثامنة صباحا وصلت سفينة القيادة ياكومو

الى الميناء حيث أطلقت المدافع تحية لها • وقضينا اليوم فى احتفالات رسمية بزيارة جنرال ريد والادميرال مارفل للقائد اليابانى سايتو ثم زيارة الادميرال اليابانى للحاكم العالم والاميرال وشنطن • واستمرت الزيارات طول يوم أول ديسمبر يتبعها حفلات استقبال ودعوات للعشاء والتدخين ونزهات الى الريف بما فى ذلك زيارة الى آثار ياهاجى فى سان بدور ماكاتى • وكنت طول مدة اقامتهم أراقب اليابانيين بعين فضولية وخاصة علاقاتهم بالسلطات المحلية • وشعرت بأن الصداقة التى أبدوها لمانويل كويزون كانت تنطوى على شيء كثير من المبالغة كما كانوا يقصدون التأثير عليه بما لهم من أهمية وبما لديهم من قوة • وعن طريق مانويل يكون التأثير على أهل الفلبين •

وحدث أن عينت مرافقا للادميرال سايتو وبذلك تمكنت من ملاحظة مجريات الامور فى الجانب اليابانى • فتبين لى أنه رجل لطيف المعشر يستمتع بما يحيط به من احتفالات وتكريم • وبدا لى أنه سعيد باستخدام البحرية فى زيارات ودية أفضل من استخدامها فى الحروب • وحتى فى هذا الجو الودى تمكنت من اكتشاف خطة ظاهرة وقررت أن أضع تقريرا عن ملاحظاتى • ثم تذكرت المصير المعتاد للتقارير التى تكون قبل أوانها • وأدركت أن التحذيرات لن تحقق أغراضها اذا كانت الاذهان غير معدة لتقدير التوريطات المحتملة • ولكن لابد من وضع شيء لاثارة الشعور بالاشتباه فى تخطيط اليابانيين • فبدلا من كتابة تقرير واقعى اعددت قصة عند عودتى فى سنة ١٩٢٦ توضح رأيى فى صور الاحداث المقبلة • وكان عنوانها « ياماناكا الحاكم العام للفلبين » • كما وضحت فيها الحركات المتوقعة من اليابانيين لبسط نفوذهم على الجزر ووضع حاكم يابانى بعد اخراج الحاكم العام الامريكى •

ثم أن المشهد الذى تخيلته فى سنة ١٩٢٦ تحملت منه عبئا ثقيلا على توالى الايام كان سلسلة من الاحداث تلت بعضها بعضا فى سرعة البارود المنطلق • فقد كان حنين الفلبين الى الاستقلال مركزا لجميع الدوافع • وأشرت فى قصتى الى أن الفلبين قد تمنح استقلالها عاجلا فى خضم أفلاس الاسواق التجارية الذى نجم عن انخفاض نسبة التقديرات التى لم تعد من قبل • ومن ثم فان هذا الاستقلال سوف يؤدى بالفلبين الى عزلة لا معدى عنها وهى فى شدة الحاجة الى تجارة ما وراء البحار •وفى هذه المرحلة توقعت

أن يوسع اليابانيون دائرة نشاطهم بالصيد فى الماء العكر • كما يفعل المعتدون عادة لتوسيع هوة الفوضى لنشر دسائسهم ومكائدهم • ووصفت ياماناكا الخرافى هـذا بأنه رأس الطابور الخـامس اليـابانى فى الفلبين يستغل المواقف الحالية •ثم يخلق مواقف أخرى جديدة حتى تصبح الفلبين لقمة سائغة فى يد اليابان • ولا يستطيع أحد أن يقول أن اليابانيين لم يحاولوا تنفيذ ما تخيلته فى سنة ١٩٢٦ • فاذا كان نصيبهم الفشل فلم يكن ذلك راجعا الى توانيهم بل الى حكمة الرئيس روزفلت فى معالجة موقف الفلبين والى قرار أهل الفلبين أنفسهم بالوقوف بجانب الولايات المتحدة فى السراء والضراء •

أرسلت القصة لاخى لمراجعتها واذا كان من الممكن الانتفاع بها فى مجلة « اتلانتيك » الشهرية ولكن معلوماته القانونية دلته على التورطات التى تضمنتها القصة مما يؤدى الى التحامل على ضابط فى البحرية لا يعبأ بالاخطار الجسيمة التى يتعرض بها الامن القومى اذ ذاك • فلما أعـدت قراءتهـا تزاحمت الافكار فى ذهنى ورأيت أن وجهة نظر اليابانيين فى زيارتهم للفلبين كانت تخفى وراء ستار خفيف من السرور وآيات التكريم فى ذلك الوقت • وفى نظر بعضنا كانت زيارتهم دليلا على رحلة تفتيشية لفحص الاراضى التى يقصدون العودة اليها بصورة عدوانيةفى وقت قريب• ووجدت أن اليابانيين المقيمين فى مانيـلا يهرعون لتحية مواطنيهم ومن حماسهم الذى لا حد له تبين لى أنهم سوف يصبحون « ضباط تموين » Quartermasters فى الغزو المقبل • وخلال الايام الخمسة من زيارة القوة البحرية كان مثل أفرادها كمثل المشترى الذى يفحص المكان ومحتوياته التى لا تزال فى حيازة المستأجر القديم • فكان اسرافهم فى تصرفاتهم يبعث على الشعور بعدم الارتياح ولو أن هذا الشعور كان واضحا • وهم بطبيعتهم يميلون الى التسرع وطابعهم الادراك ومضايقة الغير •

وأصبح وجودى فى الاسطول الآسيوى له ما يبرره ولم تعد هناك حاجة لاخفاء مهمتى • وعلى ذلك نقلت الى سفينة القيادة فى حركة بدت أنها اجراءات معتادة • وكان على أن أنصح القائد العام حول بعض أوجه نشاط خاصة وأراقب شئونا معينة على الشاطىء • وأصبح اليـابانيون الذين كنت ألقاهم يعتقدون أن مهمتى كان أغلبها فى الناحية الاجتماعية كعملى السابق عندما كنت مرافقا للاميرال اليابانى •

وعلى أى حال كان لابد أن أشرع بجد واهتمام فى عملى الذى تدربت عليه تدريبا دقيقا خلال الاشهر السبعة التى قضيتها فى الغرفة ٢٦٤٦ فى مبنى البحرية بوشنجطن ·

وكان الموقف السياسى فى الشرق الاقصى يتطلب العجلة ــ اذ كان جنرال شيانج كاى ــ شك قد بدأ يزحف نحو الشمال · وكان لا يزال حليفا للروس الذين ساعدوه حتى وصل الى هانكاو · ومن بين أركان حربه خمسون من المستشارين الروس من بينهم كبار القادة من السوفييت أمثال بورودين · وبدا أن النصر الذى حققه قد ملا القائد الصينى ثقة بنفسه واقنعه أنه فى استطاعته أن يواصل تقدمه دون مساعدة الروس · وفى حركة مفاجئة كانت سببا فى الاطاحة بخطط الروس فى الشرق الاقصى لمدة عشرات السنين والاخلال بالبرنامج القديم الذى وضعه لينين فى عناية واحكام · قطع شيانج كان شك علاقته بالروس وطرد المستشارين الروس ليلا بطريقة غير رسمية · وكذلك مرافقيه منهم · فأصبح الموقف فى الشرق الاقصى يسوده جو من التوتر · وأمرنا فجأة بالتوجه من مانيلا الى شنغهاى لترقب ما قد يحدث من تطورات نتيجة للحركة الجريئة التى قام بها الجنرال · ولم تكن هذه الرحلة تشكل تدخلا خطيرا فى خططى الخاصة التى وضعت قواعدها كاملة فى مانيلا · بل على النقيض رحبت بالانتقال الى محور ارتكاز الحركات السياسية والعسكرية اذ استطعت أن أبدأ عملى فى مركز الخطورة ــ شنغهاى · وكانت مهمتى مقصورة على الاشراف على نقطة استماع فى محطة اذاعة أمريكية فى شنغهاى · التصنت على الاتصالات اللاسلكية اليابانية بين مقر القيادة فى طوكيو وبين الاسطول فى البحر · وتقدير أية معلومات اتمكن من الحصول عليها بهذه الوسيلة وحل رموز الرسائل السرية ·

وسرعان ما وجدت محطة الاذاعة المطلوبة لهذا الغرض ، وقد أقيمت فى الطابق الرابع من مبنى القنصلية الامريكية أمام أستور هاوس وهو أفخم فندق فى مدينة شنغهاى · ولم تكن المحطة نفسها يحيط بها شىء من السرية اذ كانت البحرية تستخدمهاعلنا ليكون القائد العام والقنصل العام على صلة بمختلف الهيئات فى جميع الاوقات · وكانت لكل الدول الاخرى محطاتها الاذاعية بناء على ترخيص خاص ــ وبها دون شك من يقومون بالتصنت أيضا ·

وفى أول يوم قمت فيه بالتفتيش تبين لى فى الحال أنها كانت محطة علنية فى الواقع • فلا يمنع الزوار من دخول الطابق الرابع من المبنى • كما يتردد كثير من اليابانيين على المكان يؤدون خدمات صغيرة شخصية لرجال اللاسلكى • أو يحضرون فى زيارات ودية • ولم يكن من الحكمة التدخل فى شئون هذا السيل من الزوار فى الحال اذ يلفت الانظار الى التغير المفاجىء من نشاط علنى الى آخر سرى • ولكن عندما أصبحت شخصيا « زائرا » منتظما تغير طابع الزوار اليابانيين فجأة• فأصبح يتردد على المكان فتيات يابانيات على جانب من الجمال لزيارة عشاقهن أثناء ساعات العمل • وبدا لى انهن يخترن الرجال الذين يعملون معى بخاصة ، وأزعجتنى هذه الزيارات الغرامية المطردة داخل وحول محطة الاذاعة فقمت بتحريات دقيقة عن هؤلاء الفتيات وتأكدت من علاقتهن بالمخابرات اليابانية وارتباط ذلك بأوقات السرور مع رجال الاذاعة • وعلى ذلك كان من أول واجباتى القاء محاضرة شاملة على الرجال حول الامن كانت نتيجتها قطع العلاقات مع البنات وغيرهن من الزوار تدريجيا وبصورة تلقائية • وتعلم الرجال فضائل الخداع فى المخابرات ولم تكن هناك صعوبة كبيرة فى حثهم على التخلى عن ملاذهم • ووضعنا خطة محكمة لاخفاء المحطة عن أنظار الضيوف غير المرغوب فيهم وخاصة عندما يحين وقت العمل •

ومن التقارير التى تصدر والرسائل التى نعترض طريقها ومن المذكرات العاجلة من ملحقنا البحرى فى طوكيو علمنا أن اليابان ترسم الخطوط لتوسيع نشاطها البحرى من تدريبات عادية الى اجراءات واسعة النطاق فى الاسطول • ودلت الرسائل التى تراكمت لدينا يوما بعد يوم والتى اعترضنا سيرها ثم قمنا بفك رموزها فى شنغهاى على أن الوقت قد حان لاجراء المناورات السنوية للاسطول اليابانى ولم يتبق سوى فترة وجيزة • وتدل كل العلاقات على أن المناورات فى سنة ١٩٢٧ سوف تتسم بمظاهر الطموح • وكنت استمع من نقطة تبعد كثيرا عن مسرح الاحداث ولم أكن آمل فى الحصول على معلومات كثيرة مما كنت التقطه من الرسائل التى تجرفها الرياح الى أعمدتنا اللاسلكية فى شنغهاى • فكان من الضرورى نقل سماعاتنا ودفاتر الاشارات الى مركز خلية النحل اليابانية على سطح الماء • وكنا نأمل بهذه الطريقة عن الحصول على نموذج من التكتيكات البحرية اليابانية باتباع تمريناتهم السرية عن طريق هجوم مفاجىء من

الاذاعة ٠ وأعدت الخطة لهذه العملية فى تفصيلات واسعة المدى ٠ وكان أملنا أن نلتقط جميع الاوامر والتعليمات وكذلك التقارير المرسلة الى سفينة القيادة والتى تبين مقاصد أولى الامر ٠ ومن هذه المعلومات توقعنا أن نحصل على مواد كافية لرسم خطة دقيقة كاملة للعمليات اليابانية ٠ وأن نكتشف الاهداف التى يريدون تحقيقها أنفسهم ٠ ثم الجمع بين وسائلهم وسائلهم العملية وشئونهم السرية التى لا تتوفر للمراقبين لديهم الذين يؤذن لهم بالاطلاع على القليل من الشئون الداخلية الحقيقية فى الممر الضيق المؤدى الى سفينة القيادة اليابانية ٠

فمن الواضح أنه كان علينا أن نتحرك الى مركز الاذاعة فى الاسطول اليابانى المتباعد للحصول على هذه المعلومات ٠ ولكن كيف يتسنى لنا ذلك ؟ وبعد عقد مؤتمرات طويلة وضعنا الخطة ٠ بأن انتقل الى احدى سفننا وابحر بها مباشرة الى المياه اليابانية كما لو كنت مشتركا فى رحلة بحرية روتينية وغافلا عما يجرى هناك ٠ وكان وجودى فى السفينة لابد أن يكون مجهولا للجميع كما كانت بعثتى بأكملها التى لا يدرى عنها أحد سواى والقائد العام والملحق البحرى فى طوكيو ٠ وكانت السفينة التى وقع عليها الاختيار للقيام بهذه العملية هى نفس الباخرة ماربلهيد التى وقفت بعد أقل من عشرين سنة بشجاعة فائقة نادرة فى وجه الهجوم الوحشى الذى شنه أكبر أساطيل اليابان وعادت بعد أن تكبدت خسائر فادحة ٠ وعندما قرأت عن حرب البطولة التى خاضتها الباخرة ووصولها الى حوض البحرية فى فيلادلفيا سنة ١٩٤٣ تذكرت الايام فى سنة ١٩٢٧ عندما نقلتنى فى أول مقابلة لها مع الاسطول اليابانى وشعرت بالعطف عليها وتقديرى لها عندما تصدت للاسطول لثانى مرة بنفس المهارة والتفانى فى أداء الواجب كما حدث فى المرة الاولى ٠

ولم نشعر بقلق حول تدخلنا فى شئون اليابانيين الخاصة اذ كنا نعتبر أن دخول سفننا فى المياه اليابانية ليس الا ردا لزيارة كثير من ناقلات الزيت اليابانية التى كانت تظهر فجأة أمام أسطولنا فى عملياته التدريبية ٠ حتى بالقرب من هواى حيث كنا نجرى معظم تمرينات أسطولنا كنا نجد الناقلات اليابانية تظهر فجأة فى أى مكان بحيث لم نكن نتوقع وجودها فيه ٠

واستطعنا أن نتصور ما سيصيب أصدقاءنا اليابانيين من الدهشة والكدر عندما يكتشفون فجأة ـ خلال النظارات المكبرة ـ سفننا أجنبية . وحتى اذا كان الامر كذلك فانهم لن يدركوا أن هنـاك موظفين مختصين يجلسون فى حجرة الاذاعة يستمعون الى رسائلهم ومحادثاتهم .

وعلى أى حال ففى مساء يوم رحيلى كان هذا السر الدفين قد أذيع على العالم تقريبا . فقد كانت زوجتى تحضر مع مجموعة من سيدات شنغهاى فى حفل شاى فى النادى الفرنسى واذا بزوجة أحد الضباط تسألها :

« هل تعتزمى مرافقة زاك فى رحلته الى اليابان ؟ » .

وبدت على وجه كلير دهشـة طبيعية اذ لم يكن لها علم بسـفرى الى اليابان أو أية جهة أخرى . فيما يتعلق بمهمتى التى كانت سرية للغاية . وبطبيعة الحال لا أستطيع أن أناقشها مع أى شخص . حتى انى لم أكاشفها بموضوع رحيلى المنتظر وكنت أقصد أن أخبرها بأنى ذاهب فى رحلـة قصيرة تتعلق بالعمل . وعلى ذلك أجابت على هذا السؤال المفاجىء فى ثقة تامة :

« ولكن زاك لن يقوم برحلة ما . وبالتأكيد ليس الى اليابان » .

وأصرت صديقتها على أنى مسافر فى رحلة وأن اليابان مذكورة فى خط سيرى . وكان هذا كثيرا بالنسبة لزوجتى . فغادرت الحفل وأسرعت الى المنزل لسؤالى كيف أخفى عنها أنبـاء قد انتشرت فى جميع أنحـاء المدينة » .

وسألتنى فى لهجة كما لو كانت قد عثرت فى جيبى على خطابات تفوح منها رائحة العطر « زاك ! ما هو موضوع سفرك الى اليابان ؟ .

فقلت متظاهرا بالدهشة : « أنا ذاهب الى أين ؟ » .

« الى اليابان . لقد أخبرتنى ماجورى بكل ما فى الامر . ومهما كان سرك قليل الاهمية . فليس هناك ما يدعو لاخفائه عنى أكثر من ذلك » .

وانفجرت قائلا « أخبرتك مارجورى بكل ما فى الامر • أليس كذلك ؟ حسنا • أن هذا لامر خطير • ولابد من فعل شيء فى هذا الصدد يا كلير • ولابد من وضع حد لثرثرة هذا المرأة » •

وبدأت فى الحال فى البحث حول تسرب هذا النبأ قبل أن يكون له أثر على بعثتى • ولم يكن من الصعب معرفة طريقة حصول مارجورى على معلوماتها • فدار بخلدى أنه فى احدى فترات الركود التى يضيق بها أعضاء مكاتب الاتصالات فى هذه السفن قامت سفينة زوجها بفك رموز الرسائل التى مرت بين طوكيو وشنغهاى اعتبارا لمهمتى المستقبلة ، وهو لكى يبقى زوجته على دراية بالانباء أخبرها بهذا ودعوت الضباط المسئول عن هذا الاخلال الفاضح بالامن وبعد مناقشة قصيرة تبين له أن تخمينى كان صادقا وحذرته حول النتائج المحتملة التى قد تنجم من تهوره وطيشه •

وقلت له « أنصحك أن تكون أشد حرصا فى محادثاتك مع زوجتك • ولابد أن تبذل ما فى وسعك لكى تنفى كل شيء ذكرته لها ولا تتحدث عن أى أمر آخر بعد ذلك • والا فسوف نتخذ معك اجراءات أخرى » • ولست أدرى ماذا حدث فى منزل الضابط بعد ذلك • ولكن التسرب قد توقف قطعا قبل أن يصل نوع مهمتى والهدف الذى أسعى اليه الى اذان اليابانيين عن طريق مراكز الاستماع •

وكان رحيلى على ظهر الباخرة ماربلهد فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٧ شيئا مثيرا حقا • فقد هربت على ظهرها بعض معدات ضرورية معينة • وحرصت على ألا يرانى أحد وأنا أستقل السفينة كمسافر • وكان خط سير السفينة معلوما للجميع محددا لها أن تصل الى ناجازاكى وكوب فى زيارات ودية معتادة وكان اليابانيون على علم تام بها • وأما السر فكان يكمن فى الطريق الذى سلكناه وفى وجودى على ظهر السفينة • ووصلنا الى منطقة المناورات اليابانية فى اليوم الثالث على سطح البحر • وقضينا طول الوقت فى الاستماع وفى نسخ صور طبق الاصل من الرسائل الصادرة والواردة التى كانت تتبادلها سفينة القيادة اليابانية واستنتجنا أنها كانت مناورات مزدوجة لاختبار مدى التعاون بين القوة البحرية والقوة الجوية • والاخيرة كانت تمثلها طائرات تخرج من حاملاتها • وأردنا أن

ننتفع من وجودنا وسط الاسطول لمشاهدة أوجه النشاط المختلفة كعودة الطائرات الى حاملاتها اذ كان يبدو أن اليابانيين يعانون صعوبات فى هذا النوع من العمليات وأردنا أن نرى كيف يتغلبون على هذه المشاكل .

ولم نواجه الاسطول اليابانى ولكن فرقة من مدمراتنـــا قامت بذلك وسارت فى طريقها متظاهرة بعدم المبالاة ودلنا ما اعترضناه من الرسائل على أن اليابانيين قد كشفوا بسرعة وجود مدمراتنا . وكانت هذه الرسائل تدل على اثارة اليابانيين وشعورهم بالقلق . وبينما كانت سفننا تراقب حاملة الطائرات وهى تسترجع طائراتها أسرعت بعض المدمرات اليابانية وحالت بين الحاملة وبين سفننا. وهى تطلق ستار كثيفا من الدخان لاخفاء العملية عن أعيننا . ولكن هذا الستار لم يستطع أن يعوق أمواج اللاسلكى وحصلنا على المعلومات التى كنا نريدها بالاطلاع على رسائلهم ولو أننا لم نستطع مشاهدة العمليات عن طريق نظاراتنا المكبرة. فكان من الواضح أن اليابانيين يلاقون صعوبات شديدة فى هبوط الطائرات على السطح الضيق للحاملات . وهى حقيقة أكدتها المخابرات فيما بعـد وكانت سـببا فى مواصلة اليابانيين اهتمامهم بمعداتنا وطرق هبوط الطائرات على حاملاتها حتى يوم بيرل هاربر . وكانت هذه الناحية هامة وقمنا بدراسات خاصة حول هذا الموضوع كشفت لنـا عن معلومات قيمـة فى هذه الناحية من تكتيك الطيران البحرى اليابانى .

ووصلنا الى كوب فى ٢٨ أكتوبر حيث اجتمعنا بملحقنا البحرى الذى جاء من طوكيو لهذا الغرض . فأخبرته بملاحظاتى وأطلعته على مذكراتى وعلى مسودة أولية لتقرير كنت أقوم باعداده . وكما جرت العادة فان هذا النوع من المعلومات لابد أن يحتوى على بعض ثغرات هامة يتحتم ملؤها فاقترحت أن أرافق الملحق البحرى لعقد اجتماع فى طوكيو حيث أستطيع أن أوضح المعلومات الاضافية فيه ليكون التقرير كاملا .

وتصادف أن كان هناك استعراض للاسطول اليابانى فى خليج طوكيو عند وصولى اليها . ولعدة أميال وقفت صفوف البواخر الحربية اليابانية وسفن أخرى صغيرة خارج سد يوكوهاما لكى يتفقدها الامير هيروهيتو الذى كان لا يزال وصيا على أبيه وقد أصيب بالجنون . ولم يكن أحد من الاجانب مدعوا لمشاهدة هذا الاستعراض كما كانت السفن فى منأى عن

أعين الاجانب الفضوليين ، وكان لمثل هذه الاحتياطات ما يبررها اذ كان أى مراقب خبير يستطيع أن يحصل على معلومات كافية بمجرد القاء نظرة على أية سفينة من الخارج • وأتذكر بعض عملاء المخابرات اليابانية والالمانية ومقدرا اهتمامهم بالانباء المصورة التى تبيعها وكالاتنا للصور الامريكية للصحف العالمية • فكان يسرهم أن يدفعوا خمسة دولارات وهو الثمن العادى لصورة لا ضرر منها فى الظاهر • توضح طرادا بريطانيا أو أمريكيا فى زيارة لميناء أجنبية • وكانت كل مهمتهم أن يقارنوا الصورة بأخرى قد التقطت من قبل لاكتشاف تغييرات معينة فى تركيبها أو مميزات جديدة • واذا كان فى الامكان اضافة مدافع مضادة للطائرات اليها • ثم أسلحتها وما طرأ عليها من تغييرها وغير ذلك من التفصيلات الهامة • وفى الحق أن نسخة من الانباء المصورة ثمنها خمسة دولارات أو ثلاثة سنتيمات اذا كانت مطبوعة فى جريدة يومية تكشف عن معلومات تكلف أجهزة المخابرات ثمنا أغلى اذا أرادت أن تحصل عليها عن طريق العملاء أو بوسائل أخرى •

ورسمنا الخطة لاستغلال هذه الفرصة التى أتيحت لنا بوجود الاسطول اليابانى فى خليج طوكيو • وذلك بأن نسجل ملاحظاتنا • ولكن لم يكن من السهل وضع خطتنا موضع التنفيذ • وأخيرا قررنا أن نتخذ ما بدا لنا أنها أبسط وأسهل الطرق ولو أنها كانت عرضة للاخطار • وهى أن أحصل على قارب بخارى أتوجه به الى حيث يرسو الاسطول • وكان كابتن ادى بيرس ملازما يدرس اللغة فى اليابان ـ وهو الآن من خبرائنا البارزين فى الشئون اليابانية • فرسمنا خطوط مؤامراتنا الصغيرة سرا بمساعدة الملحق البحرى • وتمكنا من الحصول على القارب دون أن نلفت الينا الانظار وذلك عن طريق بعض معارفى القدماء • وبعد أن أعددنا مقادير كافية من المذكرات والاقلام بدأنا فى مغامرتنا رغم أنف اليابانيين الذين يشتبهون فى كل شىء •

وفى وقت مبكر أعددنا القارب فى مكان مناسب على شاطىء يوكوهاما ونزلنا فيه ثم انتظرنا فرصة سانحة لبدء رحيلنا • فلما تأكدنا أن ليس هناك من يراقبنا أبحرنا بقاربنا الصغير وحرصنا على أن يكون سيرنا ببطء حتى لا نستلفت الانظار • وسرعان ما أصبحنا وسط هذه التجمعات من القوة البحرية اليابانية • وكانت عجلة القيادة فى يد رجل يابانى اخترناه

بنوع خاص واتخذنا الاحتياطات حتى لا يرانا ـ أنا وأدى ـ ونحن نعمل وراء الستائر • وبطبيعة الحال كان لا يدرى شيئا عن مهمتنا • وعلى الاقل اعتمدنا عليه فى الاحتفاظ بالسر لحين عودتنا الى طوكيو حيث نتخلص من مذكراتنا • ومن وراء الستائر الجانبية آستطعنا أن نراقب كل شىء أمام أعيننا دون أن يرانا أحد من الخارج • وكان قصدنا أن نتخلص من المذكرات لو اكتشف أمرنا • ولكن بدا لنا أن ليس هناك من يشتبه فى ضابطين من المخابرات الامريكية قد أسدلت الستائر عليهما وهما فى القارب الصغير الذى لم يستلفت أنظار أى أحد له وهو يتجول خفية بين صفوف السفن • وفى اعتقادى أن فكرة ضابطين من البحرية الامريكية يسخران من اجراءات الامن التى اتخذها اليابانيون ويقومان برحلة استكشافية • لم تكن لتطرأ على بال اليابانيين • واستطعنا أن نعود دون أن يضايقنا أحد أو يكتشف أمرنا • ومعنا مذكرات ضخمة بكل التركيبات والمعالم الاخرى للسفن اليابانية الحديثة • وهو كل ما استطعنا الحصول عليه بطريق المشاهدة • فقد كانت رحلة « للصيد » ناجحة حقا • وكانت الحصيلة مرضية للغاية سواء فى نظرنا أو بالنسبة الى الملحق البحرى • حتى اذا انتهى الامر وبلغنا غايتنا اتصلت بالتليفون بكثير من معارفى اليابانيين لمحو أى أثر حول أن رحلتى الى اليابان كانت فى شىء من السرية • وذكرت لمراكز الاستماع ـ على سبيل النصيحة ـ انى انتهزت فرصة رحلة الباخرة ماربلهد لكى أزور اليابان لثانى مرة •

وبعد أن انتهيت من جولتى الى طوكيو وخليج طوكيو عدت مباشرة الى كوبى Kobe حيث اتخذت مكانى فى الطراد الذى كان على أهبة السفر الى شنغهاى بأقصى سرعة ممكنة • ولم تكن هذه السرعة موضع اشتباه اذ كانت احدى تجاربنا المعتادة لاختبار الآلات وقياس الزمن فى حالة سفر السفينة بأقصى قوتها وسرعتها • ولكن بعد أن رست السفينة فى شنغهاى بيوم ونصف يوم استقبلنا اليابانيون وعلى وجوههم أمارات الدهشة والتردد والخوف • فهم لم يدركوا معدل السرعة نفسها ولكن كانت حيرتهم أشد ما تكون حول الباعث على السير بمثل هذه السرعة الفائقة : وما هى المهمة التى كانت الباخرة بصددها ؟ وهل كان من اللازم أن تعود الى شنغهاى بهذه الصورة العاجلة ؟ وما هى الاسرار التى كان يحملها زخارياس واحتاج الامر الى هذا الانتقال السريع ؟ فلما لم يتيسر لهم أن يجدوا اجابة على هذه الاسئلة اتصلوا بنا علنا وقالوا :

« لماذا سارت السفينة بأقصى سرعتها من كوبى الى شنغهاى ؟ » •

وتظاهرنا بأننا لا نصدق كلامهم وسألناهم : « هل كانت أقصى سرعة للسفينة ؟ لقد كانت سرعتنا المعتادة · وسواء آمنوا بذلك أم لم يؤمنوا به فان اجابتنا لم تهدىء من خاطرهم · وظل سر الباخرة ماربلهد ــ من وقت رحيلها البطىء من شنغهاى وعلى ظهرها الراكب الغامض لحين عودتها بأقصى سرعة بعد سبعة عشر يوما ــ لغزا استعصى حله على المخابرات اليابانية ·

وفى ٤ من نوفمبر عدت الى سفينة القيادة لاعداد تقرير مفصل عن ملاحظاتى أثناء القيام بمهمتى · وكان تقريرا طويلا مدعما بالمستندات يحتوى على تفاصيل دقيقة عن أسرار مناورات الاسطول مع معلومات اضافية شكلت صورة كاملة الاوضاع · فقد استخدمنا وسائل رخيصة نسبيا ولكن لها أثر فعال باشتراكنا فى مناورات الاسطول اليابانى · وأن مغامرتنا هذه الاستطلاعية كان لها ما يبررها بسبب ما أسفرت عنه من نتائج لها قيمتها · ولما وصل تقريرى الى وشنجطن أعرب مدير المواصلات البحرية عن شكره فى خطاب بمثابة تشجيع لى فى المستقبل وهذا نص الرسالة :

عزيزى زخارياس ·

اطلعت بمزيد الاهتمام على التقرير الرائع الذى تقدمت به من وقت مضى بشأن مناورات معينة أتيحت لكفرصة مراقبتها عن طريق الاتصالات اللاسلكية بخدمة المواصلات ·

وفكرت فى أن أكتب اليك كلمة تقدير لانى أعتبر هذا التقرير وافيا للغاية · ويزودنا بنوع من المعلومات البحرية البالغة الاهمية بالنسبة لنا والتى لم تكن قد قدرنا قيمتها لغاية الآن ·

مع قبول التهانى وأطيب التمنيات ·

المخلص T. T. Craven
قبطان بالبحرية الامريكية
ومدير المواصلات البحرية ·

وهكذا كان تقدير مغامرة استطلاعية • كما كان التشجيع اللازم لمواصلة التقدم بفكرة دلت أنها فكرة عملية لها قيمتها ولو أنها لم تكن موضع تجربة من قبل • فكانت بعثة الباخرة ماربلهد طابعا جديدا لجمع هذا النوع من المعلومات باستخدام موجات اللاسلكى حيث لا تتوفر وسائل المعلومات الاخرى • واستخدمنا هذه الطريقة فى السنين التالية وسجلنا نجاحا ساحقا بعد بضع سنين عندما رسمنا خرائط لكل المناورات الواسعة النطاق للاسطول اليابانى المتجمع بجهودنا كانت تستهدف الطموح والانتصار • وأصبح فى مقدورنا التسلل لداخل ستار الدخان الذى دأبت اليابان على اطلاقه حول نشاطها البحرى • واستطاعت المخابرات أن تحقق نصرا مرموقا •

١١

العودة لزيارة اليابان

لقد أصبح أول عهدى بالمخابرات الآن حدثا من أحداث الماضى . فلم أعد مبتدئا بل رجلا مدربا خبيرا فى عمله أضع تصميم الطرق والوسائل التى يمكن باستخدامها الحصول على المعلومات الحيوية من ناحية النوع والكم وادخال التحسينات بتطبيق طرق حديثة وفتح ميادين جديدة ، وأتيح لى مجال مناسب للقيام بأعمالى الاستطلاعية مع ملازمة الباعث الاول لى طول الوقت . وغالبا ما كنت أكافح ضد عدم المبالاة وعناصر العجز والجهل . اذ كان يعارضنى رجال لهم اتجاهات سلبية لكل شىء . والذين كانت فلسفتهم فى الحياة هى أن أفضل الطرق للحياة المطمئنة ألا يصنعوا شيئا . وكانت أصابعى بطريق الصدفة « تحترق » دون نتيجة . ولكن غالبا كان يعضدنى رؤساء متحمسون وينظرون الى المستقبل . وعلى الاقل كانوا يرغبون فى تمهيد طريق لى أسلكه فى شىء من المخاطرة أو قد يؤدى بى الى الهلاك .

وما كان يبدو لى كهواية يكتنفها الغموض والتردد وتثير شعورى بما يلازمها من الخيال أصبح فى نظرى الآن عملا رزينا له خطورته ويحتاج لان أخصص له كل أوقاتى وعنايتى ونشاطى . **وأخيرا كنت ضابطا فى المخابرات اسما وفعلا . وأحد أولئك القليلين الذين يعتبرون المخابرات مهمة دائمة وطريقا مستديما من طرق الحياة . وحيثما كنت ومهما كان فى يدى من عمل أقوم به كنت أواصل دراستى للمخابرات مهما كان ذلك لا صلة له بواجباتى اليومية** . ففى قيادة مدمرة أو طراد سفينة حربية كنت أقضى أوقات فراغى فى قراءة أى شىء يتعلق بالمعلومات . وفى البلاد النائية كنت أحاول دائما أن أتعمق فى دراسة المميزات القومية للأهالى هناك أو ألتقط أية معلومات بما يتيسر لى من الوسائل . وفى ارتباطى بالقوم كنت أحاول مصادقة من أتوسم فيهم منفعة لى أو وسيلة لتكملة معلوماتى الخاصة وكذلك انتفعت بدخولى الصالونات لجمع معلومات من مختلف الانواع ومن متباين الالوان .

ومنذ خمسة عشر عاما أخذت في تطوير فكرة أن ضباط المخابرات يجب أن يعدوا اخصائيين فى حدود أعمال البحرية كالضباط من الاطباء والمهندسين الذين تدربوا بنوع خاص للقيام بمهنتهم وساروا على هذا النمط طيلة مجرى حياتهم العملية • وأحيانا كنت أثور ضد تعيين ضباط غير مدربين للقيام بأعمال المخابرات الشاقة • وأصبحت أعتقد أن نظام التدريب العاجل للضابط البحرى دون تقدير لعقليته لا يؤهله للعمل فى المخابرات • وعلى النقيض يجعل الضابط غير لائق لهذا العمل • وهناك اطراد معين في طريقة التدريب البحرى • فالتروى فى تنسيق الملاحظات وترتيب الافكار فى تسلسل منطقى كل هذا لا يؤدى بنا الى تحويل الشخص ليكون ضابطا فى المخابرات وهو الذى يجب أن يتميز بمرونة لا حد لها • وقد رأيت كثيرا من ضباط البحرية وعملت مع عدد كبير من هؤلاء وكان من الممكن أن يكونوا ضباط مخابرات بارزين لو نالوا تدريبا ومعرفة كافية لضمان الامن فى منافساتهم وهم يسعون للحصول على مناصب أعلى • ولكن معظم الرجال الذين عينوا فى هذه المهمة الخاصة سواء فى وظائف شبهدائمة أو مؤقتة أثبتوا عدمصلاحيتهم للعمل• وليست هناك اختبارات علمية لاختيار وتقسيم واجبات رجال المخابرات • ولكن موقفنا الذى يستدعى العجلة دفعني لان أقدم صورة متماسكة لآرائى من حيث المؤهلات المطلوبة • ومنذ وقت مضى وفى سنة ١٩٤٠ عندما كنت ضابط مخابرات فى سان ديجو خفضت هذه المؤهلات الى صورة محددة المعالم بعد استشارة زميلين لى من الاكفاء • ثم وضعتها فى صورة خطاب انتظارا لفرصة تقديمه الى من يقدره حق قدره • وبعد حادث بيرل هاربر مباشرة (عندما كنت أقوم بمهمتى البحرية المعتادة ـ قبطانالاحد الطرادات الثقيلة) كنت أشعر بالهم والكدر لما قد حدث وانتهى أمره • فقدمت الخطاب الى رئيس العمليات البحرية يملأنى الامل القوى فى قبوله حتى فى ذلك الوقت المتأخر • وبعد ذلك كان هذا الخطاب جزءا من سجل لجنة الكونجرس لشئون بيرل هاربر •

وحتى فى هذه الايام لا يزال القوم يجهلون القيمة الحقيقية للمخابرات•

ومنذ بضع سنوات سألت أحد ضباط الادميرالية :

كيف حال المخابرات بين قواتكم ؟

فقال فى ثبات ورباطة جأش مقتنعا بأنه يدلى بالاجابة الصحيحة :

ـ ليست بنا حاجة الى أية مخابرات فليس فى سفننا شيوعيون •

وكشفت اجابته هذه ـ كيف أن رجلا يحمل شارة عبارة عن ثلاث أو أربع نجوم ـ لا يفهم الا القليل عن معنى المخابرات ومهمتها . فكانت وجهة نظره مقصورة على الناحية البسيطة من حيث المخابرات المضادة والمباحث السرية . ولم تتبين له نواحى الفن الايجابية ولو أنه كان معضدا قويا لانشاء كلية الحرب وعلى يقين تام من أن الاوامر تبدأ عادة باستعراض المعلومات الموجودة حول تحركات العدو ومبلغ قوته وما هى مقاصده . ولكن كيف تجمع هذه المعلومات ويتم تقديرها ، كان هذا يبدو على أنه أمر ثانوى . ومن الواضح أن جهودا قليلة كانت تبذل لتدبير أمر التسهيلات أو توفير الرجال المطلوبين لجمع هذه المعلومات الحيوية الدقيقة .

حتى فى سنة ١٩٢٨ صممت على أن أبذل ما فى وسعى لاصلاح هذا الموقف الذى كنت أشعر أنه يشكل تهديدا للأمن القومى . فرسمت خططا لاعتمادها كالعادة المتبعة ولكنها ظهرت وكأنها تهدف الى الطموح أكثر من اللازم . وعلى ذلك عزمت على أن أنفذ رغبتى بقدر ما أستطيع . فحصلت على تصريح بالعودة الى طوكيو فى طريقى من الصين الى واشنطون . وهو ما يسمى رسميا رحلة لتجديد النشاط . وشعرت بحاجتى لتجديد درايتى باللغة وللاتصال بالاصدقاء القدامى ثم أن أحصل على ملاحظات أخرى على الطبيعة .

وعدت ثانيا الى طوكيو فى يوليه سنة ١٩٢٨ حيث وجدت معظم أصدقائى ومعارفى قد غادروا المدينة يبحثون عن ملجأ من صيف اليابان وحرارته اللافحة والمشبعة بالرطوبة فى المصيف الجبلى البهيج فى كارويزاوا الذى أصبح بعد سبعة عشر عاما مخبأ لكبار الموظفين اليابانيين يلجأون اليه هروبا من غاراتنا المستمرة التى تلقى القنابل على اليابان . وكان فى سنة ١٩٢٨ ساحة للألعاب الدولية على مسافة خمس ساعات من طوكيو نحو الشمال فى المرتفعات الجبلية قرب سفح البركان الثائر أساما ياما . ومهما كانت نسمات كارويزاوا باردة منعشة فلم أكن أطمئن كثيرا لهذا الموقع الجبلى ولذلك قررت البقاء فى طوكيو طيلة فصل الصف أجدد اتصالاتى التى أقمتها منذ خمس سنوات .وزرت ساتو ـ سان ووجدته قليل الحديث أكثر مما كان أثناء زيارتى له فى أول مرة اذ لم يعد مسموحا بتبادل الافكار الخطيرة وكانت الجندرمرى أو الشرطة العسكرية على استعداد لقراءة ما يدور فى أذهان أولئك المفكرين . ولكن معارفى الآخرين كانوا يسترسلون فى حديثهم عن ثقتهم بأنفسهم مما تبين لى أنها أفكار خطيرة حقا . فكان ذلك عوضا لى عن ساتو ـ سان وصمته المفاجىء . ثم ان التحرير فى الزمن الماضى أصبح الآن بين طيات التاريخ كما أصبح من غير اللائق الحديث عن

تلك الايام ـ أيام الحرية السياسية ـ حتى انالاصدقاء الذين يبدون أحرارا حقا كانوا يتحدثون عن تلك الايام المظلمة فى ثقة بجدارتهم وعدالتهم مما يبعث على الدهشة والحيرة • وأصبح غرور العسكريين وزهوهم الذى سبق أن تدهور على أثر احداث ما بعد الحرب وبسبب فشلهم فى مغامرة سيبيريا واضحا الآن فى أحاديثهم وتصرفاتهم • فقد بلغنى أنّ كلا من العسكرية اليابانية والبحرية اليابانية بصدد اعادة تنظيم تكوينها على دعائم ثابتة لتخلع عنها رداء الجبن والخوف الذى فرض عليها على مر السنين • ومما يذكر فضيحة انتشار الفساد فى البحرية فى سنة ١٩١٢ ، وتكرر ذلك بعد مغامرة سيبيريا فى مستهل سنة ١٩٢٠ حيث خسرت القوات المسلحة شيئا كثيرا من هيبتها • وأتاحوا للمدنيين أن يثبتوا وجودهم أمام أولئك المتعجرفين الذين ورثوا أسوأ تقاليد الساموراى • ثم اكتسحت روح التحرير جميع البلاد ولم تكن مقصورة على الفئات المعارضة • وأصبح حديث المراقبين يتناول اضمحلال العسكرية اليابانية وغروب شمسها أيضا • وزحفت هذه الروح الجديدة الى ثكنات الجنود والى البحارة على ظهور السفن • وأعربت هذه القوات عن معارضتها علنا لاستخدام الاسلحة فى تدريباتهم القاسية • وكانت المعارضة صارخة فى وجه جنرال ميزاكى بنوع خاص • والذى كان رئيسا لادارة التدريب العسكرى تلك المصلحة الشديدة البأس • وبالتالى مسئولا عن تعليم وتدريب الجنود •

وأمام هذه المعارضة اضطر ميزاكى لتقديم استقالته وأرغم خلفه على اعادة كتابة الاوامر على أن تكون التمرينات فى اطار من الرحمة والانسانية ولكن عند عودتى فى سنة ١٩٢٨ علمت أن هذه الاوامر قد أعيدت مراجعتها فأصبحت كما كانت من حيث نواحيها القاسية التى خفت حدتها منذ بضع سنين • وبدا التنظيم العسكرى كله محكم الاطراف الى حد بعيد وكان من الواضح أن القائمين بشئون اعادة التنظيم كانوا يعدون القوات اليابانية المسلحة لبعض أغراض معينة •

ولو أن اهتمامى بالجيش اليابانى كان أمرا ثانويا ليس الا • فقد لاحظت أن الجيش كله كان يولى وجهه نحو الشمال ومن الواضح أنه كان يطمع فى أراضى منشوريا عبر البحار • وكان هناك حديث علنى يشابه كلمات جنرال هوزهوفر الالمانى الموالى لليابانيين والذى أطلق لفظا جديدا على منشوريا « الفضاء الحيوى » أى المنطقة اللازمة للدولة للحياة الذى كانوا يتلهفون عليه • ويعربون عن رغبتهم بصورة مؤكدة • وأدركت أن الامر يتعلق بالزمن حتى يتمكن اليابانيون من مفاجأة العالم السليم النية بزحفهم نحو الشمال قاصدين منشوريا •

وهنا بدا يظهر تطور هام فى محيط البحرية • ولو أنه كان فى أول عهده كان يتعلق بالكتاب الازرق الا أنه كان تطورا شعرت بسببه بشىء من التردد والخوف • وكانت ظروف بقائى فى منصبى قد أتاحت لى أن أسبر غور التطورات أكثر مما كنت آمل عند عودتى الى طوكيو • اذ حدث بعد وصولى بقليل أن مرض الملحق البحرى فاقترح القائم بالاعمال أن أحل محله • ولاسباب مختلفة فضلت ألا يطلق على الوظيفة هذا الاسم • ونصحته أن يطلب من واشنطن أن أكون مساعدا فقط للملحق البحرى وفى الوقت نفسه أقوم بمهام المنصب كلها •

وسرعان ما أتيحت فرص عظيمة للحصول على معلومات وملاحظات عن طريق احداث ازدحم بها مسرح اليابان • فقد توفى الامبراطور تايشــو ليجلس على العرش مكانه الامير الوصى ويصبح الامبراطور الجديد • وكانت الاحتفالات بارتقاء العرش يتبعها عرض كبير للاسطول فى يوكوهاما ويمثل الولايات المتحدة فيه الادميرال مارك • ل • بريســتول -Bristol- وهو دبلوماسى بحرى ممتاز أصبح بعد ذلك القائد العام للاسطول الاسيوى • ويدرك المختصون كلهم تماما أن فى مثل هذه الاحتفالات الرسـمية عادة يمكن التقاط شىء من المعلومات • وعلى ذلك وضعنا الخطة لتنظيم جهودنا بصورة غير رسمية • وبطبيعة الحال بسبب بعض نفوذ معين وقلة ادراك المقصود من خططى جابهت فى السفارة مظاهر العداء والمعارضة مما جعلنى أتخلى عن عملى فى هذه الناحية وأعود الى واشنطن بعد قليل •

وفى هذا الوقت كانت اليابان تركز جهودها على تطوير الســـلاح البحرى وتدريب حاملات الطائرات بحالة توحى بالعدوان الظاهر • ولكن بسبب عرقلة تسهيلاتنا لم نكن نعلم أن الجزيرة اليـابانية سوف تخلى لتكون هدفا واسع المدى لهذه التدريبات الجوية أو أن هذا الهدف سيكون على مثال أواهو • وبطبيعة الحال كان من الواضح أن نصب تاناكا التذكارى السىء السمعة كان بداية تطبيق وسائل التدريب فى السلاح الجوى الملحق بالاسطول اليابانى • وكان من بين معارفى كوندر مينونى وهو أحد الضباط المرتبطين بأوجه النشاط السرية • ولكنى لم أتمكن من الاتصال به خلال تلك الايام التى قضيتها فى طوكيو •

وبطريق الصدفة علمت بعد مضى خمسة عشر عاما بمجريات الامور هناك وأن مينوبى هذا كان فى أعماق مؤامرة بلغت ذروتها فى مهـاجمة بيرل هاربر • اذ كان أحد أصدقاء ياماموتو المقربين ومن أصفيائه المحترفين وفى سنة ١٩٤٢ عندما انتشى بخمر نجاح خططهم فى تجربة فعلية وضع

كتابا كشف فيه عن كل ما كان فى طيات الكتمان لمدة تزيد عن العشر سنوات . وكنت حينذاك فى واشنطن أعمل نائبا لمدير المخابرات البحرية . وحصلنا على نسخة من كتاب مينوبى مترجمة الى اللغة الالمانية عندما أوقفت سيرها الرقابة وهى فى طريقها الى سجين ألمانى من أسرى الحرب المعتقلين فى الولايات المتحدة .

وطبقا لما نشره مينوبى أخيرا كانت الجزيرة التى حولت الى ساحة أهداف لقاذفات القنابل هى جزيرة شيوكو التى أعيد بناؤها قصدا لتكون مماثلة لاواهو حتى باضافة مبان نموذجية مع تقليد منشآت ساحة الميناء . كما كشفت عن مظاهر الحزن والاسى التى سادت فى أول عهد هذه الاعدادات لبيرل هاربر . وكيف أن ثلاثمائة من الطائرات قد فقدت فى مدى سنتين بعضها كان سببه سوء الاحوال الجوية والبعض الآخر كان راجعا لعدم مران الطيارين . ووصف كيف أصر ياماموتو على مواصلة تجاربه رغم الخسائر الفادحة . وكيف أن مهارة طيارى حاملات الطائرات أخذت فى التقدم تدريجيا سنة بعد الاخرى — وكل تفاصيل المؤامرة — حتى ذلك اليوم المحتوم من خريف سنة ١٩٤١ حيث علم الطيارون وهم يقومون بالتجربة الاخيرة تمهيدا لرحلتهم الى بيرل هاربر بأنهم أصبحوا على استعداد لحرب شرق آسيا الكبرى ضد الولايات المتحدة — وفى ذلك الحين كان مينوبى فى رتبة الاميرال . وكان يفخر بنفسه بأنه الشخص الذى وقع عليه الاختيار لكى يكشف للطيارين — وكان الشك لم يساورهم بعد — أن الجزيرة التى كانت هدفا لالقاء قنابلهم عليها كانت فى الواقع مصممة على مثال بيرل هاربر .

فاذا كان لدينا منظمة مناسبة للمخابرات فى الفترة من سنة ١٩٢٨ الى سنة ١٩٣٠ — واذا كنا قد تتبعنا وتوسعنا فى تلك المختارات من المعلومات التى كانت قبل أوانها . والتى كان فى استطاعتنا التقاطها فى ذلك الحين ولكن لم نستطع جمعها ووضعها كنماذج حية . أو أن الخطة «م» لم يكن نصيبها الاهمال بين طوكيو وواشنطون . لتمكنا من ملاحظة الاسطول اليابانى ومناوراته السرية بدلا من الاستماع اليهم وهم يرددون أغانيهم . وتصديق احتجاجاتهم بأنهم كانوا يعملون للسلام . وكنا أدركنا أنهم بينما كانوا يتظاهرون بصداقتهم للامريكيين وبمقاصدهم السلمية كانوا يقومون بتجارب لحاملات طائرات مثقلة بالقنابل تلقى على جزيرة كان يسميها ياماموتو « بيرل هاربر » فى محادثاته السرية مع المقربين اليه من الرفاق والمتآمرين ..

القسم الثـــــانى

الحرب بين الحربين

The War Between The Wars

١٢

كولونيل واشيزو يكشف عن وجوده

كانت وظيفتى الجديدة عوضا لى عما لقيته من مضايقات فى رحلتى الى طوكيو • فقد عهد الى برئاسة قسم الشرق الاقصى فى ادارة المخابرات البحرية • وكثيرون يعرفون هذا القسم من القصص السرية فيما وراء البحار أو عن طريق « أدميرال وربيرتن Warburton » فى المقتطفات الهزلية الشهيرة لدون ونسلو Don Winslow • وفى الواقع كان لدى فرصة لاعلم أن مديرا معينا فى المخابرات البحرية كان يبدأ عمله اليومى بالقاء نظرة على مغامرات دون ونسلو فى صحيفة وشنطن بوست • وحتى ينتهى من استيعاب مغامرة اليوم يبدأ فى توجيه عنايته الى ضباطه وما يقومون به من مطاردات تقل كثيرا عن تلك المغامرات من حيث الخيال •

وأود أن أؤكد أن المصادر المتوافرة للجمهور للحصول على المعلومات بكل سهولة تشكل صورةملتوية نوعا لمنظمة المخابرات البحرية ووظائفها ـ حتى فى نظر ضباطنا أنفسهم • وارتباطى بها لمدة طويلة ارتباطا وثيقا أسفر عن كثير من المغامرات والمشاكل المثيرة والمهمات الجذابة • وعلى العموم فان منظمة ادارة المخابرات البحرية تشبه مؤسسة العمل ولا تختلف كثيرا عن أية هيئة للبحث تقوم بأبحاث علمية •

وقد نظمت المخابرات البحريةوأعدت لتقوم بأعباء وظيفتيها المزدوجتين التى تضطلع بهما تلقائيا : المخابرات والمخابرات المضادة • والوظيفة الاولى التى يعهد بها الى عدة أقسام للابحاث الجغرافية تتضمن جمع المعلومات عن البحرية الاجنبية وعن السياسات البحرية فى البلاد الاجنبية • والمهمة الاخرى توكل الى فرع يكون مسئولا عن صيانة الامن فى بحريتنا • بمنع عملاء الجاسوسية الاجنبية والمخربين من الوصول الى أوجه النشاط الحيوية بالنسبة الى أمننا القومى •

ويأتينا على وجه التقريب ٩٥ فى المائة من معلومات المخابرات فى زمن السلم من مصادر علنية : من الكتب المطبوعة فى الخارج · ومن ملاحظات المسافرين أثناء تجوالهم · ومن المقالات والابحاث التى تنشرها الجرائد والمجلات ومن الاذاعات الاجنبية وغيرها من المصادر المماثلة ـ ويأتينا أربعة فى المائة من المعلومات من مصادر شبه علنية : تقارير الملحقين البحريين أو المخبرين الذين يجمعون معلوماتهم بالمتابعة المعتادة لنشاطهم اليومى · ويتبقى واحد فى المائة من المعلومات وغالبا أقل من ذلك يمكن التقاطه من مصادر سرية حقا : تقارير العملاء ومما يمكن الحصول عليه من معلومات من صـلات معينة موثوق بها · وقليل جـدا مما يسـتطيع هؤلاء العملاء الموثوق بهم أن يدلوا به ولا يكون فى متنـاول أى شـخص يقظ يحلل المعلومات ويدرك حقيقة ما يبحث عنه كما يعلم كيف يعثر عليه من مصادر علنية ·

وكثيرا ما تلجأ دول أجنبية لاقامة الحواجز حولها مما يضطر منظمات المخابرات لتوسيع دائرة نشاطها للتسلل حيث لا تكون هناك حاجة ماسة لاجراءات سرية · ولتوضيح هذه النقطة نقارن بين البحرية فى كل من أمريكا واليابان بظروفهما قبل الحرب العالمية الثـانية · فاذا اسـتثنينا أسرار منشآت معينة التى كان فى استطاعة العميل المدرب أن يدرك كنهها فى سهولة ويسر · نجد أن معظم المعلومات فيما يتعلق بالبحرية فى زمن السلم كان متوفرا أمام المراقبين اليابانيين · فالمجادلات حول كابتول هل · والمناقشات حول بيان المصروفات · والمقالات التى تنشر بالمجلات الفنية · وما يشبه ذلك من المصادر العلنية كانت كلها توفر المعلومات المطلوبة ·

وكانت قواعدنا البحريةوغيرها من المؤسسات والمنشآت على الشواطىء مفتوحة أمام الزوار · وكانت سفننا الحربية فى متناول الجميع بعد ساعات العمل · وكان الزوار ـ يدعون لحضور استعراضات الاسطول على ظهور البواخر · ولم يكن هناك أحد يستعلم عن شـخصية الضيوف · ودلت تقارير العملاء فى بعض الاحيان على أن الزوار كانوا يخترقون مناطق محرمة على ظهور السفن · وفى المجلات السنوية مثل Jane's Fighting Ships وغيرها كانت تنشر بيانات عن حجم بحريتنا وقوة سـفننا وأسلحتهـا وتحركاتها ومناوراتها وغير ذلك من التفاصيل ·

وما أكثر ما كانت البحرية اليابانية تختلف عنا ! لم يكن هناك ما يعتبر ظاهرا للعيان • وكانت السفن عادة فى منأى عن الانظار • وكان الحظر مفروضا على القواعد البحرية باعتبارها مناطق محرمة • وقليلا ما كانت مقدرات الميزانية البحرية تناقش فى المجلس الامبراطورى • فكان كل شيء يجرى فى محيط السرية لدرجة أن معلومات مضللة كانت تنشر تمويها على المراقبين • وبذلك كانت المهمة التى تواجه المخابرات البحرية هى الدوران حول هذا الستار المعقد للاطلاع على المسرح الحقيقى وراءه • وغالبا كانت هذه المهمة تنطوى على صعاب بسيطة اذا تدرجت من تحليلات نسبية على أساس المستويات المعروفة بوجه عام • ومن وقت لآخر كانت هناك أسئلة معينة لابد من الاجابة عليها : هل صحيح أن اليابان كانت تبنى سفنا حربية حمولتها ٤٥ ألف طن مزودة بمدافع من عيار ١٨ بوصة ؟ هل حقيقة أن هناك قواعد بحرية معينة بها تحصينات ساحلية جديدة ؟ ما هو موقف القوى العاملة الفعلية فى البحرية اليابانية أو فى الاحواض البحرية ؟ فكانت اجراءات الفحص والابحاث تسفر عادة عن اجابة لهذه الاسئلة دون حاجة الى استخدام عملاء يعملون فى الخفاء • ولكن المشاكل الكبرى التى كان علينا أن نجد حلا لها هى المقاصد التى تكمن وراء الاسطول وطريقة استخدام السفن والقواعد فى المستقبل • وهذه كانت حقا فى حاجة الى نشاط المخابرات • وحتى اذا كان الامر كذلك فان حاسة الادراك وحدة الذهن والتفكير السليم قد تكشف عن أدلة أكثر من عمل المخابرات ونشاطها السرى •

وهناك وجه آخر لهذه المشكلة المعقدة يجب أن نوليه عنايتنا وهو أن نوسع دائرة نشاط مخابراتنا بعد أن بدت لنا مظاهر العداء وبعد ركودها فى أوقات السلم : فان الخطأ الجوهرى فى تصرفاتنا لابد أن يؤدى الى نقائص خطيرة فى كيان أمننا القومى • ولابد من ادراك حقيقة واقعة وهى أن المخابرات لها أهميتها سواء فى زمن السلم أو فى وقت الحرب • فكلما كانت الامة مستعدة بأجهزة مخابراتها لاية أحداث متوقعة كلما أتيحت لها الفرصة للحفاظ على السلام أو تقصير فترة الحرب ــ سواء كان السلام حقيقيا أو اسميا • ويكون استخدام المخابرات فى وقت السلم أوسع

نطاقا مما هو فى زمن الحرب • فبدلا من التصنت على الاذاعات الاجنبية على فترات يجب مراقبة كل فروع اذاعة العدو بصورة منتظمة • والعمل على انتشار العملاء المدربين والاستيلاء على مستندات العدو بقدر المستطاع • كما أن المعلومات يجب أن تفيض بهـا مكاتب ضباط المخابرات • وهذه المعلومات التى تتكدس أمام الضباط فى زمن الحرب يجب جمعها على أجزاء فى أوقات السلام •

ولكن ماذا هو « السلام ؟ » فان من وجهة نظر ضابط المخابرات ليس هو الا اصطلاح مضلل اخترعه الانسان بسبب حنينه الى هدوء واستقرار على مر الايام لكى يخدع نفسه فحسب • ومن ينظر الى واقع العـلاقات الدولية يدرك جيدا أنه لا وجود لمثل هذا السلام المطلق • فعندما تنتهى الحروب تظل نارها مشتعلة تحت ستار سلام خادع بوسائل دبلوماسية واقتصادية ونفسية يمارسها الفريقـان • المنتصر منهمـا ومن لحقت به الهزيمة • وقد تؤدى تلك الحرب الباردة الى مرحلة تبلغ فيها حدة التوتر ذروتها أو تصل الى أعماق الاسـفاف والانحطاط مما لا تسـتطيع الحرب الطاحنة أن تجمع بينه معا • وعنوان هذا الكتـاب الثانى مشتق من أن الحروب تستمر بوسائل أخرى حتى بعد ايقاف اطلاق النار رسميا ووضع حد لمظاهر العـدوان • وقد كانت تجربتى الخاصة وشـاركنى فيها أكثر زملائى الضباط وهى أننا كنا مشتبكين فى حرب بمجرد انتهـاء الحرب العالمية الاولى وقبل بدء الثانية بزمن طويل • ذلك لان الحياة الحديثة فى مجموعها وتعقيد المجتمع الحديث مما يحتم علينا الدخول فى حرب لا نهاية لها • حتى بينما نحاول تهدئة ضمائرنا التى أزعجها التأنيب من أحاديثنا حول السلام الدائم كأنه علاج شامل فى متناول أيدينا • فنحن قوم لا نريد الحرب • وأكثر من ذلك • فان وجودنا من الوجهة الادبية يثور فى وجه الحروب • ولكن الحقائق تواجهنـا فالمريض بالمشى أثنـاء النوم هو الذى يستطيع أن يسير على حافة الاسطح دون أن يكون واعيا لما يحيق به من الاخطار فى أية لحظة •

وفى مثل هذا الجو من السلام على غير حقيقة والمشحون بأخطار الحرب التى لا تقف عند حد • باشرت عملى كرئيس قسم الشرق الاقصى فى ادارة

المخابرات البحرية • وفى تلك السنين كانت مهمتنا محددة المعالم مما كان عبئا ثقيلا على كاهلنا • ولم نستطع أن نفعل الا القليل للخروج من هذه الحدود الضيقة التى تقيد مهمتنا • وعلى ذلك قمنا بجمع المعلومات المعتادة ووضعها بعناية فى ملفات أعدت لهذا الغرض • وكان الموظفون المختصون بهذا العمل من القلة بحيث لم نستطع تحقيق الهدف الذى نسعى اليه • وفى الواقع كنت بمفردى أمثل نصف مجموع الموظفين فى قسم الشرق الاقصى • والنصف الآخر كان مس سبلت سكرتيرتى • وكان خصمنا المحتمل ـ اليابانيون ـ لديهم فى ذلك الوقت عشرات من الموظفين يعملون فى المكتب الخاص بأمريكا الشمالية • ثم عين للعمل معى ضابط اضافى آخر فيما بعد وكان يعرف اللغة الصينية فعهدت اليه بشئون الصين •

وبينما كنا نكافح هذا الاقتصاد المضلل والقيود التى توحى بقصر النظر كانت الاحداث تجري بسرعة نحو السنين الحرجة ابتداء من سنة ١٩٣٠ التى كان مستهلها مشحونا بمظاهر الخوف اذ كانت هناك دلائل واضحة على أن اليابان كانت تستعد لوضع «مشروع تاناكا» موضع التنفيذ بأن تتحرك عبر البحار نحو « النطاق الحيوى » فى منشوريا • وحتى مارس سنة ١٩٣١ كان الموقف قد أصبح خطيرا مما دعانى لاجراء محادثات مع صديقين لى يهتم كل منهما أشد الاهتمام بالشرق الاقصى • وكان أحدهما لفتننت كولونيل سدنى • ف• ماشبير ضابط احتياطى من أركان حرب بالجيش الامريكى ويتكلم اللغة اليابانية مثلى تماما • والآخر ميجر جيمس ف• موريارتى من الفرقة البحرية الامريكية وهو جندى نابه وطيار ماهر ويتحدث اللغة الروسية بطلاقة •وتبلورت أفكارنا عندما ظهرت مقالة فى احدى المجلات فى مستهل سنة ١٩٣١ حول هنرى بو ـ يى Pu-yi امبراطور الصين السابق • وأشارت المجلة الى أن محظيته الاولى رفعت عليه قضية تطلب الطلاق بسبب عجزه • وكان الامبراطور السابق يعيش منفردا فى شنغهاى • وكان وصف الموقف فى نظر من يعرف الشرق الاوسط أمرا مثيرا وغير محتمل • ولكن فى نظر ضباط المخابرات كان شيئا يدل على معنى دولى • اذ كان من الواضح أن هذا المقال الساخر من بو ـ يى يقصد منه أن يسبب له « الخجل » وفقدان ماء الوجه وأن يضعه فى موقف يستدعى « انقاذه » وبذا يمكن استخدامه لتحقيق أغراض بعيدة •

وكان يمكن استخدامه فقط فى ذلك الوقت ليكون حاكما « العوبة » اذا كان اليابانيون على حافة التحرك نحو منشوريا • وقررنا أن نبذل جهودنا فى هذا الصدد لنتبين حقيقة الامر ولنعرف الطريق الممكن الذى سوف يسلكه اليابانيون • كما شعرنا بأنه علينا أن تختبر مداركنا بالحصول على أية معلومات مباشرة من فم « الحصان الاسد » الملحق العسكرى اليابانى فى وشنطن ـ كولونيل شوهاى واشيزو من الجيش الامبراطورى • وغالبا كنا نلعب الجولف معه وتوطدت بيننا علاقات ودية • وكنا ننهى المباراة بالوصول الى الجحر التاسع عشر فى مسكنه • مما كان يعد ترحيبا مزدوجا فى وقت شائك • فوقع على الاختيار للقيام بالخطوة الاولى لتحويل لعب الجولف الى عمل جدى • واتصلت به بالتليفون قائلا : « طاب مساؤك يا كولونيل • كيف حالك فى لعب الجولف فى هذه الايام ؟ » • وأجاب واشنزو فى صوت منخفض : « دومو ـ ليس على ما يرام » •

« ماذا ترى فى مباراة فى وقت ما فى المستقبل القريب ؟ » •

« هـذا شىء جميل • ولمـاذا لا تأتى لتشرب قـدحا معى بعـد ظهر اليوم ؟ » •

وشعرت بالارتياح لهذا حقا • فقد وقع الكولونيل الصغير فى الشرك • وقلت له :

« هذا من دواعى سرورى وسأدبر الامر بعد اجتماعى بكل من ماشبير وموريارتى حسب موعدى معهما » •

وسأل الكولونيل :

ولماذا لا يحضران معك ؟ » •

« انى على يقين من اغتباطهما بذلك • هذه أيام الجفاف كما تعلم • وأى ميعاد يوافقك ؟ » •

وقال واشيزو « أى وقت • ماذا ترى فى الساعة الخامسة ؟ » وأجبته :

« سوف نكون هناك » ومنعت نفسى من الضحك وأنا أضع السماعة مكانها •

وفى الساعة الخامسة تماما ـ طبقا لعادة اليابانيين ـ كنا ندق جرس مسكن واشيزو فى الطابق الثالث من مبنى بورتلاند وهو أحد الابنية القديمة في ركن شارعى ١٤ ، توماس سيركل وكانت شقة خالية من الطلاء الزاهى اللون وأثاثها بسيط ولكنها كانت تفى بحاجة واشيزو من حيث استخدامها كمكتب ومسكن له فقد كانت عادة اليابانيين ـ الملحقين العسكريين والبحريين ـ أن يتخذوا من مساكنهم مكاتبا لهم ٠

وكان كولونيل واشيزو قد جمع مساعديه الاثنين ـ لفتنت كولونيل ك٠ تيراموتو (الملحق الجوى) وميجر يوتاكا هيروتا ٠ وبعد تبادل التحيات المعتادة كانت فى أيدينا أقداح الويسكى بالصودا ٠ وكان المشروب عاديا مخففا مما يدل على أن واشيزو لم يكن لديه أسئلة حيوية يلقيها علينا ٠ فقد أعد الامر على أن يكون احدى الامسيات الاجتماعية العابرة ٠ وكان فى سنة ١٩٣١ هناك شئون كثيرة للحديث عنها بصفة عامة ٠ ولم نكن فى عجلة للحديث فيما جئنا من أجله على الفور وبالرغم من ذلك كان يساورنا الشعور بأن هناك أزمة تلوح فى الافق ٠

وذلك لانه فى هذه السنة تحول مجرى التيار كما أن اتجاه الاحداث وتدهور الموقف الدولى مما جعل الاندفاع نحو الحرب أمرا ملحوظا لا مفر منه ٠ فكان الكونجرس الواحد والسبعون يعانى مشكلات الاجور ومستويات الاسعار وأنواع التسعيرة ويحاول ايقاف تيار الانخفاض الجارف بينما يؤمن بأن الازدهار ينحصر فى احتكار الاسواق المحلية ٠ وقامت هناك ثورات فى بوليفيا وبيرو والارجنتين والبرازيل وشيلى وكوبا٠ وتطورات محرجة فى أوروبا الوسطى ٠ وفى ألمانيا كان المتطرفون السياسيون يسعون لتولى مقاليد الامور ٠ كما كانت هناك فى بريطانيا أزمة أنقسام حكومة العمال حول مشكلة موازنة الميزانية وحماية الاسترلينى بتخفيض رصيد الذهب ٠ وكان الذهب يتدفق من لندن بكميات كبيرة فقررت الحكومة ايقاف عيار الذهب ٠

وبعد ذلك ٠ وفى اللحظة الحاسمة تقريبا عندما قام رئيس الجمعية الثانية عشرة من عصبة الامم بدعوة الولايات المتحدة للاشتراك فى مناقشات حول اقتراح ايقاف التسليح ٠ كانت الدلائل تشير الى أن اليابان

قد قررت القيام بمغامرة عسكرية فى جهة ما . وكانت الاسئلة التى تدور برؤوسنا هى : أولا ــ الى أية جهة سوف يتحركون ؟ وثانيا ــ هل يكون عرضا عسكريا أو بحريا أو عملية تجمع بين الجيش والبحرية متعاونين ؟ وكان أملنا أن نحصل على اجابة لهذه الاسئلة باستخدام واشيزو وصحبه كأنهم « خنازير غيانة » ولكننا فى هذا الحفل البهيج حيث الجو الودى آثرنا أن ننتظر ريثما تواتينا الفرصة المناسبة .

واقترح واشيزو أن يرسل العشاء من المطعم فى الطابق الاسفل وتقبلنا ذلك شاكرين .

وسألت مازحا « ماذا تقول زوجاتنا عندما نعلن اليهن فجأة أننا لن نتناول العشاء فى منازلنا ؟ » مما أثار ضحكات بحسن نية حول اشراف النساء على حياتنا وحركاتنا فى أمريكا . فكان على أن أسلم بأن تدريب النساء اليابانيات أمر يستحق التقدير . اذ على الزوجة أن تنتظر زوجها ليلا لوضع ملابسه فى المكان المعد لها مهما كانت عودته فى ساعة متأخرة .

ودارت بيننا الاحاديث المعتادة وناقشنا واشيزو فى قرب ترقيته اذ حطم رقم المائة فى لعب الجولف . ولما جاء كولونيل تيراموتو بمشروب آخر سألناه عن رحلاته المتكررة الى نيويورك لحضور بعض تمثيليات هزلية معينة . وسألنا ميجر هيروتا عن مغامراته النسائية المشهورة فى وشنطن . ولكن بالرغم من أن محادثاتنا كانت تنطوى على شىء من المزاج الا أن الحفل كان على مستوى لائق بحفظ الكرامة . وكان كولونيل واشيزو ضابطا مثاليا ممن هم فى مثل رتبته . معتدل القامة له وجه صغير . جميل الملامح ويضع على عينيه منظارا . وفى مجموع مظهره يشبه كثيرا هنريتش هملر . ويميل الى الحرص فى حديثه ولكنه كان متزنا دائما .

وكان لفتننت كولونيل تيراموتو يختلف عنه بعض الشىء . اذ كان مستدير الوجه كغالبية اليابانيين . قصير الشعر . يميل كثيرا الى الهدوء بما لا يتناسب مع عمل الطيار . ولكنه كان يتميز بذقن عريضة شأن الطيار الماهر غالبا .

وأما ميجر هيروتا ــ مســاعد الملحق العســكرى ــ فكانت مميزاتــه الخشونة والثقة بالنفس والبساطة المثالية للجندى من سلاح المشاه • وقد مكث فى الولايات المتحدة مدة أربع سنوات تقريبا فكان دعامة ثابتة وقوة دافعة فى مكتب الملحق العسكرى • كما كان منتفخ الملامح تزيد فى مظهرها عن الحجم الطبيعى • أشبه شىء بصورة كاريكاتورية للرجل اليــابانى • ولكن هذا الاثر كانت تلطفه لمحة عينه مما يدل على مرحه وروحه العالية • اذ بعد أن تناول عدة أقداح أخذ فى الثرثرة والضحك بصوت عال وكان يشعر بأن ذلك من طابع الامريكيين •

وقد أطلت فى وصف هؤلاء الرجال لانى رأيت فيهم صــورة للملاح المثالى فى بعثة عسكرية يابانية فى الخارج • وعلى عكس المعتقد بوجه عام فان اختيار الضباط اليابانيين لمثل هذه الوظائف الدقيقــة من ملحقين عسكريين وبحريين لم يكن دائما نتيجة لبذل عناية تامة فى هذا الاختيار • اذ كنت فى بعض الاحيان أشعر بدهشة كبيرة لما يتميز به هؤلاء الرجال من ضعف الادراك ومظاهر الحماقة وهم يقومون بأعباء هذه البعثات الهامة • والرجال الذين اجتمعنا بهم فى الصالونات الدبلوماسية فى وشنطن كانوا من بيئات معينة • فقد كانت عصابة طوكيو تنتخبهم من فئات لا تزال فى مقتبل الشباب ممن يتطلعون الى المستقبل الزاهر وممن تلوح على وجوههم ما يبشر بأنهم سيملأون منــاصب الملحقين العسكريين بجــدارة • وكان اليابانيون يتحرون الــدقة فى تدريبهم على هذه الوظائف حيث يتمتعون بامتيازات معينة ويحصلون على مكاسب كثيرة لا تمنح عادة لزملائهم من الضباط • ومن ناحيــة أخرى كان هذا النظام الذى اتبعته العصــابات والمتآمرون سببا فى اتاحة النفوذ لفئة معينة من متوســطى الذكاء ولها مطامع لا حد لها • وكنت أعرف كثيرا منهم معرفة وثيقة وأدركت ما فيهم من مظاهر القوة والضعف • وكانت معرفتى بهذه الفئة فى أوج العسكرية اليابانية واعتقدت بأن اليابان بالتأكيد لا تصمد فى وجه هجوم من الناحية النفسية Psychological Attack • وتوقعت انطباعاتهم لهذا النوع من الهجوم • وكنت على يقين من أنهم سوف يذعنون له عاجلا أو آجلا • وكانت هذه نواة الخطة التى دفعتنى لشن حملة حرب نفسية فيما بعد •

وفي الحق • أظهر ممثلو اليابان في وشنطن اختلافا واسع المدى من حيث المقدرة والاخلاق •فكان القبطان ساكانو ـ ملحق بحرى سابق ـ على جانب كبير من حدة الذهن وله شخصية جذابة وكان متفقا معنا في النزاع حول تقدير القوة البحرية ٥ : ٥ : ٣ ولا يرى أية أسباب تدعو اليابان لان تخشى جانبنا • ولكنه فقد كثيرا من دقته هـذا بعـد عودته الى طوكيو • وعندما كان نائبا لوزير البحرية الامبراطورية • وفجأة أعفى من منصبه لخطأ ارتكبه أثناء النزاع الداخلي بين الجيش والبحرية • اذ سئل ان كانت البحرية لديها اعتراض على تعيين جنرال أوميزو رئيسا للوزارة اليابانية بالرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها الجيش • فأجاب في سذاجة أن البحرية لا تمانع في هذا التعيين • وكانت هذه اجابة خاطئة • اذ كان من المتوقع أن يشترك مع الجيش في معارضته للجنرال • وبسبب خطئه هذا طرد من منصبه واكتنفه الظلام والغموض • ومن ناحية أخرى • أدميرال نومورا المعروف في اليابان بأنه موال حقا للامريكيين ظل محبوبا لانه كان في قمة اليابانيين الآخرين من حيث المقدرة والخلق الحسن كما كان في طول قامته • وكان دائما واثقا بنفسه معتمدا على آرائه الخاصة • شجاعا فيما يعتقد • وهو الرجل الوحيد الذى اجتمعت به ووجدته على استعداد لمناقشة أي موضوع بالتفصيل في أي وقت كان دون احراج لمحدثه أو قهقهة عالية مما يتميز به زملاؤه من متوسطى الحال •

وفي ذلك اليوم في مستهل ربيع سنة ١٩٣١ كان الثلاثة اليابانيون الذين واجهناهم يشكلون ثلاثة أنواع مختلفة اختلافا ظاهرا • ولذلك توقعنا من كل منهم انطباعات متنوعة عندما كنا على استعداد لالقاء مفاجئاتنا خلال ذلك الاجتماع « المعد من قبل » • فأقام كل منا نفسه مراقبا على كل فرد منهم • وكان واشيزو من نصيبي • وماشبير عليه أن يراقب تيراموتو • ويكون هيروتا تحت مراقبة موريارتي • وذلك في اللحظة التي أجابهم بسؤالي • وتكون الانطباعات التي تبدو على وجوههم بمثابة أدلة لنا أكثر من اجاباتهم •

وعلى أثر انتهاء العشاء تحول الحديث ـ كما لو كان بطريق المصادفة ـ الى موقف الصينيين واتجـاههم • وكان الموقف في الصين الشمالية

ومنشوريا ينذر بالفوضى حقا تحت حكم مروج الحروب تشانج سور لنج · فابديت عطفى على اليابان وأعربت عن ادراكى التام للصعوبات التى كانت تواجههم من حيث الاحداث فى منشوريا · وارتسمت على وجوه خصومنا الثلاثة ابتسامات تنمعن الابتهاج مما أكد لى أن الطعم كان مغريا · وأخيرا· عندما شعرنا بأننا نعالجهم من الناحيـة النفسـية تحولت الى كولونيل واشيزو وسألته فى نغمة جدية للغاية :

« أتظن يا كولونيل أن اليابان تستطيع الوقوف فى وجه مقاطعة بقية الصين لها اذا قمتم بغزو منشوريا ؟ » ولو أنى ألقيت السؤال ــ كما لو كان بطريق المصادفة ــ دون أن يكون له التوكيد كما يبدو الآن · الا أنه كان قد أعد من قبل فى حذر وعناية وأحكمت طريقة القائه قبل توجهنا الى مسكن واشيزو · فقد كان هذا السؤال المثير الذى كنا تأمل أن يسفر عن الدليل المطلوب · ولم نشعر باليأس اذ كانت انطباعاتهم تكشف عن دخيلة أنفسهم · فقد أحمر وجه الكولونيل ووضـع يده على فمه وأخـذ يبتلع لعابه فى شىء من الصعوبة · وكان كولونيل تيراموتو يرتشـف كأسه فتوقف الخمر فى حلقه وغادر الغرفة فى ذعر واضح · وأما ميجر هيروتا فقد انفجر ضاحكا ومال الى الخلف فى مقعده وبدا أنه لا يستطيع السيطرة على نفسـه · فتطلع كل منا ــ نحن الثلاثه ــ الى الآخر وغمز بعينه · فقد قمنا بدق الناقوس · ولو أننا لم نتلق اجابة عليه مطلقا الا أننا عثرنا على الدليل الذى كنا نسعى اليه ·

وبمجرد أن سـاد الهـدوء وعاد تيراموتو الى الغرفة تابعنـا الحديث بسؤالين رئيسيين سبق أن قررنا أن نلقيهما · وفى هذه المرة كان الدور على ماشبير ليخاطب الكولونيل بنوع خاص والجميع بوجه عام ثم يسرع بالقاء نظرة على كل منهم متى انتهى من حديثه : وقال :

« ماذا تظن أن تفعل عصبة الامم ازاء حركة كهذه تقوم بها اليابان ؟ »· فكان ميجر هيروتا أول من التقط الكرة · وأجـاب بسرعـة فى شىء من الاستخفاف :

« أوه · عصبة الامم ليس فى مقدورهم غير الكلام ! » ·

وهنا كان موريارتى مستعدا لالقاء سؤاله فقال بسرعة :

« هل تضعون بوريى حاكما فى منشوريا كما كان جنرال ميركولوف فى سيبيريا ؟ » •

وعاد هيروتا للاجابة ثانيا ليظهر أنه القوة الدافعة فى المجموعة • وقال فى نغمة رزينة للغاية :

« قد يكون ذلك » •

واذا كنا قد عثرنا على شيء فان كولونيل واشيزو هو الذى أمدنا بالدليل على موعد الغزو • وذلك بسبب تزمت اليابانيين فى الادب والمجاملة • فقبل أن نستعد للمغادرة تحول الحديث الى موريارتى وطول فترة عمله فى وشنطن وتبين أنه من المتوقع أن ينقل فى نوفمبر • حتى اذا وصلنا الى الباب الامامى قال كولونيل واشيزو وفجأة (وكان رجلا متوقد الذهن يفكر فى سرعة وكفاية ولكنه لم يكن كذلك فى الحكم على الامور) :

« ميجر موريارتى • أود أن أقيم لك حفل وداع قبل مغادرتك • وسوف يكون ذلك فى سبتمبر لانى سأكون مشغولا جدا فى أكتوبر ! » — وكان ذلك فى شهر مارس سنة ١٩٣١ •

وأثناء سيرنا — نحن الثلاثة — الى المنازل جمعنا ملاحظاتنا لتكون كتلة واحدة • واتضح أمامنا : أن الجيش اليابانى قد رسم خططه لغزو منشوريا وسيتم ذلك فى المستقبل القريب • وبذلك اكتشفنا أحد الاسرار الكبرى فى الجيش اليابانى •

وقبل أن نعد تقريرا بالنتائج التى حصلنا عليها لارساله الى رؤسائنا قررنا أن نجد ردا على سؤالنا الثانى : هل كان للبحرية اليابانية يد فى هذه المؤامرة ؟ وعلى ذلك قررنا أن نعيد نفس الاجراءات مع الملحق البحرى وموظفيه وقد تعرفنا بهم عن طريق لعب الجولف وغيره من أوجه النشاط •

ونلعب نفس الدور مع كابتن شيمومورا الملحق البحرى وأن يكون معنا عدد مماثل من المساعدين لان من عادة اليابانيين أن يكون عددهم مساويا لعدد الحاضرين من الاجانب ٠

فلما اتصلت بالملحق البحرى لاسأله عن لعب الجولف تلقيت منه نفس الرد ونفس الدعوة بصيغتها الودية : « ماذا ترى فى تناول شىء من المشروبات ؟ » وساورنى الشك فيما قد ينجم عن مرافقة ماشبير وموريارتى كما حدث فى المرة السابقة ولكنى قررت أن أصحبهما ٠ وسار كل شىء طبقا للخطة ونفس خط السير ٠ ولم يكن هناك اختلاف سوى فى مسكن الملحق البحرى مسكنين فى البان تاور وهو منزل فخم فى ماساشوستس أفنيو وديسكونس ٠ وكان مقر الاقامة يسلم من ملحق بحرى الى آخر يأتى بعده وهكذا ويستخدم لمكتبه ومسكنه فى نفس الوقت ٠ وفى تلك الايام كان الملحقون لا ترافقهم زوجاتهم وعائلاتهم الى الولايات المتحدة لان ذلك يضعهم فى مركز اجتماعى لا يألفونه فى بلادهم ٠

وفى هذه المرة كان الويسكى من نوع مختلف ولكن لا بأس به ٠ وسار الحديث بيننا كالمعتاد فى مختلف الشئون ٠ وبعد أن استرسلنا فى عبارات العطف على اليابان فيما تلقاه من الصعوبات فى الصين ألقينا سؤالنا الهام وانتظرنا الاجابة ٠ ولكن لم نلحظ أى رد فعل على وجوههم فيما عدا كابتن شيمومورا الذى قال فى بطء وفى شىء من الرقة « فى الحق أنا لا أدرى شيئا » ٠

وتطلع كل منا الى الآخر ـ أنا ورفاقى ـ ولكن كانت نظراتنا لها مغزى مختلف ٠ وفى عودتنا الى منازلنا تناولنا الامر بالمناقشة ٠ وثبت لدينا أن الجيش اليابانى كان يواجه الشمال بينما كانت البحرية تتطلع نحو الجنوب ٠ فلم يساورنا أى شك فى أن السؤالين كانت الاجابة عليهما واضحة دون التباس ٠ وفى اليوم التالى أعددت مسودة للتقرير المرسل الى مدير المخابرات البحرية ٠ وذكرت فيه تقديرى للموقف وما يسفر عنه من نتائج مستقبلة ٠ وأكدت أن الجيش اليابانى على أهبة التحرك فى

مواجهة منشوريا دون معرفة البحرية اليابانية أو مساعدتها له . وكان ذلك في مارس سنة ١٩٣١ . وفي ليلة ١٨ ـ ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١ بدأت « المناوشات » في منشوريا بين الصين واليابان .

وعندما أذيعت الانباء في يوم سبت بعد الظهر لم أكن في عملي في المخابرات . اذ بعد اجتماعي بواشيزو وشيمومورا ومساعديهم نقلت الى العمل الروتيني بين البر والبحر في قيادة المدمرة دورسي .

ولكن بعد مغادرتي وشنطن كان علي أن أرافق الامير تاكاماتسو الاخ الثاني للامبراطور والاميرة تاكاماتسو في جولة في الولايات المتحدة . وأتاحت له هذه الجولة فرصة غير عادية لدراسة عشرة أشخاص من علية القوم دراسة وافية متواصلة . وكان الفريق يتألف منهم . ومن حيث شئون الحرب النفسية التي كنت أعتزم شنها على القيادة اليابانية العليا أتاحت له هذه الرحلة أن أنال ثقة اليابانيين مما لا يتيسر بأية وسيلة أخرى ...

١٣

مشكلة الأسطول الرابعة عشر

عندما تلقيت انباء حادث مشوريا فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١ كنت على ظهر المدمرة فلم اتمكن من الحصول من مصدر مسئول على بيان ماحدث فى الليلة الماضية وانى اتفق مع ولتر ليبمان حيث كتب : « هناك سبب قوى يدعونا لان نظن ان وزارة الخارجيـة اليابانيـة وكذلك السـفراء اليابانيين فى جنيف ووشنجطن لم يكن لديهم معلومات دقيقة تامة » حتى أى اشارة ـ بطريقة غير مبـاشرة ـ الى أن الجيش كان يعد ضربته دون علم وزارة الخارجية وأكثر من دلك دون موافقتها • وقبل أولو الامر فى الولايات المتحدة هذا التنصل بوجه عام وأقاموا سياستهم التالية « عـلى فرض أن الحكومة المدنية فى طوكيو فوجئت بتصرفات الجيش » • ولكن هنرى •ل• ستمسون ـ وزير الخارجية وأحد كبار رجال السياسة لم يشاركهم فى هذا الانتقاد • اذ كان يتفق مع الرأى القائل بانه من المحتمل أن تكون وزارة الخارجية اليابانية لاتدرى تفاصيل الهجوم ولكن لابد أن كان لديها فكرة عامة عن خطة الجيش فى هذا الصدد •

وأبلغ الامر الى عصبة الامم فى ١٩ سبتمبر بواسطة السفير اليابانى يوشيزوا والدكتور ألفرد كاو سزى المندوب الصينى فى العصبة • وفى يوم الاثنين التالى تقدمت الصين رسميا الى العصبةملتمسة تطبيق المادة ١١ من الميثاق • وفىيوم الثلاثاء أخطر وزير الخارجية السفير اليابانى فىوشنطن مستر ديبوشى بان الحكومة الامريكية تهتم اشد الاهتمام بهذا الامر الذى تعده انتهاكا سافرا لمعاهدة الدول التسـع واتفاقيـة باريس • وكانت سياسة الحكومة الامريكية تتشكل تدريجيا بقيادة مستر ستمسون الذى كان يوجهها فى حذق وشجاعة والذى بقى نشاطه فى تلك الايام منطبعا فى ذهنى مع الزمن مصحوبا بشعور من الاعجاب والعرفان بالجميل• ولكن

الاحداث كانت تجرى فى سرعة غير عادية ، ففى ٢٧ نوفمبر استمعت الى اذاعة تقول أن القوات اليـابانية كانت مندفعة من مكدن تجاه شنشـو للاستيلاء على سكة حديد بكين ـ مكدن ٠ وتوقفت الحركة عندما قدم مستر ستمسون اعتبارات والتزامات ثابتـة الى بارون شيديهارا ٠ وهو نفس البارون الذى تقلد رئاسة الوزارة بعد خمسة عشر عـاما عنـدما كانت اليابان تحت وطأة الهزيمة ٠ وبطبيعة الحال لم يكن من المتوقع ان تغيير اليابان لخط سيرها معناه التخلى عن المشروع ٠ بل فى الواقع ان النزاع بين ستمسون واليابان كان على وشك ان يحدث حينذاك اذ ألقى وزير الخارجية بيانا فى شىء من الحذر حول التفسير الشائك لليابانيين حــول هذا الحادث ٠ ولكن ملاحظته شوهت وحولت قصدا عن معناها الحقيقى عند نقلها الى اليابان حيث قرئت « أن الجيش اليابانى فى منشوريا قد أصيب بجنون القتال » ٠ ومهما ادعى اليابانيون من الدهشة والحيرة للحط من شأن بيان وزير الخارجية الامريكية فقد اتفقت مع مستر ستمسون عـلى أن اليابان مصممة على ان تلتهم منشـوريا بأكملهـا ٠ ولم يكن الجيش اليابانى يواجه الشمال فحسب بل كان يقتحم البلاد فى سرعة مذهلة ٠

وقد تسرعت وزارة الخارجيه اليابانية فى قبول الترجمة عـلى غـير حقيقها وشاركت الجيش فى جنونه بالقتال وحتى ان كان ذلك فى مجال الدبلوماسية فقط ٠ بعد ذلك اعترض متحدث بلسان الوزارة ـ فى لغة نادرا مايستخدمها الدبلوماسيون فى بيان عام ـ على بيان مستر ستمسون بصورته المزورة مما أدى الى ازدياد مظاهر الاستياء فى اليابان بسبب تدخل الامريكيين فى شئون تعد فى نظر اليابانيين من صميم أمورهم الداخلية ٠

وقامت فى الدوائر الدبلوماســية « الحــرب » بين وزارة الخارجيــة الامريكية وطوكيو وأخذت حدة التوتر تتزايد على مر الايام ٠ أما بالنسبة للبحرية اليابانية فلم يكن هنــاك ما يدل على تغير العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان ٠ ثم مرت بنا الايام ونحن نقوم بواجباتنا الروتينية من تفتيش الى العاب رياضية الى تدريبات وكأن العالم مازال فى عهد السلام وعندما يتطلع الانسان الى الوراء يبدو له فى تلك الايام ان الصدق الذى ينطوى عليه المثل القائل « السلام لا يتجزأ » حقيقة ناصعة ٠ اذ لايمكن

أن تقوم دولة كبرى بحرب على انفراد الا وأن تؤدى ــ ان عاجلا أو آجلا ــ الى حرب طاحنة تجتاح أرجاء العالم • وان كانت الحروب فى ذلك الحين مازالت من شئون الدبلوماسيين • ولو استطاع الانسان أن يحكم على الحالة الدولية بالنظر الى البحرية الامريكية على الساحل الغربى لظن أنه ليس هناك متاعب ترسم خططها فى أى مكان من العالم •

وهذا لا يعنى بالطبع أن البحرية الامريكية لم يكن بها رجال بعيدو النظر ادركوا التفاصيل المذهلة للطريق الذى ستسلكه اليابان بعد استيلائها على منشوريا • ومن بين هؤلاء كان ادميرال جوزف •ك• توسج من البحرية الامريكية الذى كان من أوائل الامريكيين الذين حذروا من الامبريالية اليابانية • ولم يكن ذلك عن طريق معلومات سياسيةسطحية بل من واقع حقائق ناصعة وأرقام أعدها عالم بحرى • ومثل هذا الرجل كان الادميرال المتوفى فرانك •ه• شوفيلد ويتميز بخيال خصب وبصيره وقيادة • وكان قائد عام اسطول الولايات المتحدة المرابط فى الباسفيك ويرجع الى بعد نظره وتفكيره ــ الى حد كبير ــ استعداد بحريتنا لحركات اليابانيين فى الباسفيك وكانت ظاهرة مخاوفة تنحصر فى المشكلة الرابعة عشر للاسطول •

« والمعضلة » التى تعرض للاسطول تكون هى القاعدة أو العقيدة التى تقوم على أساسها المناورات التدريبية الواقعة تتاح فيها للضابط البحرى الفرصة السانحة لان يظهر بمظهر القائد الجدير بقيادة سفينته أو قوته فى معركة فعلية • أو قد يتضح أنه غير جدير بتحمل المسئوليات الكبرى فى معمعة القتال •

« ولمشكلة » الاسطول أهمية عظمى فى تدريب الضباط البحريين وفى دراسة المعضلات المحتملة فعلا والتى قد تواجه الاسطول • وهى بمثابة فحص هام لقوة الاسطول وكفايته بوجه عام • واختبار لمعلومات الضباط عن سفنهم ومقدار التفكير السليم وبعد النظر فى كل قيادة • وفى وقت السلم تكون أقرب مايكون للظروف وقت الحرب • ثم عن طريقها يمكن التوقع بما قد يتأتى من الاحداث المستقبلة •

وتنظيم « المعضلة » أولا اللغز فى ثلاث مراحل : فيتخيل القائد العام أزمة سياسية أو حربية. ويضع قائمة بالقوات البحرية الامريكية وكذلك قوات العدو التى تعمل فى المنطقة المعينة. وتميز قواتنا عادة باللون (الازرق). بينما تكون قوات العدو الخياليه مميزة باللون « الاسود » . وكل هـذه هى المعلومات التى توضع تحت تصرف القادة ممن هم فى رتب أقل بما فيهم قادة السفن الحربية وحاملات الطائرات والطـرادات والمدمرات . وبعد ان يتسلموا هذا البيان غير الكافى من القائد العـام كمادة أوليـة يقدرون الموقف من جميع نواحيه ويصلون الى قرار بكل التفاصيل اللازمة للقيام بهجوم ساحق على اللون « الاسود » واستخدام القوات المتـوفرة للون « الازرق » بطريقة سليمة . وهذا التقدير يشـمل ـ أ ـ مسـالك العمليات المفتوحة أمام العدو ـ ب ـ الطريق المحتمل الذى سوف يتخذه العدو ـ ج ـ كيف يمكن احباط جهود العدو والقضاء عليه . وكل هذه المواد التى تقدمها القيادات المختلفة يقوم بدراستها القائد العام ويحللها تحليلا وافيا ويختار منها مايشاء ثم ترسم الخطة طبقا لهذه النتائج وتجرى المناورات شاملة الاسطول بأكمله .

ومعضلة الاسـطول هى من الناحية التقليـدية « أغنية البطة » على ما وضعها قائد عام متقاعد ويعتبر تنفيذها ـ من الوجهة التقليدية ـ كانت عبقرية تركت لخلفه . وشرعنا فى تنفيذها فى سنة ١٩٢٠ والمشكلة الرابعة عشر هى التى تسلمنا مواردها الاولية فى أواخر سنة ١٩٣٢ لنضعهـا موضع التنفيذ فى شهر فبراير سنة ١٩٣٣ .

هذه المعضلة الرابعة عشر كان مقـدلها أن تصبح احـدى مشـكلات الاسطول الذائعة الصيت وكان تصميمها بمعرفة ادميرال شوفيلد وهو من أشهر الاستراتيجيين اللامعين الذين لم يسبق للبحرية ان أنجبت أمثالهم رجل له عقلية جبارة يحتويها جسمه النحيل . وحتى فى سنة ١٩٣٢ ادرك حقيقة الموقف وجابهه بشـجاعة . وأبدى من حـدة الذهن ودقة البصيرة ماعجز عنه بعض خلفائه فى مواقف دقيقـة وفى ظروف طارئة حقـا .

ويتضح اذن أن التعرف على المعضلات الحاليـة والماضية جزء حيوى لاغنى عنه من معدات الضابط البحرى فى ميدان الاستراتيجية والتكتيكية البحرية · وليس هناك ضابط مسئول يجرؤ على تجاهل الدروس التى يتلقاها من « معضلات » الاسطول ·

وما هى أهمية المعضلة الرابعة عشر للاسطول ؟ هنـا خمس شروط وضرورات سابقة أقرها ادميرال شوفيلد :

١ ـ الموقف الدقيق فى الباسفيك ـ حرب وشيكة الوقوع ولكنها لم تعلن بعد ·

٢ ـ العدو يلقى بضربته حيثما تركز الاسطول · (فى سنة ١٩٣٢ لم يكن لاسطول الباسفيك قاعدة فى بيرل هاربر ولكن قواعده كانت على الساحل الغربى فى موانى بوجت ساوند ـ سان فرنسيسكو ـ سان بيدرو وسان دييجو · وكانت أكبرالقوات فى الاطلنطى بما فيها قوة الاسـتطلاع وحاملات الطائرات ومن وجهة نظر الاسـطول كانت بيرل هاربر قاعـدة ثانوية تضم الغواصات التى تحتاجها القاعدة) ·

٣ ـ سيستخدم العدو حاملات الطائرات كقاعدة للقوة الضـاربة · (وهنا نقطة هامة من حيث صور الاحداث التاريخية · اذ كان التركيز على ست حاملات للطائرات كما حدث سـنة ١٩٤١ كان يعد أمرا سابقا لاوانه فى سنة ١٩٣٢ · وعلى ذلك كان من المقدر ان العدو سوف يضرب بحاملتى طائرات كبيرتين فى حراسـة ست طرادات ثقيلـة ومجموعة من المدمرات وناقلات الوقود) ·

٤ ـ قد يقوم العدو بغارات جوية على جـزر هاواى أو السـاحل الغربى قبل أعلان الحرب ·

٥ ـ اعتبـار أية قوات شرق خط طول ١٨٠ أنهـا قوات للعـدو .
(هذه تعد تنبؤات حقا . لان خط طول ١٨٠ اصبح المنطقة الحاسمة فى الباسفيك بعد عشر سنوات بالضبط حيث كانت موقعة ميدواى بالقرب منه مباشرة وحيث تقررت نتيجة الحرب العالمية الثانية فى مسرح الباسفيك) .

والاعتماد على القوة الجوية فى الحروب البحرية فى مثل هذا التاريخ المبكر يعد فى الوقت الحاضر بعد نظر سليم من ناحية القائد العام . واذا كانت معضلة الاسطول الرابعة عشر لم تسـفر عن شىء آخر فيكفى أنها اثبتت حقيقة واقعة على نطاق تاريخى وهى ان البحرية الامريكية لم تكن متخلفة فى تقديرها ولموقفها وفى تصويرها للاحداث المحتملة فى المستقبل .

ولم يكن من الصعب على القادة التابعين للادميرال شوفيلد ان يسيروا على هداه من حيث بعد نظره للامور ويعدون تقديراتهم عـلى هـذا الخط .

وقد كتبت حول تقديرى للموقف شخصيا :

١ ـ سيحاول العدو أن يؤخر ترحيل قوات الحملة فيما وراء البحار وتقدمها . القيام باغارات جوية مفاجئة على القوات المعدة والمناطق الحرجة ومنشئات القواعد كما يتيسر له القيـام بهجوم خاطف على أرض الوطن . ولم يساورنى الشك مطلقا فى طبيعة هذه الاغارة الخيالية الاولى . حتى فى ذلك الوقت ـ تسع سنوات قبل موقعه بيرل هاربر ـ توقعنا أثارة اعمـال عدوانيـة مع اليابان فى صورة غارة جوية . ومما يؤسف له أن هذه الفكرة الثابتة التى كانت تعد الطريق الطبيعى الوحيد والمفتوح أمام العدو . لم يقدرها حق قدرها القائد العام الذى كان فى سنة ١٩٤١ مسئولا عن أخطر مشكلة للاسطول لم تواجهها الولايات المتحدة من قبل .

٢ ـ لدى العدو معلومات دقيقة عن مواقع قواتنا ومبلغ قوتها ٠ ويعلم تماما موعد رحيل قواتنا من الميناء ٠ وكان هذا التقدير من الادلة الثابتة أمام بعثة روبرتس ولجنة الكونجرس المشتركة التى قامت بفحص حادث بيرل هاربر ٠

٣ ـ غير معروف بالضبط موقع العدو بالضبط ٠ ولابد أن يظل مجهولا ليقوم باغارة ناجحة قبل أن يكون عرضة لهجوم قوة مساومة له أو قد تفوقها ٠ كل قواته ماعدا ناقلات الزيوت قادرة على السير بسرعة كبيرة ٠ ومن الممكن تموين المدمرات بالوقود من حاملات الطائرات أو من الطرادات ٠ ومما يوفر رحلة بحرية فى نصف قطر دائرة لا حدود لها فيما عدا السير الطويل بأقصى سرعة ٠

« يبدو اذن أن الطرق التالية هى الطرق المفتوحة أمام العدو » :

(أ) القيام باغارة جوية على منشئات قاعدة بيرل هاربر دون أن تعترض طائراته بأى مقاومة ثم تعود طائراته الى محطاتها ٠

(ب) القيام باغارة على القوات التى تعد فى بريميرتون وعلى القاعدة والمنشئات ثم تعود مباشرة الى محطاتها ٠

(ح) مثل (ب) فقط يكون الغرض منطقة سان بدرو ـ سان دييجو ٠

(د) كما فى ب ٠ على أن يكون الغرض منطقة سان فرنسسكو ٠

(هـ) تقسيم القوات للقيام بما فى فى جـ ، د ٠

(و) كما فى د ٠ مع القيام باغارة جوية أخرى على بيرل هاربر والعودة الى المياه الاقليمية ٠

وفى ذلك الوقت كان الطريق «د» هو الاقرب احتمالا ٠ لان قواتنا كانت مركزة فى تلك المنطقة الساحلية ٠

ولكن فى سنة ١٩٤١ كانت الظروف قد تغيرت · فكان فى الساحل الغربى القليل من القوات وكان الحشـد كله فى بيرل هاربر التى كانت فى ذلك الحين بمثابة طعم هائل لاغراء اليابانيين عـلى الوقوع فى شباك ضخمة لو كانت « المعضلة » الرابعة عشر قد نالت ما تستحق من اعتبـار وافية · ولو كانت الآراء المقترحة قد احتلت أذهان القادة المسئولين · ودراسـة وافية · ولو كانت الآراء المقترحـة قد احتلت أذهان القـادة المسئولين · لكان تقدير أن الطريق السادس مفتوحا للعدو يتضمن الاشارة مباشرة الى تعرض منطقة جزر هاواى ·

ومهما كان مقـدرا ان يحدث فقد اقترحت احتمال اغارة جوية على بيرل هاربر قبل أن يعود العدو الى قواعده · اذ كانت بيرل هاربر هى الفكرة الاساسية التى توالى تكرارها فى تقديرى · وقد كتبت أقـول « ليس من شك فى مطاردة القوة المغيرة مطاردة عنيفة بعيـدا عن منطقة هواى · وفى نفس الوقت اثبتت الاستحكامات القوية فى هذه المنطقـة من طائرات وطائرات مضادة فشل الطائرات المغيرة ومخاطرتها · ثم ان مجموعة طائرات القوة الزرقاء كافية لان تكتشف اقتراب القوة المغيرة قبل وصولها للمدى الذى تبدأ منه عملها بأربع وعشرين سـاعة ومن ثم كان المفروض عدم اتخـاذ الطريق « و » الا اذا نجحت الغارة الاولية نجـاحا ساحقا وعادت طائرات « اللود الاسود » الى حاملاتها وتوقفت المطاردة فى وقت مبكر » ·

وحينما أعددت تقديرى فى سنة ١٩٣٢ كان فى قاعـدة بيرل هاربر ٣٨ طائرة وكانت تعتبر كافية « لان تكتشف اقتراب الطائرات المغيرة قبل وصولها بأربع وعشرين ساعة » الى مدى انطلاقها لغرضها · وهذه نقطة هامة فى تقدير المسئوليات كما كانت فى سنة ١٩٤١ والفشل الذى نتج من سوء تقدير تلك المسئوليات ·

وهكذا تتضح اهمية المعضلة الرابعة عشر للاسطول · اذ أظهرت أن أحدى قوات الدفاع «اللون الازرق» قد فشلت فى مهمتها وسمحت للعدو الخيالى بأن يشق طريقه الى الساحل مهما كانت قواته قليلة · وظهرت

مواطن الضعف فى ساحلنا الغربى بصورة واضحة · وأمدت البحرية الامريكية فى سنة ١٩٣٣ (عندما وضعت موضع التنفيذ بصورة فعلية) بتخطيط دقيق سابق لاوانه عن هجوم اليابانيين على بيرل هاربر فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ · كما كانت تحذيرا واضحا وضع على أساس من التنبؤ والمهارة لقائد بحرى عظيم درس ظروف اليابانيين وموقفهم فى الباسفيك · وتصورت كل امكانيات واحتمالات هجوم حدث وكان أمرا واقعا ·

وفى مؤتمر التدريب الذى عقد فى قاعة الاجتماعات فى لونج بيتش بكاليفورنيا كانت الدروس واضحة بحيث لم تكن هناك حاجة لاجراء تحليلات خلاف المناقشات المعتادة فى زمن السلم ·

ولست أدرى الى أى مدى كان للدروس التى أسفرت عنها معضلات الاسطول من التأثير على العقلية الاستراتيجية بين رجال البحرية ، فهذه المشكلات تدرس ويعاد تمثيلها فى الكلية الحربية البحرية ونتائجها متوفرة لاولئك الضباط الذين يهمهم الاطلاع عليها ·

وفى سنة ١٩٣٣ ـ ٣٤ عندما التحقت بالكلية الحربية بعد « معضلة » الاسطول الرابعة عشر مباشرة كان هناك ضابطان فى نفس الفرقة كابتن (ادميرال فيما بعد) ج ·أ· ريتشارسون والكوماندر (نائب ادميرال فيما بعد) و·وسميث · ففى نهاية هذه الدراسة عندما اتيح لكل ضابط فرصة لكى يعبر عن نفسه بأية صورة تأثرت تأثرا عميقا بملاحظات · كابتن ريتشارسون عندما قال :

« كنت أحاول الالتحاق بالكلية البحرية طيلة الخمسة عشر عاما الماضية وأخيرا حققت رغبتى · وأود ان أقول ان الضابط النابه الذى يأتى الى هذه الكلية سوف يغادرها ضابطا صالحا · والضابط الغبى الذى يأتى اليها سوف يغادرها بغبائه وحماقته · »

وعندما ركزنا الاسطول فى بيرل هاربر عندما كانت أزمة الباسفيك الكبرى سنة ١٩٤١ فى ذروتها كررنا نفس ظروف معضلة الاسطول

الرابعة عشر . ولا ندرى كيف أن الدروس التى تعلمناها من هذه المعضلة ×
لم تكن موضع اعتبار . ثم هى ليست خطأ من ناحية التنظيم . فلو بحثنا
عن السبب لوجدناه بسهولة فى أولئك الافـراد الذين يهزون أكتافهـم
ويهملون النصائح التى هى ثمرة التصور والتفكير . ولاعذر لرجل بين
يديه معضلة الاسطول الرابعة عشر جاهزة على الفور . لان أسوء المخاوف
التى يشملها تقدير مبكر تصبح حقائق واقعة ترجع فى أغلب الاحيان الى
اهمال الشروط التى تحقق النصر . والتى رسمت خطوطها فى « معضلة »
الاسطول من قبل ثم اختبرت بصورة عملية .

هذا هو الدرس الاكبر من المعضلة فيما يتعلق بالاحداث التى جرت
فى ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤١ . وعنـدما أعود بذهنى الى الوراء أتصور
معضلة الاسطول الرابعة عشر بمثابة خطاب بصوت عال لم يحدد من يستمع
اليه بالنسبة لبيرل هاربر . ومما يؤسف له انه بينما كان المسرح معدا
فى سنة ١٩٣٣ ونص الرواية مكتوب بخط واضح وكل شىء جاهز للممثل
الاول . نسى كل من الرجـل المسئول والممثلـون المسـاعدون أدوارهم
وأفسدوا تمثيل الرواية بعد مايزيد قليلا عن ثمان سنوات ...

× المعضلة أو اللغز هى الترجمة لكلمة *Problem* وتعنى الموضـوع الذى
يفترض لحالة خاصة او لموقف استراتيجى معين وتكون دعامة التـدريب للقوات
المسلحة فى موسم معين من مواسم التدريب السنوى . (المراجع)

١٤

كوماندر يوكوياما يذهب الى نيوبورت

لو سئلت أن أحدد تاريخ ابتداء الجاسوسية اليابانية فى الولايات المتحدة بمقياس سليم لقلت انه أبتدأ بين ١٩ و ٢٣ أبريل سنة ١٩٣٣ ، اذ كنا قد أتممنا معضلة الاسطول الرابعة عشر وكانت النتيجة مرضية للغاية وأصبحت حديث القوم • وبالرغم من الاحتفاظ بتفصيلات معينة فى طى الكتمان • الا أن عدة نواحى منها عرفت عن طريق الصحافة ومن أفواه المندوبين الذين حضروا التجربة ذاتها •

ولم يساورنى الشك فى أن المعضلة كانت لها أهمية لدى اليابانيين شأن كل بحرية عندما ترقب عن كثب تمرينات خصومها • ومن المستحيل الجزم بمقدار المعلومات التى حصل عليها اليابانيون أو التى كانوا يتلهفون على معرفتها • ولكن من المؤكد أنه بسبب الطبيعة السلبية لاحتياطات الأمن لدينا لا بد أن معلومات ضخمة قد دونتها المخابرات اليابانية فى دفاترها من المواد التى نشرتها الجرائد • وفى الوقع — كما سيأتى ذكره فيما بعد — حصل اليابانيون على معلومات وافية من احدى تمرينات الاسطول الكبرى سنة ١٩٣٧ وكانوا فى حاجة اليها لتكملة خططهم لمهاجمة بيرل هاربر •

وأصبح الموقف فى الشرق الاقصى يزداد خطورة فاختارت الدعاية اليابانية مستر ستمسون ليكون كبش الفداء وألقت عليه اللوم بسبب التوتر المتزايد فى العلاقات الدولية • وكانت اليابان فى طريقها الى الحرب على وجه التحديد • وقد تعلمت من المخابرات ما فيه الكفاية بحيث أدرك أن المعتدى يبدأ الحرب بزيادة أوجه نشاط جاسوسيته •

وفى وسط هذه الاعتبارات وما يماثلها فى ميدان المخابرات وقت السلم علمت بقرب زيارة فرقة تدريب يابانية تحت قيادة نائب الادميرال حنجو هاياكوتيك رافعا علم القيادة على الطراد القديم ياكومو • وبنظرة سطحية الى هذه الزيارة يبدو أن ليس هناك شىء غير عادى يكتنفها • ثم

ان السحب التى كانت تخيم فوق علاقاتنا الدبلوماسية وجعلتنــا نوجس خيفة من نشاط الجيش اليابانى لم تعكر صفو علاقاتنا الودية مع البحرية اليابانية التى كنا نعتبرها بريئة من خطط طوكيو الاستعمارية وبطبيعــة الحال بسبب الجو السائد اذ ذاك كان أدميرال هاياكوتيك فى حالة عصبية شديدة عند وصوله . فلم يكن طابع الخشونة ملحوظا فيه فحسب بل فى معظم ضباط الفرقة . وأعددنا لهم استقبالا حافلا وانتدبت بأمر الاميرال ليه القائد العام لاكون مرافقا للأميرال الزائر .

وبذلك كنت أول الضباط الامريكيين الذين صعدوا الى ظهر الطراد ياكومو عندما رسا على الرصيف رقم ٦٠ فى سان بدرو بالقرب من مدمرتى فلاحظت أن شعور اليابانيين بالشك أخذ يتلاشى شيئا فشيئــا على مر الايام لما لاقوه من مظاهر الود فى كل مكان بدلا من الجفــاء الذى كانوا يتوقعونه .

قدمت الى الاميرال الذى حيانى بلغة انجليزية ســليمة ووجدت فيه رجلا مرحا مهيب المظهر وعلى قدر من الثقافة وضابطا اجتماعيــا لطيف المعشر ومع ذلك يبدى شيئا من التحفظ فى علاقاته الشخصية ومن حيث الاستراتيجية يعد من الدرجة الاولى ومن الملمين بالشئون البحرية بوجه عام وله بخاصة معرفة وثيقة بمشاكل السياسة البحرية الامريكية . وكان يبدو أنه يميل الى الغرب بنوع خاص ويبدى اعجابه صراحة بالموســيقى الغربية . كما كان على وشك التقاعد ليكون مديرا لجامعة الامبراطورية فى طوكيو وهو أول ضابط بحرى ينال هذا التكريم فى تاريخ الثقافة اليابانية .

وقمت بواجباتى كمرافق للأميرال مراعيا بعناية البروتوكول البحرى المعتاد بينما أحرص على مراقبة الامور على قدر المستطاع .

وكانت جولة الترفيه فى اطار من العنــاية والتسلية . فأقام لويس ماير مأدبة غذاء فى اســتوديو مترو وكان بجوارى الفاتنــة جان باركر بجمالها الاخاذ وكانت نجما فى الثامنة عشر والتى استولت على الدهشة حين قرأت عن شخصيتها بخط يدها وأشرت الى أنها يجب أن تراقب تلك الضربات الخلفية أثناء سلوكها فى الحياة التى توحى اليها بالأمل . وجلست بجانبى من الناحية الاخرى جان هارلو بجمالها الرائع . ثم على مســافة قصيرة كانت تجلس ايرين دونى وقد امتلات عيونها الجميلة بالمرح والسرور وكان يوما حافلا بمناظره الاخاذة .

ولكن هذا لم يمنعني من أن أضيف الى معلوماتي وتحليلي للطابع الياباني وأخلاق اليابانيين واشتملت القافلة التي أخذتنا الى هوليوود على سيارات اقترضناها من علية القوم في لوس أنجلوس وقاموا بقيادتها بأنفسهم • فجلست في المقعد الامامي لاحداها • وكان وراءنا في الصف الطويل سيارة يقودها أحد موظفي القنصلية اليابانية • وكان الوقت متأخرا فانطلقت السيارات بسرعة ملحوظة • وأثناء اقامتي في طوكيو أتيحت لي فرصة مناسبة لملاحظة تصرفات اليابانيين الغريبة وقيادتهم بسرعة والذين اعتادوا على أن يكونوا حالمين • حيث شعرت بأسوأ مخاوفي في سيارة كان يقودها أحدهم الى يوكوهاما ـ اذ اصطدم بعربة فانقلبت • وهي احدى العربات الطويلة التي يجرها الثيران محملة بالبراميل لجمع القاذورات من المنازل وهي طريقة للتخلص منها بسبب نقص نظام المجاري

وأثناء سيرنا اليوم بهذه السرعة الى لوس أنجلوس أوضحت للسائق مضيفي رعونة السائقين اليابانيين • وقلت له مؤكدا انه عندما يريد أن يتوقف لسبب ما لا يصح أن يفعل ذلك فجأة بل عليه أن يعطي اشارة بذراعه للسائق الياباني للسيارة الخلفية • فأصغى الى حديثي وفهم كل ما قلته له • حتى اذا اقتربنا من أحد الاركان تغيرت اشارة المرور فجأة الى اللون الاحمر • واذ بالسائق يضغط على فرامل السيارة ليوقفها • فأغمضت عيني وتجمدت في مكاني خائفا أترقب الثواني حيث تقترب منا السيارة الخلفية التي مالبثت أن صدمت مؤخرة سيارتنا محدثة صوتا عاليا

والتفت الى السائق الذي كان مذهولا وقلت له في هدوء :

أرأيت ماذا كنت أعني ؟ فأومأ بطرف عينه موافقا • وكان العطب بسيطا وعلى ذلك تابعنا سيرنا • وفي هذه المرة كما نصحت أبقى السائق الخلفي على مسافة طويلة منا •

ومن وراء هذه العلاقات الودية برزت العلائم الاولى للعدوان الياباني الذي سيجيء مستقبلا ، ولما كان من المشكوك فيه أن اليابان كانت تستعد لارسال عملائها سرا الى الولايات المتحدة • وكنت أرغب في اكتشاف ما اذا كانت هذه الفرقة التدريبية قد استخدمت لجلب بعض كبار العملاء الى الشاطيء • ولم يكن اليابانيون في حاجة لابراز بطاقات تحقيق الشخصية لزيارة بلادنا على طول الساحل • وخاصة من كان منهم على ظهر البواخر الحربية • على ذلك لم يستطع أحد أن يحدد اذا كان هؤلاء الذين غادروا سفنهم بملابسهم الرسمية وأصبحوا أحرارا على الشاطيء لفترة

مؤقتة سوف يعودون فعلا الى أماكنهم • ومن السهل نسبيا على أى ضابط أن يحصل على ملابس مدنية من المدينة ثم يختفى بين أفراد الجالية اليابانية على الساحل الغربى •

فركزت عنايتى على كثير من الضـــباط اليابانيين بقدر ما أتاحت لى الظروف لمراجعة أرقامهم ووقت مغادرتهم ثم عودتهم • وكان من الصعب على فرد واحد أن يتأكد من هذه التحركات من حيث الذهاب والاياب • ولكن بعد بضع سنوات تبين لى أن شكوكى كانت فى محلها عندما علمت بنشاط المخابرات على الساحل الغربى وتأكدت أن بعض اليابانيين الذين قدموا مع الفرقة التدريبية قد فضلوا جو كاليفورنيا اللطيف على الرحلة الطويلة الى أوطانهم • وبذلك كنا كرماء لعملاء أجانب وبقينا هكذا لفترة من الزمن • بينما كانت مراجعة القادمين بصفة غير شرعية قد تسفر عن حقيقة أفراد منهم بصورة واضحة جلية •

بعد رحيل الاميرال هاياكوتاك بفترة قصيرة نقلت من المدمرة دورسى Dorsey وأمرت أن ألتحق بالكلية العسكرية البحرية فى نيوبورت • R. I. × للتدريب بعد التخرج على فن الاستراتيجية كعضو فى هيئة كبار الضباط • وتطلعت بشغف الى ما أتوقعه فى هذه السنة فى نيوبورت لاعجابى الشديد بهذا المعهد التثقيفى الدقيق وهو أرقى وأفضل معهد فى ادارة البحرية • ولما كان الاميرال سمز Sims مديرا لهذه الكلية تسنى له أن يدخل عليها كثيرا من الاصلاحات التى كان المعـــارضون يقفون فى طريقة لمنعه من توسيع دائرة البحرية • وفرض هذا العالم البحرى الشهير على الكلية مستوياته العلمية الراقية مما رفع هذا المعهد الى درجات عليـــا منقطعة النظير و « صنع » البحرية الامريكية الحديثة بادخال اصلاحات جريئة على المدفعية • وسار بالمعهد قدما رغم المعارضات القوية وبمساعدة مجموعته الصغيرة التى كان يطلق عليهــا « الاتحـــاد للقضـــاء على الجهل » وبالاهتمام الخاص الذى أبداه الرئيس روزفلت بنفسه •

والتحقت بالكلية فى ٢٦ يونيه سنة ١٩٣٣ لحضـــور الدراســـة التى تبدأ فى أول يوليه • وترقبت أنى سوف أقضى فترة تامة تريحنى من كل أنواع النشاط الاخرى • فكان من السهل أن أقوم بعملى الروتينى فى الكلية

× « رود ايلاند » الولاية التى تقع بين ولايتى كونكتيكوت ومساشوتس فى الولايات المتحدة • (المراجع)

وفى بعض الاوقات كنت أجد واجباتى تشغل كل الوقت • وطلب منى أن ألقى محاضرة عن اليابان • فقدرت طابع المستمعين من حيث التحليل والنقد • وقضيت نحو ثلاثة أشهر أعد هذه المحاضرة • وهذا بالاضافة الى اشغال كل وقتى فى الدراسة نفسها •

وفجأة فى ٢٦ من سبتمبر وجدت نفسى أعود لما أهتم به أصلا ـ العلاقات الامريكية اليابانية ـ بوصول زائر سافر عدة مئات من الاميال من واشنطن الى نيوبورت لاجراء حديث ودى معى • وكان هذا الزائر هو لفتننت كوماندر أشيرو يوكوياما من البحرية الامبراطورية اليابانية ومساعد الملحق البحرى فى السفارة بواشنجطن • ولم يؤسفنى أن تعطلت أعمالى بسبب زيارة الرجل • بل أن الاحداث جعلتنى أشعر بأنها كانت خيرا لى لانه ظل على تحفظه طيلة الحرب • ولم يحدث أبدا أن تركت فرصة تفوتنى دون أن أجرى مناقشات متماسكة مع اليابانيين ذوى الادراك السليم على أمل أن تكون ذات جدوى عندما أعود الى الوطن • فان اليابانيين الذين لايتأثرون بالمنفعة الشخصية والذين قضوا فترة كافية فى هذه البلاد ليكونوا لانفسهم فكرة عن عظمتها وقوتها يفطنون بذكائهم الى أن اليابان سوف يطاح بها اذا ما دخلت فى حرب مع الولايات المتحدة • وكانوا يحاولون عادة نقل هذه الفكرة الى بلادهم مع وجهة نظر الى الدخول فى مجادلات بين البلدين بطريقة لا تؤدى الى الحرب • ولم يكن هذا التصرف لمحبة خاصة للولايات المتحدة بل لانهم اعتبروه الطريق الصواب • وبعضهم أسيئت معاملتهم فيما بعد لانهم حاولوا استخدام نفوذهم فى هذا الصدد •

وكان بينى وبين كوماندر يوكوياما علاقة يسودها الود والبهجة وقال أنه يقصد من رحلته هذه قضاء فترة سرور وانشراح قبل عودته الى اليابان • ولكن هذا الدافع الذى ذكره كان موضع شك •

فأعددت حفل كوكتيل تكريما له حيث أثبت أنه ضيف ظريف رقيق الحاشية • وفى اليوم التالى مهدت الطريق لحديث صريح معه بأن دعوته للنزهة فى سيارة لمسافة طويلة وقبل دعوتى على الفور • وأثناء سيرنا على طول جبهة المحيط الخالية تحول ناحيتى وسألنى :

« ما هى الاجراءات التى تظن أنها توجد شعورا وديا أكثر بين اليابان وأمريكا ؟ » •

وواصلنا السير الى أن جئنا الى بقعة هادئة نطمئن فيها فأوقفت السيارة • وفى هذا الهواء الطلق جرت بيننا محادثة كانت لها أهمية

عظمى بعد مضى اثنى عشر عاما · ففى سـنة ١٩٤٥ كان يوكوياما برتبة الاميرال وكان وزير البحرية اليابانية فى تلك الايام التى انتهت بتسليم اليابان · وكان كبير الضباط البحريين فى مانيلا لعمل اجراءات التسليم الاولية · وفى ١٦ يونيه سنة ١٩٤٥ جعلتـه محورا تدور حوله اذاعتى السابعة الى اليابانيين مما كان له أثره فى اظهار أنه الشخص المقبول لدينا ·

وفى نيوبورت فى سنة ١٩٣٣ ونحن فى السيارة معا قلت له أن هناك حاجة ملحة لمناقشة صريحة تمكن اليـابانيين من الوصول الى أن يفهموا أمريكا فهما صحيحا ·

وأجبته على سؤاله « ليس للولايات المتحدة أغراض وأطماع فى الشرق الاقصى · والقوم هنا يميلون الى الجراءة والصراحة · ويرغبون دائما فى الاخذ بيد الضعيف · وليس لهم أية أفكار عدوانية نحو اليابان · فهل يمكن أن يقال ذلك أيضا عن اليابانيين ياكوياما ـ سان ؟ » ·

وقال فى حرج واضح « ماذا تظنه واجبا على اليابان لتصنعه ؟ » ·

فقلت فى حزم وثبـات « أولا · يجب أن توقف فورا حملة اليابان للدعاية ضد الامريكيين · هذا هو الشىء الذى يقلقنى أشد القلق · وبعض الشبان عندكم ممن يسمون الوطنين قد يقومون بعمل طائش كموضوع باينوكاى الذى يؤدى الى قيام النزاع بين أمريكا واليابان · وأنت تعلم حقا أن ليس هناك نزاع حقيقى بين اليابان وأمريكا · كما تعلم أن حربا تنشب بين البلدين سوف تؤدى الى القضاء على اليابان · ولا شىء يسعدنى أكثر من أن أرى هذه الحقيقة بعينها على صفحات جريدتكم المشجعة على الحروب عندما قالت أن قيام الحرب بين اليابان والولايات المتحدة أمر يدل على الغباء · واذا كنت أذكر جيدا فقد كتبت فعلا تقول « وأنه سوف يؤدى الى دمار الدولتين وعلى الأخص اليابان » · كما يجب علينا أيضا أن نرقب بعناية الامم الاخرى التى تستفيد من حرب تقوم بين البلدين » ·

وقاطعنى يوكوياما قائلا « نعم · أذكر هذه المقالة » ·

وسألته « الآن اذا كان هذا هو الشعور الحقيقى فى اليـابان فلماذا تصرون على هذه الاحاديث المعادية للامريكيين فى جرائدكم ؟ وكل منـا يعلم جيدا أن حكومتكم تشرف على الصحافة وتستطيع أن تضع حدا لمثل هذه الشئون فى أى وقت تشاء » ·

فقال فى شبه تنهد « نعم • أن بحريتنا تحاول أن تكبح جماح الجيش الذى يشجع هذه الحملة الصحفية » •

« وهناك شيء آخر • فمن واجب اليابان أن تتخلى عن فكرة محاولة زيادة معدل قوة الاسطول • لان الامريكيين يشعرون بأن النسبة بوضعها الحالى هى نتيجة لدراسة طويلة لمشاكل الدفاع فى بلادنا • وقد ضحينا بالشيء الكثير فى سبيل تحديد الاسلحة • فما هو اعتراض اليابان على بقاء النسبة على ما هى عليه ؟ » •

وهنا ساد الصمت لحظة وتطلع يوكوياما الى امتداد البحر كما لو كان يستوحى الاستعداد من طيور البحر التى تحلق على مسافة بعيدة • ثم تحول الى قائلا :

« اليابان تخشى أمريكا فى الوقت الحاضر » •

فكررت كلماته فى دهشة طبيعية « اليابان تخشى أمريكا ! لنرى ماهى هذه المخاوف ثم نقوم بتحليل كل منهـا على انفراد • فما هـو أول شيء تخشاه ؟ » •

قال يوكوياما « اليابان ترى أن الولايات المتحدة تطالب بنسبة أكبر مما قدر لليابان • وهى لا ترى أى سبب يدعو لذلك سوى أن الولايات المتحدة ترغب فى أن تكون فى مركز يمكنها من مهاجمة اليابان » •

وحاولت أن أوضح له الاسباب التى دعت الولايات المتحدة لاتخاذ قرار بتقدير هذه النسبة فسألته : « هل تعلم أنه خلال الحرب العالمية بدا الامر كما لو كانت الولايات المتحدة ستدخل فى حرب مع انجلترا ؟ ذلك لان الولايات المتحدة لم تحتمل أبدا مبدأ تقييد حركة التجارة البحرية — حرية البحار • وفى ذلك الوقت تلقينا درسنا • ويجب أن تذكر أن كل حرب تقريبا خضنا غمارها كانت بسبب هذا الموضوع • وخلال الحرب العالمية عارضنا فى تحديد وسائل دفاعنا الى درجة بحيث تستطيع دولة أخرى أن تحرمنا من حقنا فى حرية البحار • ومع كل التعب الذى تكبدناه من أجل هذا المبدأ هل تنتظر منا أن نوقع على معاهدة تعود بنا الى النقطة التى بدأنا منها ؟ » •

فأجاب يوكوياما « لا • ولكن لماذا تحصل الولايات المتحدة على نسبة ١٠ بينما تحدد نسبة اليابان الى ٦ ؟ » • وكان هذا سؤالا هاما ادركت فى

الحال أنه من ثمرات الدعاية اليابانية . فلم يكن سـؤالا عابرا فى ذهن يوكوياما بل راسخا فيه . وحاولت فى اجابتى أن أنور يوكوياما كما أرد على الدعاية اليابانية . على أمل أن يحمل جوابى هـذا معه الى الدوائر المختصة فى اليابان . وعلى ذلك أعددت اجابتى لتفى بهذا الغرض وتحتوى على حقائق تساير العقلية اليابانية .

وقلت : « دعنا نرى ما يجب على اليابان والولايات المتحدة أن تقوم كل منهما بالحفاظ عليه . ففى وقت توقيع المعاهدة الاخيرة كانت الولايات المتحدة لديها تجارة فى الشرق الاقصى تقدر بنحو اثنين بليون دولار بما فى ذلك استراليا وما حولها . ومن ذلك الحين نقصت هذه التجارة الى حد أقل بكثير منها فى أنحاء أخرى من العالم . وكانت اليابان ولا تزال لديها قسط ضئيل جدا من هذه التجارة مع الولايات المتحدة مما تحتاج لحمايته فى هذا الجانب من الباسفيك . وأنت كاستراتيجى بحرى سوف تدرك على التحقيق أن أية قوة بحرية لكى تحمى خطوط مواصلاتها التى تمتد سبعة آلاف ميل من أرض الوطن لن تستطيع ذلك الا بقوة نسبتها على الاقل ١٠ : ٦ من الدولة التى تشكل تهديدا لتجارتها مهما كان هذا الخطر يبدو بعيدا فى الوقت الحاضر . اذن يكون للولايات المتحدة ٢ بليون دولار لحمايتها فى الشرق الاقصى بينما ليس لدى اليابان شىء تحميه فى هذا الجانب من الباسفيك . فهل ليس معقولا أن نطالب بهذه النسبة اللازمة لحماية مصالحنا الخاصة ؟ » .

فلم يقتنع يوكوياما بذلك مطلقا . وسأل مطالبا :

« ولكن لماذا لم تطالبوا بنسبة تزيد عن قسط انجلترا ؟ لماذا تريدون أن تكون نسبتكم أكبر من اليابان فقط ؟ » .

« لان انجلترا لديها مثل هذا القدر على هذا الجانب من الاطلنطى كما للولايات المتحدة على الجانب الآخر . وفى الحق أن البحرية الملكية تعـد صغيرة جدا بالنسبة الى شعاب البحار التى عليها أن تقوم بحمايتهـا . وسوف تتفق معى على أن الاساطيل يجب تقديرها وفقا للارقام نسبية . وأعنى فيما يتعلق بالتزاماتهافىحدود الاميال حيث تمتد مصالحها البحرية» .

وقال يوكوياما متسائلا : « وهل تقنع الولايات المتحدة بهذه النسب كما هى الآن فى الشئون الاخرى ؟ » وأجبتـه « أظن ذلك » . وتوقفت قليلا ثم أضفت « وما هو الامر الثانى الذى تخشاه اليابان ؟ » .

« لقد بدأت فجأة فى برنامج طويل للبناء . لماذا ؟ » .

« لست أعتقد أن أى شخص ينكر أن المعاهدة تعطينا وتعطيكم وأية دولة أخرى الحق الادبى فى أن تهيىء أنفسنا لها متى شئنا . أليس هذا صحيحا ؟ » .

« نعم » .

ومضيت أقول « من وقت المعاهدة واليابان وانجلترا تقومان ببناء السفن . ولكن الولايات المتحدة لم تشرع فعلا فى انشائها . وقد يكون الغرض من ذلك أن تكون مثالا لغيرها من الامم . وفجأة وجدنا البلاد فى حالة تأخر وأن كثيرا من الصناعات تقوم وتزدهر عن طريق بناء السفن . وعلى ذلك قررنا انشاء بعض السفن طبقا لما تقتضيه المعاهدة . وأثار هذا ضجة فى كل من انجلترا واليابان بالرغم من أنهما كانتا فى سبيل انشاء السفن بينما كانت أحواضنا فى حالة ركود. فهل هناك ما يبرر شكواهم ؟ وكما هو الحال الآن ــ حتى فى سنة ١٩٣٥ ــ تكون الولايات المتحدة متأخرة جدا عن القدر المحدد لها بعدد ١٠١ من السفن . بينما انجلترا لا ينقصها سوى ٦٤ واليابان ثمانية فقط . أليس كذلك ؟ » .

فقال يوكوياما متأثرا بالحقائق والارقام التى ذكرتها « أظن أن هذا صحيح » . ونسى أننى أقوم بواجباتى فى جولة للكلية العسكرية البحرية حيث ندرس الدبلوماسـية البحرية . وقلت له : « حسنا . واذا كنت تتفق معى . فهل لا تزال تظن أن هناك أى احساس للمخاوف فى هـذا المجال ؟ » .

وقال « لا . ولكن أسطولكم مرابط فى الباسفيك مما يدعو القوم فى اليابان أن يظنوا أنه مركز هناك ضدهم » .

« نعم . أن اسطولنا فى الباسفيك . ولكن دعنى أذكر لك السبب فى ذلك . أن بحريتنا تحاول من سنين أن تجمع شتات الاسطول فى بقعة واحدة لكى يقوم بتدريبات مناسبة . ولكن أفرادا معينين فى البلاد تغلبوا على هذه الجهود وجعلوا وحدات الاسطول متفرقة لاجل صـالح مناطقهم وموانيهم . وليس لديكم هذا النوع من النزاع فى اليابان . وماذا يصنع افتخاركم بمهمتكم اذا مررتم بهذه التجربة ؟ سوف تفعلون كما فعلنا

بالضبط بأن تجمعوا وحدات أسطولكم لكى يحقق الغرض المطلوب ٠ وهذه هى مهمتكم وعملكم فى الحياة ٠ فهل تقفون مكتوفى الايدى وتنظرون الى الهيئات المحبة لنفسها وهى تسبب للاسطول الركود والضعف ؟ أنكم لن تفعلوا ذلك ٠ والآن وقد جمعنا أشتات أسطولنا لاول مرة فى التاريخ تحاول اليابان أن تعمل على تفرقته ثانيا بالمطالبة بارسال جزء منه الى الساحل الشرقى ٠ ولقـد رأيت اليوم نوع الطقس الذى نعيش فيه فى نيوبورت ٠ وهو نفس الجو بل أسوء منه على طول الساحل ٠ ومنذ مجيىء الى هذه المناطق لم نشاهد شيئا سوى المطر والضباب ٠ فالى أى مـدى تستطيع الرؤية فوق سطح الماء ؟ وهذه هى احدى قواعدنا « الجميلة » على الساحل الشرقى ٠ وعند رؤوس كاليفورنيا تجد نفس الظروف : الضباب والجو المكفهر ٠ وعلى ذلك الى أين يذهب أسطولنا ليقوم بتدريباته ؟ » ٠

فقال يوكوياما فى شىء من الحزم « الى جوانتانامو » ٠

« نعم ٠ ولكن كم من ضباطنا ورجالنا من يستطيع البقاء هناك أكثر من ثلاثة أشهر فى السنة ؟ ومعظمهم من أرباب العائلات الذين يرغبون فى الحياة المنزلية أكثر من بعض الجنسـيات الاخرى ٠ فاذا قضينا ثلاثة أشهر فى جوانتانامو يتبقى لدينا تسعة أشهر نقضيها فى التقاعد والخمول٠ وهل تطلبون منا أن نفعل ذلك ؟ » ثم توقفت لحظة لكى تدخل هذه الآراء فى ذهن يوكوياما وسألته « وهل هناك أية مخاوف ؟ » وكان السؤال فى شىء من المزاج ولكن يوكوياما أخذه مأخذ الجد فقال :

« يستدل من التاريخ على أن الولايات المتحدة دائما تتقدم نحو الغرب٠ فهل هذا لا يدل على أن اليابان لديها ما تخشاه ؟ » وأجبته :

« لماذا ٠ لبس ذلك مطلقا ٠ دعنا نحلل ما يسمى تقدمنا نحو الغرب ٠ لقد كنا فى حرب مع أسبانيا ٠ وفى ذات مرة وجدنا الفلبين تحت رعايتنا٠ فلولا السياسة العدوانية لاسبانيا التى دفعتنا الى الحرب لكنا أعدنا اليها الفلبين فى الحال ٠ ولكننا فكرنا فى أهل الفلبين وفى تمهيد الطريق لهم للوصول الى الحكم الذاتى ٠ ومع ذلك فقد أعطينا أسبانيا عشرين مليونا من الدولارات ٠ ثم هنـاك جوام ٠ وأظن أنك تعلم ــ كمـا أعلم ــ أنهـا لا تساوى شيئا » ٠

ولاول مرة تلاشى التوتر بيننا عندما انفجر يوكوياما ضاحكا وقال :

« نعم • أنها لا تساوى شيئا » •

« ثم هواى التى كان تقدمنا هناك بناء على طلب سكانها الذين ازدهرت حياتهم وأصبحوا سعداء من ذلك الحين • وعلى ذلك • فأنت ترى أن تقدمنا كان فى الواقع نتيجة لقوة دفعتنا من الوراء » •

فقال يوكوياما وقد بدت عليه مظاهر الارتياح « هذا أمر يستحق عناية تامة » ولكن كيف تنقل هذه الامور التى ذكرتها لى الى القوم فى اليابان ؟ على ملاحظة أن مخاوفهم حقيقية وتزداد يوما بعد يوم عن طريق ما يسمون الخطباء الوطنيين وبما تكتبه الصحف » •

وأجبته : « يجب أن يكون ذلك بالتدريج لان اذهان مواطنيك بحالتها الراهنة قد لا تتأثر اذا نقلت اليهم على وجه السرعة • وأظن أن كثيرا من رجال السياسة فى اليابان يدركون حقيقة الموقف ولكنهم لا يرغبون فى كسب ثقة الاهالى •

« هل تظن أن بعض رجالنا البارزين اذا جاءوا الى الولايات المتحدة قبل مؤتمر نزع السلاح القادم لاجراء محادثات حول هذه الشئون ثم يعودون الى اليابان لعرض نتيجة محادثاتهم على المواطنين • يكون ذلك بمثابة تسهيل للموقف ؟ » •

وسألته : « أيكون رجلا مثل أدميرال نومورا ؟ » •

فأجاب فى حماس : « نعم رجل مثل أدميرال نومورا » •

« أظن أنه شيء رائع اذا جاء هنا ومعه آخرون لاجراء محادثات ولكن يجب ألا يفتحوا باب المناقشة حول موضوع الاسلحة بل يتناولون الامور التى تحدثنا بشأنها فقط فى صراحة ودون تحفظ » •

ولاذ يوكوياما بالصمت وهو يفكر بضع لحظات ثم تحول الى وقال بشعور طبيعى :

« هذا الحديث هام ومفيد للغاية • وأود أن أتناول هذا الموضوع فى أحاديث كثيرة قبل عودتى الى اليابان فى الشهر القادم لانى أريد أن أبذل ما فى وسعى لخلق شعور ود وصداقة أكثر بين اليابان والولايات المتحدة » •

فقلت له : « هذه هى الطريقة الوحيدة لتحقيق الغرض • وانى متأكد أنك لاحظت الشعور بالود الذى أبداه القوم هنا بعد ظهر أمس • الرجال منهم والنساء • اذ كان الجميع مبتهجين برؤياك والحديث اليك • وبعضهم زاروا اليابان من قبل والبعض الآخر لم يتيسر له ذلك ولكن الكل سواء فى الترحيب بك • ثم أنك تعلم تماما أن مظاهر الشعور فى الساحل الغربى هى نتيجة لمشاكل اقتصادية محضة وأنتم تعالجونها فى اليابان بنفس الطريقة وخاصة من حيث اتجاهكم نحو عمال كوريا والصين • وعلى ذلك فان القوم عندكم الذين يدركون كنة المشكلة ووفقوا الى طريقة لحلها يجب أن يعملوا على منع هذه المسائل من الظهور فى أضواء أخرى باثارة الكراهية بين شعوب الدولتين » •

عدنا الى نيوبورت واستأذن يوكوياما وانصرف • وكان يبدو عليه فى أول الامر شيء من التوتر والضيق • ولكن هذه المظاهر اختفت الآن • اذ أصبح صديقا مرحا هادىء البال • وفوق كل شيء بدا أنه مقتنع بما ذكرته له • ولكن يوكوياما كان فردا واحدا من اليابانيين • ولو أن له بعض التأثير بوصفه قد أمضى بعض الوقت فى الولايات المتحدة وكان يتميز بالذكاء بحيث استعرض الموقف بذهن متفتح • الا أنه لم يحقق كثيرا من النجاح عندما واجهته أمور شاذة عند عودته الى اليابان •

ومع ذلك فقد التحق بمجموعة فى البحرية اليابانية حيث شاركوه آراءه ومعتقداته • وكانت هذه المجموعة برئاسة أدميرال يوناى الذى كان يحضر مجتمعاتنا خلال الايام الماضية فى قاعة الشاى بشيمباشى عندما كنا نناقش نفس المشاكل مع نومورا وناجانو • ومن الرجال الثلاثة احتفظ اثنان بمعتقداتهم الاصلية ومعارضتهم لاثارة حرب ضد الولايات المتحدة • وأما الثالث أدميرال ناجانو فقد اشترك مع محدثى القلاقل وأصبح بعد ياماموتو أكبر مشجع للحرب ضدنا • ولكن أدميرال يوناى تمكن من استعادة نفوذه • ولو أنه خسر معظم كفاحه من أجل السلام فقد كسب آخر جولة له عندما تمكن من تمهيد الطريق لتسليم اليابان • وكان يوكوياما بجانبه فى تلك اللحظة وربما كان يعيد على سمعه مقتطفات من مناقشتنا على شاطىء البحر فى نيوبورت منذ بضع سنوات •

١٥

فى قبضة الجواسيس

يتبـادر الى ذهنى أن عنوان هـذا الفصل يوحى برواية تمثيليـة ـ والكلمات مقتبسة من نفس المجـلات التى نددت بها فى صفحة أخرى ٠ ولكن اذا كان عنوان الفصل يدل تقريبـا على الروايات التمثيلية فكذلك كانت السنوات أمامى عندما حدث لاول مرة منذ الحرب العالمية الاولى أن وقعت الولايات المتحدة ثانية فى قبضة الجواسيس ٠ وعندما يصل عملاء العدو الى بلاد مسالمة على حين غفلة يكون ذلك دلالة ـ غالبا لا يعتد بها ـ على أن هذه الدولة قد وقع عليها الاختيار لتكون هدفا عسكريا ضمن خطط الدولة المعتدية ٠ وذلك لان الجواسيس تسبق الجيوش المهاجمة والاساطيل الجوية ٠ وظهورهم فى الميدان يكشـف أمام المراقب اليقظ الخطط التى رسمت فى الدول الاجنبية وراء الابواب المغلقة على هيئات أركان الحرب ٠ وقد امتلات فرنسا بالجواسيس الالمان منذ سنة ١٨٦٠ استعدادا لحملـة سنة ١٨٧٠ ـ ٧١ ٠ كما ازدحمت بلجيكا بالعملاء الالمان فى سنة ١٩١٢ ـ ١٣ ٠ وكان كثير من عملاء النمسا فى الصرب سنة ١٩١٣ ٠ وكان واضحا اذ ذاك أن هذه الدول قد اختيرت لان يغزوها البروسيون والريخ الالمانى ومملكة النمسا والمجر ٠ كذلك كان واضحا أمامى فى سنة ١٩٣٤ ـ ٣٥ أن الولايات المتحدة كانت فى مقدمة أمانى اليابانيين والالمان عندما لاحظت تدفق عملائهم على هذه البلاد فجأة وازدياد أوجه نشاط التخريب ٠

بعد غياب ثلاثة سنوات تقريبا قضيتها فى البحر وفى الكلية العسكرية البحرية عدت الآن الى ما أحب أن أسـميه موطنى الطبيعى ٠ فقد كانت وظيفتى القديمة فى انتظارى فى وشنطن كرئيس لقسم الشرق الاقصى فى ادارة المخابرات البحرية ٠

وعندما غادرت فى سنة ١٩٣١ تركت ورائى قسما يعوزه الموظفون ومثقلا بأعباء كثيرة ٠ وكان يحزننى أنه لا يعد جزءا فعـالا حقا من نظام

دفاعنا • ولكن الآن فى سنة ١٩٣٤ وجدت الجو مختلفا اذ كانت هناك نسمات منعشة تملا قلاع المخابرات البحرية لاول مرة • واختفت آثار التخلى عن التزاماتنا بوصفنا قوة بحرية كبرى • وكانت الادارة البحرية متيقظة تماما لتحمل مسئولياتها فى خط الدفاع الاول عن البلاد • وبالرغم من عرقلتها عن طريق بعض عناصر هدامة وخاصةفى الدوائر الدبلوماسية • وعدم المبالاة التى كانت تسود بعض أقسام الكابيتول فقد كانت البحرية فى طريقها الى التقدم بأقصى سرعة تستند الى تأييد البيت الأبيض ومن به من المهتمين بالبحرية •

وشمل التغيير كل مكاتب الادارة البحرية ولكنه كان أوسع مدى • فى المخابرات • وكان على رأسها رجل مثالى فى وضع الخطط عرف بأنه لا يتحمل مظاهر الغباء والخمول فبث فى تابعية روح الحماس التى امتلات بها جوانحه وأضاء الطريق لتحقيق أعمال مجيدة • وذلك بما تميز به من عبقرية ونشاط واتقان في أداء الواجب • وكان هذا الرجل هو القبطان وليم دلورث بولستن • أحد القليلين المشهورين من مديرى المخابرات البحرية والتقدم الذى حققته الادارة تحت رئاسته يبدو الآن واضحا فى كل ناحية من أوجه نشاط المخابرات • وذلك لانه أدرك كيف يسير على أسس عملية فى الاضطلاع بمهمات كانت خاملة فى عهد من سبقوه • فتسنى لنا أن ننفذ ما يجول بخاطرنا من آراء طالما كانت تهدف الى البناء • وكان على استعداد لتحمل المسئولية اذا ما زلت بنا القدم فى طريق قيامنا بالابحاث • وخلال تلك السنوات كانت المخابرات البحرية مغتبطة باتساع دائرة نشاطها • كما كانت تلك الفترة أعظم عهود التقدم والتطور فى ميدان المخابرات •

وكان أمامى عمل كثير عندما عدت الى مكتبى فى قسم الشرق الاقصى • ووجدت معى عددا كافيا من الموظفين لتأدية الواجبات الملقاة على عاتقنا • وبألقاء نظرة عابرة لفحص أوجه النشاط التى كان القسم منهمكا فيها اقتنعت بأننا على أبواب معركة مع الجاسوسية • فقد كنت فى السنوات السابقة أركز اهتمامى بالمخابرات على نواحيها الايجابية • ولكن الآن وقد وجه « العدو » عملاءه ضدنا أصبحت مع رجالى من أفراد الجاسوسية المضادة • فبدلا من السعى لجمع معلومات عن شئون « العدو » • أصبحنا نسعى لمنعه من جمع معلومات عن شئوننا •

بعد وصولي وشنطن بفترة قصيرة أرسل الينا أحد المخبرين كتابا يابانيا يدل دلالة مقنعة على أن الولايات المتحدة تسد طريق التوسع الياباني ٠ ويبدو لاول وهلة أنه كتاب عادى لا ضرر منه ـ كتاب لتسلية الاولاد والفتيات في اليابان ٠ كما يستمتع أطفالنا بقراءة مغامرات « ساحر اوز » ٠ ولكن نظرة فاحصة لهذا الكتاب البسيط تكشف لنا عن أن به نوعا مختلفا من الترفيه والتسلية ٠ اذ يكشف الستار ـ بصورة صادقة ـ عن خطط اليابانيين في المستقبل بأوضح ما رأينا حتى ذلك الحين ٠ وخاصة في صوره الايضاحية التي تدل على طموح خصومنا ٠ فترى فيه خريطة يقف عليها ولدان يابانيان ومكتوب فوقها « الخريطة الجديدة للامبراطورية » ٠ ويبدو الولدان في هيئة عسكرية ٠ يرتدى أحدهما ملابس الجيش وعلى رأسه خوذة من الصلب والآخر في زى البحرية ٠ وكأنهما يهتفان في سعادة ظاهرة ٠ ويحمل كل منهما سلاحه مرفوعا وفاغرا فاه في حماس واضح ٠ والخريطة التي يقف عليها الولدان تحيط بالباسفيك كله من جزرالفلبين الى سان فرنسيسكو وجزيرة مير ٠ وهناك أعلام يابانية صغيرة عليها الشمس المشرقة تدل على مواضع الاقدام في طريق الغزو الياباني ٠ ويرفرف أحدها على البقعة حيث جزر الفلبين ٠ وآخر على جوام ٠ وثالث على جزر هواى ٠ والرابع على سان فرنسيسكو ٠ وعلى الفلبين وهواى كان يقف أحد الولدين في زيه العسكرى ٠ بينما وضع الآخر الذى كان في زى بحرى أحد قدميه على جوام والآخر على جزيرة مير ٠ وذلك رمزا للمهام المختلفة لكل من الجيش والاسطول ٠

وبعد أن درست محتويات هذا الكتاب وفهمت مغزاه أوصيت بارسال الاصل مع ترجمة كاملة الى البيت الابيض حيث عرضت المعلومات على الرئيس روزفلت في الحال ٠ فاذا كان هناك أمل في أن اليابانيين ما زالوا يهدفون الى السلام أو لا تزال هناك مظاهر للخداع فان هذا الامل قد تلاشى الآن بالاطلاع على هذه الصورة٠ وكان الكتاب موضع دهشة واهتمام لدى الرئيس وما من شك في أنه كان له أثر في تشكيل سياستنا المستقبلة التي كانت نتيجتها أن ألقى خطابه في شيكاغو الذى اشتهر باسم خطبة « الحجر الصحى » اذ اقترح فيه أن نعمل على عزل المعتدين ٠

وكانت هذه الخريطة بالنسبة لنا في قسم الشرق الاقصى من المخابرات البحرية بمثابة دعوة البروجى للقيادات العامة ٠ وأكدت لنا وجود الخطر الذى يواجهنا حتى في ذلك الحين ٠ كما رسمت لنا خطوط المهمة التي

علينا أن نقوم بها • ولكن بينما كان تركيز اهتمامنا على الخطر القادم من الشرق الاقصى • كان لابد أن ندرك فى عزم شديد أن هناك شركا يعد للولايات المتحدة بمعرفة عناصر التخريب التى أطلقها علينا الجانب الآخر ـ من ألمانيا الهتلرية التى اشتركت مع اليابان فى حرب سرية ضد الولايات المتحدة •

جاءنى كتاب بخط اليد ومعه هذه الكلمات : « الى القبطان اليس •م• زخارياس • البحرية الامريكية • اذا استحسنت هذا • فسيكون ذلك موضع أعظم ثناء وتقدير » • وأعدت قراءة الفقرة الآتية :

« ليس فى حكومة الولايات المتحدة فى هذا الوقت أحد يعلم بأنه لدينا حلقة تجسس للنازى • أو حتى يشتبه فى ذلك • كما لا يعلم المكتب الفدرالى للمباحث أو المخابرات الحربية الامريكية • فلماذا تأتمر ألمانيا النازية ضد أمننا القومى ؟ » •

والذى كتب هذه السطور هو من أفضل رجال المباحث فى المكتب الفدرالى ـ تلك الادارة الاستثنائية فى المحافظة على القانون ـ وهو ليون •ج• تورو • ومن الممكن فى سنة ١٩٣٥ لم « تشتبه هذه السلطات فى وجود حلقة تجسس للنازى فى الولايات المتحدة • فاذا كان ما قرره صحيحا وأن المكتب الفدرالى و G-2 كانا غافلين عن اجراءات التجسس التمهيدية فان ذلك يدل على مبلغ رضانا عن أنفسنا من حيث مقاومتنا لعملاء النازى • وأما من حيث منظمتنا ـ المخابرات البحرية ـ فقد كانت تعلم فعلا بوجود حلقة تجسس للنازى الذين أتاحوا لنا ـ أكثر من اليابانيين ـ هذه المهمة الكبرى فى سنة ١٩٣٥ •

وفى ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٣٥ كانت السفينة « أوروبا » ـ فخر البحرية التجارية الالمانية ـ على وشك أن تقلع الى برمن • وكانت مرساها فى نيويورك زاخرة بالركاب والاقارب والاصدقاء والموظفين والمفتشين كما هى العادة فى كل رحيل لها • وأرسلت باقات الزهور الى غرف السفينة ووصلت طرود الركاب المغادرين وامتلات القمرات بفئات المودعين وصعد الى ظهرها أفواج المودعين للتعبير عن شعورهم وليقولوا « سفرا سعيدا » • وقبل رحيل الباخرة مباشرة كان من بين الزائرين رجل نحيف يضع

منظارا على عينيه ويحمل فى يده صندوقا للكمان وهو يصعد الى ظهر السفينة • وكانت ادارة الجمارك من أكفأ أجهزتنا الحكومية فأوقفته على السطح وسألته :

« أى نوع من الكمان معك فى هذا الصندوق ؟ » •

وتناول الرجل الصغير هذا السؤال فى هدوء كما اعتاد التساهل فى مثل هذه الظروف المرحة • وأجاب دون مبالاه « انها كمان عادية ليس الا » وسأله الحارس كما لو كان الامر مصادفة :

« هل الامر كذلك ؟ انى من المغرمين بآلات الكمان فهل تسمح لى أن أراها ؟ » •

وفى حالة عصبية فتح الرجل صندوق الكمان وكانت فى مكانها • ولكن عندما رفعها الحارس من موضعها رأى تحتها مجموعة من صور الطائرات الامريكية وبعضها فى مرحلة التجربة • فظهرت على وجه الحارس أمارات الجد اذ اتضح لهذا الموظف الصغير الوصى على القانون أن القدر قد ساق اليه جاسوسا • وبعد أن أعاد الكمان الى موضعها وأغلق الصندوق أشار الى الرجل فى هدوء أن يتبعه • وغادرا السفينة وتوجها الى مكتب على رأس الرصيف حيث استدعى الحارس رئيسه وتم اعتقال الرجل ثم اتصل بمخابرات الجيش فى جزيرة الحاكم •

ولم يكن رئيس مكتب الامن موجودا فحضر فى الحال أحد مرؤسيه لتفتيش الرجل وما معه من الصور • ولكنه لم يكن سوى جندى لا يقدر أهمية وظيفته حق قدرها • وكان الموقف مثيرا بالنسبة اليه فاستدعى أحد الضباط من الامن قبل أن يقرر شيئا • وتوتر الموقف اذ شعر الرجل الذى يحمل صندوق الكمان بأنه سوف يلاقى صعوبات شديدة وأن لعبته الصغيرة ستكون نتيجتها الخسه والدناءة عندما ينكشف أمره كجاسوس • وكان الحزن البادى على وجهه يدل على أنه لا يزال يتعلق بخيط رفيع من الامل وخاصة عندما رأى الضابط الامريكى يدخل مكتب الجمارك لاجراء التحقيق • وسأله الضابط :

« ما اسمك ؟ » •

وتردد الرجل لحظة يفكر فيما يعود عليه من الادلاء باسم غير حقيقى . ولكنه أدرك أن الامر قد انتهى فقرر أن يظهر بمظهر التعاون بقدر ما يستطيع عسى أن ينجو بحياته . وأجاب :

« وليم لونكوسكى » ودلت لهجته على أنه ألمانى .

« حسنا يا مستر لونكوسكى . ما هى هذه الاشياء التى تحملها ؟ » ونظر الضابط الى صور الطائرات وأخذ يفكر فى الامر لحظة . ثم تحول الى الحراس ـ وكانت أشد مفاجأة لكل من كان حاضرا حين قال :

« لست أرى أى شيء خاطئا فى هذه الصور . أى فرد يستطيع الحصول عليها » ثم تحول الى الرجل وقال له : « نستطيع أن تنصرف » .

ولم يدر الرجل ماذا يصنع فى هذه الحالة اذ كان يشتبه أن فى الامر مراوغة له وأنهم يحتالون عليه حتى يغادر المكان ثم يطلقون النار عليه ويفسرون هذا التصرف بأنه كان يحاول الهرب . وتلك هى الطريقة المفضلة لدى الشرطة السرية فى ألمانيا . وعلى ذلك لم يتحرك من مكانه وبدأ يحدق فى الضابط وكأنه لم يصدق ما قيل له ولم يؤمن بما سمعه . فشعر الضابط بشيء من الضجر واعاد كلماته متسائلا :

« ألم تسمع ما قلته لك بأنك تستطيع أن تنصرف ؟ » .

وسأله الرجل فى بطء كأنه لم يفهم ما قيل له « هل انصرف ؟ وهل أنا مطلق الحرية ؟ » .

كانت هذه هى نهاية التحقيق. ولم يحاول الرجل أن يسترجع الصور بل وضع الكمان فى الصندوق وأسرع بالخروج . وانتهت القضية بالنسبة الى ادارة الامن . وكل ما تبقى من الحادث مذكرة مختزلة فى ملفات المكتب بجزيرة الحاكم ووضعت فى ملف خاص عليه بطاقة « جواسيس » سجل فيه رسميا « وليم لوكوسكى . جاسوس مشتبه فى أمره . أبلغت عنه الجمارك والمخابرات الحربية الامريكية برقم ٣٥/٢٥/٩ » . وكان هذا كل ما فى الامر . تقرير عابر عن حادثة كبرى أفلتت من أيدى بعض صغار الموظفين .

ولكن بينما كانت ادارة G 2 مقتنعة بالحل الذى وصلت اليه لم يكن حارس الجمارك راضيا عن هذا الوضع • ففى صباح يوم الاثنين التالى بينما كان رجال المخابرات البحرية يقومون بجولاتهم المعتادة علم أحدهم بما حدث يوم السبت السابق •وكانت الصور لا تزال فى المكتب وعرضت على رجل المخابرات •

فصاح هذا قائلا : Holy Smcha هذه طائرات بحرية تحت التجربة • ماذا حدث للرجل الذى كانت فى حوزته ؟ » •

وهز حارس الجمارك كتفيه قائلا « لقد أطلقت سراحه ادارة G 2 » •

فانفجر رجل المخابرات البحرية يزمجر بلغة لا يصح اعادتها • حتى اذا زال مابه من الغضب استدعى ادارته للتبليغ عن الحادث • وفى الحال استدعيت وشنطن حيث أخطر كابتن بولستن وسئل عن التعليمات • وبعد بضع دقائق استدعانى المدير الى مكتبه حيث أنبأنى بتفاصيل القضية وأمرنى بأن استقل طائرة فى الحال الى نيويورك لمعرفة هذا الخلط والارتباك •

وفى مدى ساعتين كنت أجلس فى مكتب رئيس قسم المخابرات أصغى الى قصة لا يكاد يصدقها العقل • فماذا نستطيع أن نفعل لانقاذ الموقف ؟ وكان من الواضح أمامنا فى المخابرات البحرية أننا قد عثرنا على دليل قاطع • فتوجهت الى جزيرة الحاكم حيث وجدت رئيس G 2 منطقة الفرقة الثانية فى مكتبه ـ ميجر جوزف •ن• دالتون ـ وهو ضابط محترم من خيرة رجال المخابرات • ولم يكن معه سوى مساعدين اثنين مما كان سببا فى تأخير العمل • وبالرغم من ذلك رأيت أنه لابد من اتخاذ اجراءات فى هذه القضية الهامة •

وقلت له « يبدو فى نظرى أن هذه قضية جاسوسية واضحة • وكان لابد أن يتصل رجالك بالمخابرات البحرية فى الحال • وخاصة أن الصور التى وجدت تمثل طائرات بحرية تحت التجربة » •

ولم يكن ميجر دالتون قد اقتنع بعد وقال دون تردد :

« انها لا تبدو كذلك فى نظرنا الى هذا الحد الذى تقول » •

فلم أضيع وقتا أكثر من ذلك فى المجادلة وأسرعت راجعا الى مكتب المخابرات لكى أبدأ أبحاثى فى الحال • وكان من الواضح أن أى شىء نستطيع أن نفعله قد فات أوانه • ومع ذلك قمنا بتحريات توصلنا بها الى منزل فى لونج أيلاند حيث مقر اقامة لونكوسكى وزوجته • وكما توقعنا كان العصفور قد طار وغادر وكره • اذ انبأتنا صاحبة المنزل ـ وعليها مظاهر الارتباك ـ أن زوجة لونكوسكى تلقت مكالمة تليفونية من زوجها وعلى أثرها غادرت مسرعة الى مكان مجهول والى فترة غير محددة • كما لم يكن هناك عنوان نستدل به عليهما وتركا فى المسكن شيئا بسيطا من الاثاث •

وأصبح هذا الامر لا يتعلق بالجاسوسية المضادة بل موضوع يستدعى البحث لبس الا • فتبين لنا أنه أثناء هروبه قد توقف فعلا فى منزل رقم ٥٦ شرق شارع ٨٧ وليس فى شارع ٩٢ • وكان دكتور أيجناز •ت• جريبل يقيم فى شقة هناك • ونجحنا فى تحديد خط سير لونكوسكى بأن أسرعنا الى عنوان مسكنه الذى أدلى به أثناء التحقيق •

وساعدتنا صاحبة المنزل ـ وكانت امرأة محبة لوطنها ـ بأن أدلت الينا بكل المعلومات التى استطعنا بها أن نقتفى أثره الى حدود كندا • كما ساعدنا آخرون ممن شاهدوه أثناء هروبه ومن بينهم رجل يعمل فى الروافع وعلى بصيرة وتفهم للامور • وفى ذلك الوقت كان من الممكن متابعة الارقام التى تستخدم فى المكالمات التليفونية من منزله • فدلت التحريات على أن دكتور جريبل كان رجلا بارزا فى مجموعة لونكوسكى بالرغم من أنه ضابط احتياطى فى السلاح الطبى فى جيش الولايات المتحدة • وكان قد علم من لونكوسكى أن المجموعة قد اكتشف أمرها فاتخذ احتياطاته • واتصل لونكوسكى بزوجته وطلب منها أن تسحب ما لديهما من الاموال فى البنوك وتغادر على ظهر الباخرة فى اليوم التالى ثم سافر الى كندا بسيارة دكتور جريبل وانقطعت أخباره بعد ذلك اذ غادرها الى ألمانيا على ظهر أول سفينة مسافرة الى هناك •

ولم تكن هذه هى نهاية الحادث فيما يتعلق بالالمان • فعندما عادت السفينة « أوروبا » فى المرة التالية لم يكن على ظهرها ذلك الخادم الذى حاول لونكوسكى أن يتصل به فى المرة السابقة • بل كان هناك رجل ألمانى غادرها فى طريقه الى المكتب حيث سبق أن اعتقل لونكوسكى •

وسأل : « هل هذا هو المكتب حيث اعتقل من يدعى وليم لونكوسكى منذ وقت مضى ؟ » فأجاب الحارس بالايجاب • وبدأ الرجل مناقشة حاول فيها أن يتأكد من الظروف التى أحاطت بهروب لونكوسكى وخاصة ليعلم ان كان حقا أنه دفع مبلغ ألف دولار ثمنا للافراج عنه • وانتهى التحقيق بأن اقتنع الرجل تماما بأنه لم تدفع أية نقود فى سبيل اطلاق سراح لونكوسكى • وليس من شك فى أن الجستابو سوف يرقبون هر لونكوسكى بعين ساهرة لئلا يحتال على الخزانة الالمانية •

وأسرعت راجعا الى وشنطن حيث أخطرت كابتن بولستون بما جرى • واتضح لنا جميعا أن الاهمال فى تناول القضية من أول ظهورها قد أضاع علينا أكبر دليل عليها كما أضاع على الولايات المتحدة فرصة التعجيل بتحطيم حلقة هامة من الجاسوسية النازية • حتى قبل أن نعلم أن لونكوسكى تمكن من تحذير جريبل كان من المتوقع ان الاعتقال فى أول الامر ثم ما تلاه من الافراج عنه سيكون ذلك داعيا لان تلجأ المجموعة كلها الى الصمت والركود لفترة غير محدودة وهذا ما حدث فعلا •

وعندما انبأت كابتن بولستون بالقصة لم يستطع السيطرة على مشاعره وبادر فى الحال الى تحرير خطاب الى جنرال نايت رئيس المخابرات الحربية يعبر عن رأيه بصورة مؤكدة • فلم تكن عباراته رثاء على شىء فات وانقضى بل كانت تهدف الى غرض بناء • اذ حاول بولستون أن يبرز للجيش ضرورة توحيد الجهود بأن تنشط المخابرات الحربية وتبذل ما فى وسعها مشتركة مع المخابرات البحرية حتى لا يفلت منهما شىء مرة أخرى • وكان لابد أن تنتهى القضية مؤقتا بحالة غير مرضية فقد كانت فرصة ضاعت من أيدينا بسبب خطأ خارج عن ارادتنا • وبعد مضى ثلاث سنوات دلت الظواهر على وجود هذه الحلقة الجاسوسية ولكنها كانت متأخرة ثلاث سنوات عن خط سيرها • وفى تلك الفترة كان دكتور جريبل ومجموعته يعيشون أياما معدودات ولم يستطيعوا الهروب من مصيرهم المحتوم •

كان ذلك فى سنة ١٩٣٧ عندما نجح فعلا ليون ج • تورو فى تشتيت شمل حلقة التجسس الالمانية • وقد لا يغيب عن البال فى ذلك العهد ان غباء المخابرات الالمانية وانحطاط مستوى عملائها هو الذى أتاح للابحاث الامريكية متابعة الادلة الهامة التى عثرت عليها المخابرات البريطانية وبالتالى تحطيم حلقة خطيرة للنازى عادت لاستئناف نشاطها فى الولايات

المتحدة • وبناء على معلومات من أحد رجال البريد فى دندى ـ اسكتلنده عثرت المخابرات على امرأة تدعى مسز جيسى جوردان وهى حلاقة متقدمة فى السن كانت تستخدم كصندوق للبريد لصالح المخابرات الالمانية • وفى ذلك الوقت كانت المخابرات الالمانية فى الولايات المتحـدة قد انتعشـت باستخدام جونتر جوستاف رومريخ الهارب من الجيش الامريكى • وتسنى لقسم المخابرات المضادة التابع لوزارة الحرب البريطانية أن تكشف القناع عن أوجه نشاطه •

وبذلك حبطت جهود حلقة التجسس وتوقف نشاطها للمرة الثانية ـ بعد سنتين من مغامرة لونكوسكى فى نيويورك • وبعد سنتين من نجاح المخابرات البحرية فى ادراك شخصية أفراد المجموعة • ومع ذلك فقد كان كسبا عظيما يستحق تقدير أولئك الذين اشـتركوا فى تحطيم مشروع النازى فى الولايات المتحدة •وبطبيعة الحال أن ما حدث فى سنة ١٩٣٧ كان من الممكن اكتشافه فى سنة ١٩٣٥ وكان من الممكن الوصول الى نتائجه اذا كان الجميع متيقظين للاخطار التى كانت تواجههم فى ذلك الحين •

١٦
ابتداء معركة الجاسوسية

لا نستطيع المبالغة في مغزى قضية لونكوسكي في سنة ١٩٣٥ وانما هى أول اشارة تدل على أن ألمانيا قد عادت الى ممارسة الجاسوسية التى ظلت خامدة مدة سبعة عشر عاما· والتى كانت ـ قبل الحرب العالمية الاولى ـ سلاحا رهيبا فى أيدى مؤسسى الامبراطورية البروسية · فقد استعد بسمارك للحرب الفرنسية البروسية بأن استأجرشيخ الجواسيس الغامض دكتور شتيبر · وأمده بسلطات كاملة للاستعداد للحرب بارسال جيش كامل من الجواسيس الىفرنسا لتمهيد الطريق أمام مولتكهوجيوشه المغيره· وبين سنة ١٨٦٨ و سنة ١٨٧٠ بعث ستيبر مالا يقل عن ثلاثين ألف من الجواسيس تسربوا الى فرنسا فى حركة ـ كما قال جورج بورجن رئيس المحفوظات الاهلية الفرنسية ـ كانت مماثلة لحملة « التليين » التى سبقت الحربين العالميتين ·

كتب بورجن يصف نموذج الجاسوسية الالمانية فقال « اتخذت ألمانيا احتياطات متقنة للحرب العالمية ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كالتى سبق أن اتخذتها سنة ١٨٧٠ · ومما مهد الطريق للجاسوسيةوجود عدد كبيرمن المستوطنين الالمان فى بلاد أجنبية واتساع نطاق التجارة الالمانية · وكانت المناطق الشرقية فى فرنسا بالاخص زاخرة بالعملاء الالمان ـ عمال زراعيون وخدم المنازل وحلاقون وتجار مسافرون ومدرسون من الالمان وكثيرون ممن كانوا ينتحلون شخصيات بلجيكيين والسويسريين أو منمواطنى لوكسمبورج »·

وكان خليفة شتيبر فى الاعداد للحرب العالمية الاولى رجلا بارعا من الدساسين فى الزى الرسمى لهيئة أركان حرب الالمان · وشخصية موضع ثقة جنرال لدندورف السيء السمعة ـ كولونيل يدعى ولترنيكولاى رئيس قسم ١١١ ـ ب من فرقة العمليات التى كانت تحت رئاسة لدندورف شخصيا · ولما نشبت الحرب العالمية الاولى كان نيكولاى قد انفرد بتولى شئون الجاسوسية الالمانية لا يشاركه فيها أحد · ولو أن بعض أجهزة الجاسوسية فيما وراء البحار كانت من جماعات ضعيفة من الامبرالية

الالمانية · فلم يكون أفرادها فى مستوى أولئك كانوا تحت مباشرة سير رجنالد هول رئيس المخابرات البحرية البريطانية والذى كان محقا فى وصفه خصومه الالمان بكلمات نالت اعجاب جميع خبراء المخابرات حتى فى وقتنا هذا · اذ قال سير رجنالد : « أن ادارة المخابرات الالمانية ظاهرها يدل على المهارة كما يدل باطنها على الغباء » · وكانت أوجه نشاط نيكولاى مؤكدة لهذا البيان ·

وكان نيكولاى رئيسا للجواسيس عرف بقسوة القلب وعدم المبالاة · كرس حياته للخدمات السرية ومثله كمثل الراهب المتقشف الذى خصص حياته للدين دون قيد أو شرط ·وفى سنة ١٩١٨ عندما انتهى الامر بهزيمة الالمان تقاعد عن العمل ولكنه لم يتخلى عن نشاطه السرى اذ كان من رأيه أن هدنة سنة ١٩١٨ لم تضع حدا للحرب العالمية الاولى وناشد الالمان أن يواصلوا الكفاح عن طريق عملاء يقومون بوسائل من وراء ستار · ووضع كتابا بعنوان « القوى السرية » قال فيه :

« الحرب فى زمن السلم هو التعريف الصادق لدور المخابرات فى الوقت الحاضر · وأن نزع السلاح لا يمكن أن يمس المخابرات بشىء لان الدعاية بناحيتها الايجابية تحل محل العمليات العسكرية وتصبح سلاحا سياسيا أقوى من أى شىء آخر » · وكتب فى سنة ١٩٢١ يقول « ولهذا السبب فان المخابرات تقف فى مقدمة أية مهام جديدة » · وفى نفس الكتاب ذكر المبدأ الاساسى الذى تسير على هذه الجاسوسية الالمانية · فقال « فى الحروب يجب أن تكون الجاسوسية الواسعة النطاق هى السابقة لاى سلاح جبار » ·

ولقد وضعت جمهورية ويمر الديمقراطية فى ألمانيا بعد الحرب مبادىء نيكولاى موضع التنفيذ · وفى الواقع كانت معاهدة فرساى تنص على منع ألمانيا من الاحتفاظ بجهاز للمخابرات · ولكن الالمان انتهكوا هذه المادة دون خجل كما فعلوا بكل الشروط واللوائح الاخرى · فتحت ستار من هيئة أركان الحرب ــ وكانت محرمة أيضا بمقتضى معاهدة السلام ــ أقام الالمان جهاز فى الخفاء للخدمات السرية · وأطلق عليه قسم الجيوش الاجنبية ومكتب الاحصاء · الاول يختص بالشئون العسكريةوالسياسية · والثانى للجاسوسية فى الميدان الاقتصادى · ولكنها كانت تبعد كل البعد عن نظام الجاسوسية العدوانية أيام نيكولاى · فقد كان رئيس المخابرات الالمانية فى عهد جمهورية ويمر ضابطا مهذبا يتحلى بالاخلاق الفاضلة ــ كولونيل

فريتز بريدوف Bredow اذ رفض انتهاج الجاسوسية العدوانية وجعل نشاط منظمته مقصورا على جمع المعلومات من مصادر علنية أو شبه علنية. وبالرغم من وجود قليل من العملاء في البلاد المجاورة وخاصة بولنده . لم يرسل عملاء الى فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة . وكان من الواضح أمامنا ونحن نتحرى عن نشاط المخابرات لكل من يحتمل أن يكونوا خصوما لنا ونرقب بعناية نشاط الجاسوسية الالمانية . أن المخابرات الالمانية ـ فيما عدا بعض أوجه نشاط متفرقة ـ كانت شبه نائمة عندما كانت حكومة الريخ تحاول أن تزج بنفسها فى نطاق الامم المتحضرة .

وعندما تسلم هتلر مقاليد الامور سنة ١٩٣٣ حدث تغير جوهرى . فقد كان يعتقد اعتقادا راسخا فى الاعمال السرية . ومثله فى ذلك كمثل بسمارك فى عصر سابق . واتجاهه هذا يرجع الى طابعه وتكوينه النفسانى . وانتهج نظام الجاسوسية والطابور الخامس على نطاق واسع لم يسبقه اليه أحد حتى خلال كفاح حزب النازى للاستيلاء على مقاليد الحكم بين سنتى ١٩٢٦ ، ١٩٣٣ حتى اذا اشرف على حكومة الريخ حاول أن يفرض آراءه على هيئة أركان الحرب التى كانت تنفر من هذا الاتجاه . فقاوم كولونيل بريدو هذا الضغط وتعرض لغضب كل من هتلر ونيكولاى الذى استعاد نفوذه بأن أصبح المستشار الاول لهتلر لجميع شئون المخابرات والجاسوسية .

وقف كولونيل بريدو فى طريقهما . ورفض أن ينفذ تعليمات هتلر كما رفض أن يتعاون مع نيكولاى . وأصبح من الواضح أمام الرجلين أنهما لا يستطيعان تنفيذ خططهما السرية طالما كان بريدو رئيسا للمخابرات الالمانية . ولكن هذا كان مستندا الى هيئة أركان الحرب وخاصة جنرال كرت فون شليخر الذى كان يشكل قوة هائلة فى القوات المسلحة الالمانية وكان فى منصب خطير قبل أن يتولى هتلر مقاليد الحكم . وجاءت عملية التطهير الدامية فى سنة ١٩٣٤ فأتاحت لهما الفرصة التى طالما انتظراها للتخلص من كل من بريدو وشليخر . وفى ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ توجهت فرقة خاصة من المخابرات الى منزل شليخر فى احدى ضواحى برلين وأطلقوا عليه خمس رصاصات مباشرة تركته صريعا . بعد ذلك اقتحموا مكتب بريدو بندلرستراس وسحبوه من مكتبه فى وزارة الحرب « وقضوا عليه » فى فناء الوزارة . وبعد الانتهاء من شليخر وبريدو بدأ نيكولاى ـ بناء على أمر هتلر ـ فى تكوين أجهزة عدوانية للمخابرات الالمانية للعمل فى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة .

وأول من اكتشف عودة الجاسوسية الالمانية على غرار نظام نيكولاى المعروف كانت ادارة المخابرات الحربية التابعة لوزارة الحرب البريطانية ٠ والتى أسعدها الحظ بأن كان على رأسها كولونيل كوكس ٠ وهو ضابط عبقرى ماهر فى شئون المخابرات المضادة ٠ وفى مستهل سنة ١٩٣٥ ألقى القبض فى انجلترا على عميل ألمانى يدعى هرمان جورتز كان يرسم خرائط للمطارات فى كنت Kent التى كانت تشكل حلقة الدفاع أمام لندن ٠ وكان أول جاسوس يظهر على المسرح منذ سنة ١٩١٨ ٠ ثم حدث فى نفس الوقت أن اكتشفت حلقة ألمانية للتجسس فى تشيكوسلوفاكيا وأخرى فى بلجيكا كان على رأسها عميل يدعى ليو بيس اكتشف أمره وهو يحاول الحصول على خطط التحصينات فى منطقة لييج العسكرية ٠ وقدر المكتب الثانى فى فرنسا فى أوائل سنة ١٩٣٥ عدد العملاء فى فرنسا بنحو خمسمائة عميل ٠ ومن بين هؤلاء كان عميل يدعى أوتو بولتس تمكن من الحصول على خطط التحصينات فى متز التى كانت تشرف على مدخل الالزاس واللورين ٠ وكذلك ضابط فرنسى يدعى كابتن جورج فروج كان قد باع تفصيلات تحصينات بلفورت الى عملاء آخرين من الالمان ٠

فكان من الواضح أن العملاء الالمان سوف يصلون الى الولايات المتحدة أيضا فى وقت قريب وأثبتت لنا قضية لونكوسكى سنة ١٩٣٥ أن أوجه نشاط نيكولاى قد امتدت الى نصف الكرة الغربى حيث ألف حلقة من الجواسيس من طبقة وضيعة وحيثما اتفق ولكنها كانت جاسوسية على أى حال ٠

وكانت لاتزال لدى كولونيل نيكولاى خطة وحصل من هتلر على تأييد تام لتنفيذها ٠وأخذ يعمل على اقامة تحالف للتجسس بين ألمانيا واليابان٠ وذلك لكى يستفيد من المعلومات التى تأتى بها المخابرات اليابانية من ناحية ٠ ومن ناحية أخرى لكى يسرع بتكوين شبكة ضخمة من الجاسوسية الالمانية عن طريق مساعدات مالية من اليابان ٠ وكانت فكرته غاية فى البساطة ٠فقد أقنع اليابانيين بأن أفراد الجنس القوقازى هم وحدهم الذين يستطيعون القيام بأعمال الجاسوسية بصورة فعالة طالما كان مظهر عملاء اليابان يدل على حقيقة أمرهم ٠ وكذلك ناقشهم حول عملاء روسيا البيضاء الذين كان اليابانيون يستخدمونهم على نطاق واسع ٠ وقال أنهم لا يحصلون على المعلومات المطلوبة ولا يمكن الاعتماد عليهم فى المستقبل اذ يمارسون نشاطهم بمفردهم بجهود غير منسقة ودون مساندة دولة قائمة بذاتها ٠

وقدمت المخابرات الالمانية عرضا رسميا لليابانيين لان يجعلوا مصادرهم مشتركة ويستخدموا العملاء الالمان حيث لا يستطيع اليابانيون القيام بالعمل • وكذلك عرض نيكولاى عليهم أن يضع تحت تصرفهم جميع المعلومات التى يحصل عليها من مسرح العمليات فى أوروبا • ثم تنظيم شبكة جاسوسية فى الولايات المتحدة حتى ولو كانت امدادا للمعلومات التى يحصل عليها عملاء اليابان • وبدا الاقتراح مناسبا فى نظر اليابانيين فتقرر أن توضع الخطة موضع التنفيذ • وكان هناك جاسوس من النازى يدعى يوجين أوت ـ سفير ألمانيا فى اليابان فيما بعد ـ كان عميلا خاصا لهتلر في دائرة جنرال شليخر ويمده بالمعلومات حتى وهو يعمل مع شليخر كمساعد موثوق به • وعهد اليه بمهمة ضابط الاتصال بين المخابرات الالمانية واليابانية • وكذلك كان هناك جاسوس مدرب فون در أوستن المعروف لادارت المخابرات المضادة التابعة للحلفاء منذ الحرب العالمية الاولى (والذى قتلته فيما بعد سيارة تاكسى فى نيويورك أثناء قيامه ببعثة سرية لا تتعلق بالقنبلة الذرية) أرسل الى الشرق الاقصى لتمهيد الطريق للتعاون المنوه عنه • وتم الاتفاق بصورة نهائية فى سنة ١٩٣٥ • وحتى قبل اتفاقية المحور بعدة سنوات أصبح التحالف بين ألمانيا واليابان لممارسة الجاسوسية أمرا واقعا • يعمل الجواسيس الالمان لصالح اليابان بينما عملاء اليابان يعملون لصالح ألمانيا • وكان مركز أجتماع الفريقين فى الولايات المتحدة •

ولو أن هذه الحقائق أصبحت ثابتة الآن من الناحية التاريخية الا أنه فى سنة ١٩٣٥ كان الاتفاق بين ألمانيا واليابان موضع شك وظل كذلك فترة طويلة فى حاجة ماسة لاثبات حقيقته •

وقد أثبت ذلك بما يرضينى فى مستهل سنة ١٩٣٥ أثناء حفل اقامه الملحق البحرى اليابانى فى فندق مايفلاور • وكان هذا الملحق البحرى هو كابتن تامون ياماجوشى الذى كانت دماثة أخلاقه ومعرفته الواسعة بالولايات المتحدة حيث أقام فترة طويلة « يدرس اللغة » جعلتنا نشعر بأنه جدير بالمراقبة • ولم يكن يشبه أدميرال نومورا فى طول قامته ولكنه كان كبير الحجم بالنسبة للرجل اليابانى مما يلفت الانظار لاول وهلة • وكانت عيناه تدلان على حدة الذهن ويوحى وجهه جامد الملامح بالعزم فى شيء من الهدوء والبروء • وكان يبدو وكأن لا غبار عليه •

وعندما قرر اليابانيون توسيع دائرة جاسوسيتهم فى الولايات المتحدة جعلوه محورا لنشاطهم وأمدوه بكل ما يلزمه للقيام بالاجراءات السرية فى مكتب فى البان تاورز فى شقة فاخرة فى حى المساكن فى وشنطن . واذا كان هناك دليل يثبت توسيع اليابانيين لدائرة أعمال التجسس فى الولايات المتحدة فان وصول ياماجوشى الى وشنطن هو الدليل الواضح . وأنا أحد الناس لم يساورنى شك فى أن نقله الى وشنطن كان أمرا بالغ الاهمية وشاركنى فى هذا الادراك القبطان بولستن . ثم أن ظهور هذا الرجل فى وشنطن كان بمثابة انذار جعلنا نقف على قدم اليقظة من حيث مسئولياتنا وواجباتنا فى الحال . وانتهزت الفرص لكى أقوم بزيارته فى أغلب الاحيان بصورة رسمية أو اجتماعية . ولم يحاول أن يتخلص من مقابلتى فأصبحت ضيفا مستديما فى كل حفلة يقيمها وبطبيعة الحال كنت كذلك فى كل حفلة تقام فى مايفلاور .

وكانت قوة « المحور ممثلة تماما فى هذا الوضع . اذ كان الايطاليون والالمان ممثلين تماما بشخصيتى ملحقيهم العسكريين وأولهما عميل هادىء يدعى لفتننت جنرال فردريك فون بوتشر Boetticher وكذلك ملحقهم البحرى فيس أدميرال ويتهوفت ــ امدن Emden وهو رجل من العهد القديم كان ضابط المدفعية فى الطراد Emden خلال الحرب العالمية الاولى . أكثر شهامة ونبلا ممن يمثلون حيل النازى الوضيعة . وفى ذلك المساء دهشت لتغير العلاقات بين الملحقين من اليابانيين والالمان . فقد كانت اتصالاتهم فيما سبق بطريق المصادفة وبصفة رسمية وتتسم بشىء من البرود . ولكنهم الآن أصبحوا على صلة وثيقة فى شىء كبير من الدفء لم تكن ظاهرة من قبل على الاطلاق . فكان الالمان يشعرون بأنهم فى أوطانهم أثناء وجودهم فى كل حفل يقيمه ياماجوشى .

وكان اليابانيون يقيمون حفلاتهم فى القاعة الصينية بفندق مايفلاور مما كان يوحى بالكآبة عن غير قصد . وكنت أحرص دائما على أن أبقى حتى ينصرف جميع المدعوين أشارة الى تقديرى لصاحب الدعوة من جهة . ومن جهة أخرى لكى انتهز الفرصة للتدريب على اللغة اليابانية . وكنت الاحظ فى هذه المناسبات أن أصدقاء ياماجوشى من الالمان الذين تعرف بهم حديثا يحاولون أن أبقى معهم طويلا . كما لاحظت أن جنرال بوتيشر وأدميرال ويتهوفت ــ امدن كانا دائما بالقرب من ياماجوشى حتى بعد أن ينصرف معظم الضيوف . وكانا من قبل فى طليعة المنصرفين فى أغلب الاحيان .

حتى اذا فطنت الى هذه الظروف غير العـادية سـعيت الى زوجتى وأخبرتها أن هناك شيئا يلوح فى الافق وشرحت لها ما حدث وقلت ينبغى لنا أن نبقى الى النهاية لنرى ما سيتم فى الامر • وأوضحت لها خططى حتى لا تسألنى العودة الى المنزل ولكى انتفع بما لهامن حدة الذهن وقوة الملاحظة لتدعيم ما يجول بخاطرى • وأصبح عدد الضيوف يقل فى سرعة ملحوظة فرأينا عبر القاعة الكبيرة القائدين الالمانيين يقتربان من ياماجوشى ويأخذان فى مداهنته بشكل واضح • وحاولت أن اكتشف ما يمكن وراء هذه الصداقة المفاجئة دون أن يلاحظنى أحد ولكن اليابانى لم يتطوع بذكر شيء مطلقا • ومن ثم توصلت الى أن هناك اتفاقا من نوع ما قد تم أو فى طريقه الى أن يعقد بين النازى واليابانيين • وان هذه الصـداقة قد أقيمت على أساس هذا التحالف الذى جعل الرجلين يوطدان صلتهما بالحليف الجديد حتى فى هذا الحفل الاجتماعى كما يبـدو من الظاهر • وقلت لزوجتى : « انى على يقين من أن هناك تطورا جديدا فى العلاقات بين ألمانيا واليابان • لاحظى هذين النازيين وهما يربطان عرى الصلة بينهما وبين ياماجوشى • اذ لم يحدث أن جرى ذلك من قبل • أن هؤلاء الاغبياء قد فضحوا أنفسهم بهذا الحب المفاجيء لليابانيين » •

وسرعان ما اتضح أن الرجلين الالمانيين أصبحا يضيقان ذرعا بوجودنا بعد انصراف كل فرد من الضيوف • وأن حيلتنا من حيث البقاء حتى نهاية الحفل أصبحت تثير أعصابهما • وخاصة عندما يشير الخدم الى أن الاجتماع قد انتهى بالنسبة اليهم • وأخيرا • عندما لاحظ ياماجوشى ذلك تركنـا القاعة الصينية جميعا • وشعرت بالارتياح عندما كنت أنا وزوجتى مع ياماجوشى بعد أن انصرف الالمانيان •

فى صـباح اليوم التـالى ذهبت الى المـدير وأخبرته بكل ما لاحظته فاتفق معى على النتائج التى نتوقعها • وعقدنا العزم على أننا ــ من الآن فصاعدا ــ يجب أن نكافح مع اليابانيين الذين يعملون فى تحالف وثيق مع الالمان مما يشكل عنصرا جديدا من الخطر •

وبدأت الآن معركة الجاسوسية وأخذت الاحـداث تجرى فى سرعة ملحوظة • وكنا لا نزال فى مستهل تطورات هذه الجاسوسية المتجمعة ولكنها كانت تمتد بالتدريج الى جميع نواحى أمننـا القومى حتى بلغت ذروتها فى الهجوم على بيرل هاربر •

ولم يساورنى الشك فى أن الحفل الذى أقيم فى القاعة الصينية بفندق مايفلاور سيكون له بقية فى الصين نفسها عندما تذكرت الخطة التى علمت بها من ساتو ـ سان فى أوائل سنة ١٩٢٠ والتى وضعت الصين كخطوة أولى للعدوان · ولكن من وراء الصين بدأت ملامح المغامرة الكبرى ـ الحرب ضد الولايات المتحدة التى تقف حجر عثرة فى طريق الغزو بما تبديه من سخط معنوى ·

وعندما شرعت فى مغادرة مكتب القبطان بولستن قلت له :

« أمامنا أيام زاخرة بالعمل · يا سيدى » ·

فأجاب « ليس فى ذلك ما يدهشنى » · وكان يركز عينيه على النافذة المفتوحة ولكن ذهنه الحاضر كان يتطلع الى المستقبل القريب فى حـدود محتويات مكتبه البسيط · وسألنى :

« ولكنهم سوف يجدوننا على استعداد · أليس كذلك ؟ » ·

« نحن على استعداد الآن · يا سيدى » ·

١٧

الطبيب يتسلم القضية

على حين اقتضت الظروف أن ننقل أوجه نشاطنا الى المخابرات المضادة على نطاق واسعواصلت مخابراتنا عملها فى الميدان على الخط الذى أعد لها فى سنة ١٩٢٧ . ففى تلك السنة عندما كنا نراقب تمرينات الاسطول اليابانى عن طريق الهجوم المفاجىء الذى قمنا به باللاسلكى . أتيح لنا ان نجمع معلومات ضخمة لها قيمتها عن تكتيك اليابانيين . ومن ذلك الحين أصبح تصنتنا اللاسلكى وسيلة هامة فيما يتعلق بالمخابرات . ولكن لم تتطور مقدرتنا الفنية فى مدى ست سنوات حتى سنة ١٩٣٣ حيث استخدمت على نطاق واسع لم يسبق له مثيل .

ففى سنة ١٩٣٣ تجمع الاسطول اليابانى بأكمله لاجراء مناورات ضخمة أتاحت لنا فرصة نادرة لاستراق السمع عن طريق اتصالاتهم حيث اكتشفنا الغرض من تلك التمرينات الواسعة النطاق . وفى ذلك الوقت كان النظام البدائى الذى اتبعناه فى سنة ١٩٢٧ قد تحسن الآن الى درجة ملموسة وأصبحت عدة محطات لاسلكية تلتقط الرسائل التى تتبادلها السفن اليابانية المشتركة فى تمرينات الاسطول . وتدفقت الاوراق على مكاتبنا تحتوى الكثير من المعلومات التفصيلية وأخذنا نعمل طويلا فى جد واجهاد فى جمع هذه الاجزاء الصغيرة من المعلومات التى لاعداد لها والتى حصلنا عليها من مصادر متنوعه لرسم صورة كاملة للموقف من جميع نواحيه . حتى سنة ١٩٣٥ كنا قد اتممنا هذا العمل العظيم من حيث تحليل المعلومات واكتشفنا الغرض من تلك المناورات الهائلة التى كانت اشبه شىء بمباراة فى الحرب الدفاعية . اذ فرض اليابانيون انه فى حالة حرب فى الباسفيك لابد أن يقترب العدو شيئا فشيئا من الشواطىء اليابانية . وكانت معالم المناورات تمثل الظروف فى زمن الحرب من هذه الناحية حيث تقترب المعارك من أراضى اليابان .

وقد حدث هذا فعلا بعد عدة سنوات عندما اقترب الاسطول الثالث تحت قيادة ادميرال هلسى من شاطىء اليابان عندما استعر لهيب الحــرب فى الشهور الاخيرة بيننا وبين اليابان ٠

وقد اكتشفنا حقيقة الاستراتيجية اليابانية وما ترمى اليه أثناءقيامهم بالمناورات وهى أمامنا الآن مكتوبة بالآلة الكاتبة على أوراق فى نظام وتنسيق ٠ فكانت خطتهم هى اغراء القوة المهاجمة للوقوع فى شباك ضخمة أعدت من غواصات ساحلية وطائرات لها قواعد على الشاطىء للاحتفــاظ بجميع قوات الدفاع للقيام بعملية أخيرة واسعة النطاق حيث يقذفون بكل مالديهم من قوة وعناد لسحق القوة المهاجمة دفعة واحدة ٠ وذلك كمـا فعلوا من قبل بمساعدة الكاميكازى «الرياح الالهيه» Kamikaze منذ قرون مضت ضد الاسطول المهاجم بقوات المغول بقيادة قوبلاى خان ٠ ولكن فى هذه المرة لم تكن لهم ثقة فى القوى التى تفوق الطبيعة البشرية ووضعوا خطتهم على أن تكون القوات الجوية بدلا من الرياح الالهية فيلقون بالضربة الحاسمة فى الوقت المناسب ٠

وضعنا صورة واضحة المعالم للخطة اليابانية من جميع نواحيها ٠ وعند عرضها على الهيئات العليا نالت المخابرات البحرية أيات المدحوالثناء ولم يكن هناك سوى ضابط واحد كان يهتم بتحركات السفن ولكن ليست السفن اليابانية ٠ فأبدى اهتماما بسيطا بما عرضناه عليه من الشئون فى المستقبل وهز كتفيه كما لو كان يقول «بالهؤلاء اليابانيين الصغار وسوء أدبهم ! »

وتذكرت هذا الحادث البسيط ومايدل عليه من مغزى بعــد بضــع سنوات عندما سمعت ان هذا الضابط نفسه قد عهد اليه بقيادة مسئوله عن الدفاع عن الولايات المتحدة ٠ وعندما جابهه هؤلاء اليابانيون الصغار بسفنهم فى شكل خطير مما عاد بالخسارةعلى الامة كلها٠ والواقع أنه لو كان قدوجه عناية كبيرة الى نشاط المخابراتالبحرية وماقامت به منالتحليلات الهامة لكان أكثر استعدادا من الوجهه النفسية للاضطلاع بهــذه المهمــة الساحقة ٠

وبينما كنا نستعرض مناورات اليابانيين الضخمة سنة ١٩٣٣ونفخر بتحليل خططهم وبتقدمنا خطوة الى الامام فى عمل المخابرات البحرية ٠

تركزت عنايتنا • بطبيعة الحال • على أحداث تجرى بالقـرب من أرض الوطن • فقد كان كابتن ياماجوشى على وشك أن يدلى دلوه وكنا عـلى استعداد علاقاته من أول لحظة •

اذ أبلغ ضابط المخابرات التابع لقسم البحرية الحادى عشر وشنطن عن قضيـة تجسس بالغة الاهمية ـ وهى أول قضيـة كبرى تناولتهـا الجاسوسية المضادة منذ نهاية الحرب العالمية الاولى • فتكاتف جميع من فى المخابرات البحرية وخاصة قسم الشرق الاقصى على القيام باجراءات البحث والتنقيب اذ أن القضية كانت تهدد بأن يكـون لهـا ترديد فى الاوساط الدبلوماسية العليا بما فيها علاقاتنا مع اليابان • وكان ياماجوشى نفسه على رأس الجواسيس يدبر أمر هذه القضية الخاصة • ولو أنه كان هناك جاسوس آخر رئيسا له ولكن وجوده فى هذه المرحلة لم يكن معروفا لنا بعد • وكان الامر متروكا لنشاط المخابرات المضادة لكشف الستار عن زعيم الجاسوسية اليابانية فى نصف الكرة الغربى • وكان أقوى وأكفأ جاسوس عمل فى هذه البلاد لصالح دولة أجنبية • وكان ياماجوشى يعمل مؤقتا فى مركز شبكة تمتد خيوطها من وشنطن الى الساحل الغربى • وكان نائبه المباشر على الساحل ضابطا يابانيا يدرس اللغـة ـ لفتننت كوكوماندر توشيو ميازاكى ـ من البحرية الامبراطورية اليابانية • وملتحق بجامعة كاليفورنيا حيث تقدم فى اللغة الانجليزية • وكان معروفا لدينا بأنه يهتم بأمورشتى لاتتعلق بدراسة اللغة فوضعناه تحت مراقبة عامة • وتلك كانت مهمة شاقة لانه كان ضابطا بارعا فى المخابرات يمتاز بعقلية جبارة ويعرف كيف يخفى أوجه نشاطه خارج برنامج دراسته فى الجامعة ولكنه فشل بسبب مواطن أمريكى عادى •

وحقا أن تعاون الجمهور دعامة قوية تركن عليها المخابرات طالما كان الجاسوس آمنا مطمئنا • وطالما لا يدفعنا الشعور بالوطنية لان نضطهد الاجانب بزعمهم من الجواسيس الحقيقيين • ولقد أظهر الشعب الامريكى نبوغا كبيرا فى اكتشاف أمر المخطئين وكذلك يحرصون على أن يـكون نشاطهم كمخبرين من الهواة ـ مقصورا على حالات يكون الاشتباه فيها ما يبرره • ثم أن بعض الاكتشافات الكبرى فى ميدان الجاسوسية كانت بناء على معلومات من الجمهور العادى • وملاحظاتهم تنال تقدير المخابرات

كما تلقى الضوء على وطنية الشعب الامريكى • وفى العادة يكون المخبرون أفرادا بسطاء - بوابين أوزوجات أومحصلى أوتوبيسات • يدلون بمعلومات هامة ولا ينتظرون مكافآت عليها سوى الاقتناع بأنهم أدوا واجبهم نحـو الوطن • وعمل هؤلاء الابطال المجهولين فى مخابراتنا المضادة يستحـق جزءا كبيرا من التقدير والاعتراف بالفضل مما تغدقه الامة على العمـلاء المحافظين على القانون ورجال مباحث المخابرات بسخاء كبير عنـدما يتم الاعتقال وتعلن النتيجة بالخط العريض •

وفى قضية ميازاكى كان أحد الذين يتسكعون بلا عمل فى منطقة سان بدرو يدعى وليام تورنتين هو أول من أنار لنا الطريق وقام بمساعدتنـا على طول الخط • ففى ذات يوم ظهر على سطح سفينة القائد العام لاسطول الباسفيك وطلب مقابلة الادميرال فى الحال •

وقال « أريد أن أخبره بأمر هام »

فسأله الضابط المنوط فى شيء من المزاح « وماذا يحدث لو أخبرتنى به ؟ » •

وأجاب تورنتين « أنت لست فى منصب كبير » فأخذه الحـراس الى ضابط التنفيذ ولكن الرجل أصر على قوله « وأنت أيضا لست فى منصب كبير • خذونى الى الرئيس الاعلى » فاسـتدعى مسـاعد الادميرال ولكن تورنتين أعاد عبارته التى لا تتغير « لست فى منصب كبير •أريد أن أرى رئيسك » •

وسأله المساعد : « ما هى طبيعة مهمتك ؟ فلابد من أن أخبر الادميرال ماذا تريد منه » وبدا هذا معقولا فى نظر تورنتين فقـال « أريد أن أخبره بشأن بعض جواسيس من اليابانيين أعرف أمرهم » •

وفى بضع دقائق كان هذا الشاب اليافع من كالفيورنيـا فى حضرة أدميرال جوزيف • م• ريفز قائد عام أسطول الولايات المتحدة •

فقال الرجل « نعم يا سيدى • انى أعيش مع أحدهم » •

وشجعه الادمايرل بأن جلسا معا لمناقشة الامر وقال له «هات ماعندك» فقال تورنتين : « انى أعيش مع رجل يدعى بيل طومسون • وهو بحار متعطل سبق أن كان فى البحرية ثم طرد منها • ولست أدرى السبب فى ذلك • ولاحظت أنه يرتدى الملابس الرسمية ثانيا ويذهب الى السفن فى الميناء ثم يعود الى المنزل ومعه بعض الاوراق يخفيها فى غرفته • وعلى ذلك ساورنى الشك فى أمره وأخذت أراقبه • وليس من شك فى أنه يدس هذه الاوراق لبعض اليابانيين رأيته يقابلهم فى المدينة • فلا بد أن يكون هذا الرجل مخادعا بصورة قاطعة •اذ كان بحارا عاديا •ولكنه كلما توجه الى بعض السفن لالتقاط تلك الاوراق كان يرتدى ملابس الضباط البحريين مما يدل على أنه يدبر أمورا خاطئة • أيها الادميرال » •

وأجاب الادميرال « يبدو أنه كذلك يا مستر تورنتين • وانى أود أن أشكرك بالاصالة عن نفسى وباسم حكومة الولايات المتحدة على شعورك وسلوكك الوطنى فى هذه القضية • وأؤكد لك أننا سوف نهتم كثيرا بأمر صاحبك هذا • ولكن ليس فى استطاعتنا أن نخبرك بتفاصيل أبحاثنا • وفى مقدورك أن تقدم لنا أجل المساعدة بالتزامك الهدوء وترك الموضوع بأكمله فى أيدينا • لقد أديت أكثر من واجبك والامة كلها مدينة لك بالشكر والاعتراف بالجميل » •

وتأثر الرجل كثيرا بما سمعه من كلمات الاطراء وعبارات التكريم وقال « هذا شىء جميل أرجو أن يكون الى النهاية » •

حتى اذا خرج تورنتين نادى الادميرال ريفز مساعده وقال له :

« أحضر لى هذا الرجل كوجنز لنرى ان كان يستطيع أن يضطلع بهذه القضية » ولم يكن هذا القرار مقبولا لآن « هذا الرجل كوجنز » لم يكن ضابط مخابرات رسميا ولا باحثا ولا مخبرا • فهو جراح بحرى متخصص فى فن الولادة فى صيدلية لونج بيتش فى بحرية الولايات المتحدة • وكان يساعد فى ولادة من ثلاثين الى ستين طفلا فى الشهر ويستقبل عددا كبيرا من المرضى من الخارج كل يوم •ولكن كان لديه من الوقت ما يكفيه لقراءة جميع كتب الجاسوسية والمخابرات حتى أصبح خبيرا فى هذا المجال • وكتب تقريرات حول أخطار سفن الصيد اليابانية بالقرب من الساحل

الغربى وغير ذلك مما لفت أنظار ادميرال ريفز • فكان من الطبيعى عندما تتجه عناية الادميرال الى قضية حقيقية أن أول شىء يفكر فيه ان يعهد بها الى الدكتور ليقوم بتحقيقها • وقال الادميرال « يخيل لى أنه سوف يأتينا بنتيجة ما » •

وأما كوجنز فقد غمره السرور عندما اتيح له أن يحول هوايته الى شىء حقيقى • والمفهوم أن القضيـة كانت من النوع العـادى • اذ كان طومسون ضحية سالية لعملاء المخابرات الاجنبية كان بحارا سابقاضاقت به الحال بعد فصله من الخدمة • فأدمن الخمر بما يزيد عن طاقته • وأصبح فى حاجة الى المال • وبالتدريج جذبته الشـباك التى ينصـبها لامثـاله اليابانيون الذين يمارسون نشاطهم على الساحل الغربى • وأخيرا تقابل مع ميازاكى حيث سلمه مهمته الخطيرة • فكان يرتدى ملابس ضـابط بحرى ويصعد الى ظهر سفينة غريبة ثم يهبط الى مكتب المدفعية ويقدم نفسه على أنه من رجال مدفعية سفينة أخرى فى الميناء ويحصل عـلى المعلومات المطلوبة والتى لا يمكن تسلمها الا بهذه الوسيلة •

وكان كوجنز قد أدرك وسائل المخـابرات المضـادة تمـام الادراك واختلا تلك الوسائل من ابحاث فقط الى طرق فنيـة غالبـا ما تؤدى الى الارتباك • وبدأ فى العمل بأن أخذ يقتفى أثر طومسون ويراقبه بنفسـه وبواسطة مساعديه ليقف على خط سيره اليومى مايحوم حوله من الشبهات فى اتصاله باليابانيين •

فوجد أن طومسون يعود من السفن الى مسكنه حيث يخفى المستندات تحت السجادة ثم يرتدى الملابس العادية ويذهب الى لوس انجلوس لمقابلة ميازاكى ليسلمه مامعه من الاوراق أو يتخذ الاجراءات لارسالها بطـريق البريد الى العميل اليابانى • وكان الاجتماع عادة فى ميدان برشنج فى لوس انجلوس حيث كان لفتننت كوجنز يراقب اتمام الصفقة — آخـر صفقة سمح لطومسون ان يتمها •

وجمعت الادلة كلها • اذ قام كوجنز بفحص المستندات المسروقةوالتى اخفاها طومسون تحت السجادة فى مسكنة • وبوسائل أخرى للبحث تمكن من أقامة سلسلة من الادلة تحولت الى النائب العام لتقرير الاتهام •

ولكن قبل الفاء القبض عليه بفترة قصيرة اختفى طومسون عن الانظار مما سبب لكوجنز قلقا شديدا • فعاد لمقابلة تورنتين وعلم منه ان الرجل المخادع ذكر شيئا حول ذهابه لمقابلة الملحق البحرى اليابانى فى وشنطن وعلمنا فى الحال بهذا التحول في الاحداث وان طومسون لم يغادر لوس انجلوس بل كان غيابه على أثر تناوله بعض المشروبات •

وللآن لم يكن لادارة المخابرات البحرية سوى الاشراف على قضية طومسون بصورة غير مباشرة اذن ان كوجنز قد اتم ابحاثه للقائد العام وحول كل أدلته الى السلطات الامريكية لاقامة الاتهام • وحتى ذلك الحين كانت المخابرات البحرية – ولاتزال – لاتملك سلطة الاعتقال • ولو انها الفريق الذى يهتم أشد الاهتمام بالمباحث التي تتضمن الامن البحرى • وعلى ذلك كان كوجنز لايستطيع اعتقال متهم بنفسه • بل يستطيع « اعتقال مواطن » وهو ماكان مسموحا به بمقتضى القانون اذا ثبتت الجريمة فعلا • ولكن تمكن أولو الشأن من الوصول الى حل لاعتقال طومسون مؤقتا حتى يتم تجهيز الاوراق اللازمة حيث تتسلم السلطات المختصة القضية من الدكتور كوجنز •

وسرعان ماتطورت الامور بأن تلكأت السلطات فى اتهام طومسون برغم الدليل الواضح • وخشيت وشنطن التورطات الدولية لان كبار ضباط البحرية اليابانية كان لهم ضلع في القضية مباشرة وان الجاسوسية قد غيمت على الجو اللطيف الذى يسود الدبلوماسية الدولية • وحتى أمام هذا الدليل القاطع ووجود طومسون يرسف فى الاغلال تلقى النائب العام الامريكى أمرا من السلطات العليا بألا يقرر الاتهام الا اذا ضمن الحكم بادانة المتهم • ولكن من يضمن ذلك دون قوانين مفصلة ضد الجاسوسية ؟ بذلك اصبحنا أمام العراقيل المعتادة التى كثيرا ماكانت تعمل فى الماضى على فشل النتائج النهائية لاوجه نشاطنا بفتح ثغرات في جهودنا ضد الجيوش السرية التى كانت تحاول معرفة اسرارنا الوطنية •

وكانت هذه هى احدى قضايا الجاسوسية الاولى والمادة ٥٠ من قانون الولايات المتحدة تتطلب توافر « القصد » وغير هذا من العبارات المربكة ، وأصبحت مهمتنا الآن ان نقنع النائب العام الامريكى بانه يستطيع الحصول على حكم بالادانة • فعهد الى فى هذه المرحلة أن أقوم بالمساعدة وطرت الى لوس انجلوس للاجتماع بمستر بيرسن هول الذى

كان نائبا عاما وهـو الآن قاض فيـدرالى • وأكدت له ان المحلفين من كاليفورنيا لن يكونوا فى جانب جاسوس يعمل لصالح اليابان وشجعته على السير فى أقامة الاتهام • ولكنه كان لايزال فى حاجة الى تصريح من وشنطن •

فأسرعت راجعا الى وشنطن انتقل من طائرة الى أخرى لمقابلة مساعد النائب العام مستر بريان ماكماهون (وهو الآن عضو مجلس الشيوخ عن كونكتيكوت) وكان مسئولا عن القضية فى دائرة وشنجطن • فأظهر شيئا من العطف ولكنه قال ان السلطات تحتاج الى خمسة أدلة اخـرى لتستطيع أقامة الاتهام •

وسألته عنها نذكرها دليلا بعد الآخر • وقلت «اذا فرضنا وجود هذه الادلة الاضافية فهل نستطيع السير فى القضية ؟»

فأجاب ماكماهون «نعم نستطيع ذلك » •

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى جئت بالادلة التى طلبتها وزارة العدل ووضعتها أمام مستر ماكماهون وبذلك تمكن من الشروع فى اجراءات الاتهام ضد وليام طومسون • ولم تكن هذه سوى حقائق بسيطة تدخل فى نطاق المعلومات الضحمة التى لم تنظم بعد لكى ترضى العقلية القضائية • وفى هذه الآونه كان كوماندر ميازاكى قد غادر البلاد على ظهر سفينة مسافرة الى طوكيو مما كان موضع ارتياح لدى أولئك الذين كانوا يعتبرون ان محاكمته ليست من الحكمة فى شيء • وأما طومسـون فقد حكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة يقضيها فى سجن ماكنيل أيلاند • ولايزال هناك لغاية الوقت الحاضر يدفع ثمن جريمته •

وهكذا انتهت قضية طومسون ولكن مازال أمامنا القبطان ياما جوشى • فوضعنا مكتبه ومسكنه تحت رقابة مسـتمرة • وللمـرة الثانيـة كان الامريكيون من المواطنين أكبر معين لنا من حيث الحصول على المعلومات وكان لدينا بضعة عملاء كانوا يرشدونهم فى ملاحظاتهم • كما قمنا بالتحرى عن كل من يأتى لزيارة ياما جوشى الذى كان يعتبر شخصا غير مرغوب فيه

فطلبنا من السلطات العليا الا تتخذ اجراءات على هذا الاساس وتأمر باعادته الى طوكيو • وذلك لان مثل هذه التصرف يضر بسير أبحاثنا التى أوشكت أن توصلنا الى دليل يقام ضده • كما أن ذلك يدعونا لان نبدأ أبحاثنا من جديد حول رجل جاء لينصب شباكا خاصة له فى بلادنا • وكذلك لاحت لنا أبحاث جديدة تتعلق بياماجوشى نفسه • اذ تبين لنا أثناء فحص قضية طومسون أن رجلا أبيض كان بين زائريه وكان فى سيارة تحمل أرقام ترخيص من ماريلاند • وكانت السيارة مسجلة باسم « باريت » • وبعد تحريات أخرى علمنا أن صاحبة السيارة هى مطلقة جون •س• فارنسورث وهو لفتننت كوماندر سابق رفت من بحرية الولايات المتحدة •

وكان فارنسورث هذا موضع اشتباه من قبل وأصبحنا نعتقد أن شكوكنا كانت في محلها • اد قضى فترة طويلة يقوم بزيارات لادارة البحرية ويسأل معارفه عدة أسئلة مما لفت أنظار رجل متيقظ الى أن هذا الوضع يبدو غريبا بالنسبة لماضيه السىء فقدم تقريرا الى المخابرات البحرية التى قامت باحصاء الاشخاص الذين كان يتردد عليهم ومعرفة نوع الاسئلة التى كان يلقيها عليهم واتضح أنها اسئلة تدور حول الشئون الفنية مما جعلنا ندرك أن هناك شيئا يكمن وراء نشاطه هذا •ولكن بعضا من أصدقائه السابقين ممن له صلة بهم كان يسخرون من هذه الفكرة • وحذرت أحدهم أنه قد يأسف لاهماله من حيث ما أفضى به لفارتسورث• وكانت مفاجأة مذهلة لهذا الشخص نفسه عندما استدعى للعودة الى وشنطن من الساحل الغربى فى ذات يوم للادلاء بشهادته فى القضية ذاتها •

وتأكدت شكوكنا تماما حول فارنسورث عندما قام بزيارة لاحدى المدمرات فى أنابولس وكان يرتدى ملابس مدنية • وعند باب السلم التقى بالضابط المنوط وكان شابا برتبة صغيرة فقال فارنسورث : « أنا فارنسورث من ضباط البحرية سنة ١٩١٥ وأود أن أطلع على شىء فى كتابك هذا عن ـ « وأشار الى كتاب يحتوى على تفصيلات سرية • وكان ضابط سطح المدمرة بعيد النظر فسأله « هل ما زلت فى البحرية ؟ » وأدرك فارنسورث مغبة انتحاله لهذه الشخصية وأجاب بالنفى فلم

يصرح له الضابط برؤية الكتاب • ولكنه تمكن فيما بعد فى ادارة البحرية من التقاط كتاب آخر كان على مكتب صديق قديم له تصادف أن استدعى وخرج من الغرفة على عجل • بعد ذلك بفترة قصيرة اكتشف أمر الكتاب وتم اعتقال فارنسورث وهو فى حوزته • وكان هذا سببا فى افتضاح أمره فأحكمنا الحصار حوله وحصلنا على جميع المعلومات التى كانت سببا لالقاء القبض عليه •

ولست فى حاجة لاطالة الحديث بذكر قضية فارنسـورث بالتفصيل فان هذا الحادث المؤلم نال شهرة أكثر مما يستحق • ومن جهة نظرنا فان ياماجوشي كان أكثر دناءة من فارنسورث فيما يتعلق بهذه القضية • حتى اذا أبعدنا الضابط السابق عن مسرح الاحداث واعتقلناه حتى لا يرتكب جرائم أخرى وجهنا كل عنايتنا الى القبطان ياماجوشي وأعددنا له شركا كان لابد أن يقع بين حباله •••

١٨

دبلوماسيون وعملاء فى نفس الوقت

أصبح من الواضح أمامنا جميعا ـ ونحن نعمل على صيانة أمننا القومى ـ أن حملة الجاسوسية اليابانية كانت على أشدها • ولكن لم يتبين لنا ما كان اليابانيون يسعون لتحقيقه • فقد كشفت قضية طومسون عن أن خصومنا يهتمون بتفاصيل المدفعية الامريكية • وأن فارنسورث لم يكن سوى وسيط عادى يمد اليابانيين ببقايا معلومات متفرقة يلتقطها عن طريق اتصالاته فى محيط واشنطن •

وهاتان القضيتان ـ على أهميتهما ـ لم يظهرا أهداف المصالح الحقيقية التى كانت تسعى اليها المخابرات اليابانية فى الولايات المتحدة • ومن وجهة نظر المخابرات المضادة، وكان «لاسباب عملية متنوعة» يهمنا بصورة حيوية أن نكون على علم بما نسميه « قائمة البضاعة المطلوبة » وهى ما تسعى اليه مخابرات العدو وتعمل على تحقيقه فى النهاية • وبذلك نستطيع المحافظة على هذه الاسرار الخاصة التى تهم الاجانب والتى يجتهد عملاؤهم فى الحصول عليها • وثانيا معرفة الاغراض التى ترمى اليها مخابرات العدو مما يكشف لعملائنا حقيقة موقف القيادة العليا للعدو ومقاصدها وهذا هو أصعب جزء فى عمل المخابرات • وأخيرا يكشف العدو عادة عن نقائصه بسعيه فى الحصول على أسرار الامم الاخرى تعويضا عن أخطائه ونواحى الضعف فيه •

ولقد كان الاهتمام فى الماضى ـ فيما يقال له المدرسة الكلاسيكية للجاسوسية الاوروبية والتى استخدمت فى الحرب السرية بين ألمانيا وجاراتها للشرق والغرب ـ الاهتمام بما يسمى (خطة الفتح × ، وكانت هذه جزء من كل خطة العمليات التى تعدها هيئة أركان الحرب ، وتكشف عن التحركات الاولية عند قيام الحرب فى تفصيل كبير ، وكانت هذه هى

× *Aufmarschplan*

دائما هدف العملاء السريين ، وقـد كان معرفة هذه الخطـة يمكن الدولة التى سيعتدى عليها أن تقوم بتوزيع قواتها والتأهب للمعركة ليس على مجرد أسس افتراضية بل على معرفة تامة بتحركات الخصم وبذلك سبق العدو فى بداية قيام العمليات العدائية ٠

وهذه الخطط من حيث أثارها وقيمتها الفعلية ٠ هى أهم الاسرار التى تحتفظ بهـا جميع وزارات الحربيـة والبحرية فى أوروبا ٠ ولكن حـدث فى تاريخ الجاسـوسية مرة أو أكثر أن تمكنت دولة كبرى من الحصـول على تفاصيل خطة « الفتح » لدولة أخرى يحتمل أن تكون عدوا لها ـ مع أنه من الممكن الحصول على هذه الخطط بوسائل أخرى غير الجاسوسية : بملاحظة نظام التحصينات لدى عدو محتمل ٠ ومراقبة التغيرات فى أنظمته العسكرية فيما يتعلق بتوزيع الهيئات العسكرية والبحرية ثم ملاحظـة اتجاه المناورات السنوية ٠ وفى سنة ١٩٠٥ أدرك الفرنسيون أول صورة لخطة شليفن بينما فى سنة ١٨٧٠ تحصل مولتك على معلومات عن خطـة الفرنسيين للتوزع للعمليـات وذلك عن طريق ما كانت تسـمى رحلات أركان الحرب الى ميادين القتال بين بروسيا وفرنسا فى المستقبل حيث كانت تحصل على الملاحظات اللازمة وكذلك عن طريق أوجه نشاط زعيم الجواسيس اللامع دكتور شتيبر الذى كان يعمل فى فرنسا مع آلاف العملاء قبل بدء الاعمال العدوانية ٠

والمثال الواضح لدولة كبرى اتخذت من الجاسوسية وحدها سـبيلا للحصول على خطة دولة أخرى هو قصة كولونيل ألفرد ردل من الجيش النمسوى ٠ وكان هذا الكولونيل رئيسا لمخابرات النمسا وفىحوزته جميع المستندات العسكرية ومن ضمنها خطة التوزع للقتال التى وضعها فيلد مارشال كونراد فون هوتزندورف للحرب ضد الروسيا فى المستقبل والتى أقيم بمقتضاها نظام التحصينات فى بولندة النمساوية ٠ وكان رؤسـاء كولونيل ردل يجهلون ما فى شخصيته من نواحى الضعف التى جعلتـه يخضع للتهديد بالكشف عن سمعته السيئة ٠ وبطبيعة الحال علم الملحق العسكرى الروسى الكولونيل زبوويتز Zubo،itz بحقيقة أمره فأرسل له أحد أصدقائه المقربين وجابهه بأن يختار بين أمرين قائلا : « اما أن تعمل لصالحنا أو سوف نعرض سمعتك للتشهير » ٠ وفى الوقت نفسه عرض عليه زبوويتز أن يجزل له العطاء ٠

وكان من نتيجة خيانه ردل أنضاعت الفرص أمام النمساويين لتحقيق الانتصار على روسيا فى حرب سنة ١٩١٤ ٠ اذ كان من المستحيل احداث تغييرات جوهرية فى نظام التحصينات الذى وضعت على أساسه خطة الفتح للمعركة ٠

ولم توفق الولايات المتحدة فى اعداد خططها لانها ـ بوصفها دولة ديمقراطية ـ لا ترغب بطبيعتها فى الحروب ٠ وكانت خطتنا التى أطلقنا عليها «يوم ـ م» موضوعا تناولته الجرائد على صفحاتها ٠ ولو أنها لم تكتب عن جميع التفصيلات الا أنها أذاعت منها قدرا كبيرا بحيث وجهت أنظار خصومنا عن هذا الموضوع الى شيء آخر ٠ وخاصة عندما أذاعت جريدة معينة من الاقليم الاوسط الفكرة النهائية لها فى مستهل حادث بيرل هاربر

ثم أن عملاء العدو الذين يعملون ضد الولايات المتحدة كانوا يهتمون بالمعلومات الفنية والتكتيكية بنوع خاص ويعنون بتفاصيل التقدم الفنى فى التصميمات البحرية ٠ ولما كان التطور الحقيقى فى الجيش ينتظر دائما وقوع الحرب ذاتها فان موقفنا الجيوبوليتيكى يستدعى التقدم المستمر للبحرية بوصفها القوة الدفاعية الوحيدة للامه ٠ وهذا هو السبب فى أن اليابانيين كانوا يركزون اهتمامهم على الحصول على أسرار البحرية أكثر من عنايتهم بأسرار الجيش الصغير فى وقت السلم وهى أسرار يمكن التجاوز عنها مما جعل عمل الجاسوسية المضادة فى المخابرات البحرية أشد تعقيدا من عمل المخابرات الحربية ٠

واذا تركنا هذه الحقيقة جانبا نجد أن G 2 كانت تعوقها سياسة تمنع النهوض بالضباط الاحتياطيين فى زمن السلم ٠ وهؤلاء كان من الممكن أن يعملوا على تدعيم القوة قبل بدء الاعمال العدوانية بصورة فعلية ٠ ولسبب ما لم يكن واضحا فى نظرى كان هناك أمر ادارى يمنع ضباط المخابرات الحربية من طلب ضابط احتياطى ليس فى الخدمة العاملة ليقوم بتحصيل المعلومات أو اجراء أبحاث فى قضية بأى صورة ما ٠ وذلك بصرف النظر عن الحاجة الحيوية للضابط الاحتياطى ومقدار صلاحيته للقيام بمثل هذا العمل ٠ وكثيرا ما عرضت للمخابرات الحربية الدعاية التى تقام على أساسها المطالبة بهذا التصرف ٠ ولكن كلما كانت G 2 تقدم خطة الى السلطات العليا مطالبة بترتيبات وتجهيزات وقت السلم كان الطلب يعاد اليهم وعليه عبارة لا تتغير لا يمكن فعل شيء حتى يوم ـ م » ٠

وبينما كنا نفكر في الاغراض التي ترمى اليها المخابرات اليابانية وتعد اجراءاتنا المضادة واذا « بآلهة الحظ » Lady Luck — التي هى أهم عميل سرى فى أية ادارة للمخابرات — تقدم لنا مستندا أصيلا أعده اليابانيون أنفسهم . وعن طريق عميل تميز بالعبقرية والمهارة تمكنا من اغواء عميل يابانى هام — لفتننت أوهامى — وجعلناه ينسى مهمته لفترة قصيرة . ولما كان ضباطنا يمرون فى بعض الاحيان بتلك التجارب الشائكة فمن الخير أن نبين الاخطار التي يتعرض لها المسافر ومعه مستندات سرية . فقد « فقد » أحد ضباطنا الصغار حقيبة صغير من غرفة فندق فى ديفنبورت — أيووا أثناء فترة قصيرة قضاها فى الحديث مع فتاة يابانية فضولية — مس ساكانيشى — وكان يخبرها عن الطريق الذى سيتخذه الى الساحل الغربى . وكانت من أفضل العملاء اليابانيين فى الولايات المتحدة وتعمل موظفة فى مكتب الكونجرس كستار لنشاطها .

ومن حيث موضوع أوهامى عميل المخابرات اليابانية لم يكن من الصعب أن نستغل ضعفه أمام جمال النساء ونغريه لكى يترك غرفته لمدة خمس عشرة دقيقة . وشعرنا بأن ذلك كان تعويضا كبيرا لنا عن فقد الحقيبة السابقة . فعندما تخلص أوهامى من الشرك المنصوب له كان قد ترك وراءه مستندا بالغ الاهمية وهو « قائمة البضاعة المطلوبة » للمخابرات اليابانية . وكانت قائمة طويلة أشار أليها وضعوها فى طوكيو بأنها « سرية للغاية » . وتضمنت فى بنودها المتنوعة تفصيلات مطلوبة عن جميع أسرار استحكاماتنا العسكرية والبحرية . وخصص جزء منها لبيان المعلومات التكتيكية التى يطلبها اليابانيون بما فيها التكتيك المتعلق بالقتال أثناء الليل .كما خصص آخر الى وسائل تمييز الاشارات والتعرف عليها . وبنود أخرى تتعلق بالتعليم والتدريب ومقدرة سفننا الحربية وطرادتنا الثقيلة فى الحرب ثم تحركات الاسطول الامريكى .

وكما صورت لنا شئون الحرب من الوجهة النفسية فيما بعد من حيث الفائدة التى تعود علينا من معرفة المميزات الشخصية والمعروفة عن القادة فان اليابانيين أخذوا يهتمون بالغ الاهتمام برجالنا البارزين فى بحرية الولايات المتحدة . والذين كانوا يشعرون بأنهم سيتولون مناصب القيادة فى الحرب المستقبلة . فيعرفون تاريخ حياة كل منهم وسيره وسلوكه . وشئونه الخاصة من حيث مقدرته وكفاءته . وأفكاره حول فنون الحرب . المعلومات الدالة على أخلاقه الشخصية . ثم سجل تاريخ ترقياته ومناطق

خدمته والمقالات والبحوث التى كتبهـا • وكان لدى العملاء اليـابانيون تعليمات بدراسة نشاط مخابراتنا • وتشمل هذه التعليمات الوسـائل التى يجب أن تسير الجاسوسية على هداها •

تلك كانت قائمة شاملة جمعت احصاءات عن مميزات شخصية لافراد معينين ليتبين لهم أوجه النقص فيهم وفى الوقت نفسه أتاحت لنا فكرة عن أوجه الضعف فيهم وكشفت لنا ـ الى حد ما ـ عن مقاصدهم • ثم أن شدة اهتمامهم بالتكتيك والنشاط أثناء الليل دلنا على أنهم يعتمدون ـ الى حد بعيد ـ على القتال بعد هبوط الظلام • ولكن بينما كانوا يركزون كل اهتمامهم فى ناحية واحدة كنا منهمكين فى تحسين اجراءاتنا المضادة ـ الرادار •

وبينما كنا نستغل هذه المستندات الهامة ونحكم سياج الامن لسـد الطرق الموصلة الى الاسرار المبينة فى القائمة التى عثرنا عليهـا وقع فى أيدينـا مسـتند آخر كشف لنا فى تفصيلات أكثر عن الغرض الاسـاسى للمخابرات اليابانية • فقد أصبح معروفا أن اليابانيين تمكنوا من الحصول على أحد أبراج المدافع من عيار ٨ بوصة وأنهم يتلهفون على الحصـول على معلومات بقدر استطاعتهم عن طلقاتنا الجديدة عيار ٨ بوصة • ومع هذه المعلومات التى فى حوزتنا ووجود أوجه نشاط كابتن ياماجوشى تحت المراقبة ، لم يكن لدى اليابانيين ما يمكن أن يخفوه عن أعيننا • والمسألة الآن : ما هى أفضل الطرق لاسـتغلال ما لدينـا من المعلومات للاضرار بخصومنا بتحويل أسرارهم هم أنفسهم ضدهم لتكون وبالا عليهم ؟ •

فقررنا استخدام مكيدة معروفة فى المخابرات وتحتاج الى مهارة خاصة وحرص بالغ لتكون ذات أثر فعال ـ هى نظام العميل المزدوج •

وهذا ـ فى الحق ـ انتاج فرعى للمخابرات ينطوى على شىء من الخيانة ويمارسه عادة عملاء مستهترون وعلى استعداد لخدمة سيدين أو أكثر تتوفر فيهم الرغبة فى حسـن الجزاء • وكانت ماتا هارى الشـهيرة من العملاء المزدوجين • ومن الممكن الحصول على أمثال هؤلاء من الجواسيس المحترفين الذين لا دافع لهم سوى مصالحهم الشخصية أكثر من اخلاصهم لبلادهم • وأفضل العملاء المزدوجين هو من يتصل به العدو أو العدو المرتقب لكى يعمل لحسابه ثم يجىء الينا ليخبرنا بحقيقة الامر ومن ثم يوافق على العمل لصالحنا •

وفى هذه القضية التى أروى وقائعها اتصل اليابانيون بأحد رجالنا بعد مراقبته فترة طويلة وأدركوا ظروفه السيئة وأنه يعمل فى مرفق هام من مرافق البحرية وهو مصنع المدافع . وهذه الحقائق من السهل على عملاء العدو أن يتأكدوا منها . ولذلك كانت محاضراتى التى القيتها على المجموعات التى يهمها الامر تنطوى على نصيحتى لهم فى موضوع « أمن المصانع » « أن يكونوا على حذر من رفاقهم فى المجتمع » .

وبمجرد اتصال اليابانيين برجلنا هذا ـ وسوف ندعوه جونز ـ توجه فى الحال الى ادارة المخابرات البحرية . وهناك ـ بعد سماع قصته ـ أصدرت اليه التعليمات « بمجاراتهم » .

وهكذا لم نلجأ الى المخاطرة فى اختيار عملائنا المزدوجين لاننا توخينا الحرص والعناية التامة فى التقاط رجال مخلصين للوطن بدرجة لا يتطرق اليها الشك ويمكن لنا أن نثق بامانتهم الى حد كبير بالرغم من تعقيد العمل الذى يقومون به .

وكانت الخطة بسيطة فى ذاتها . فقد أدركنا تماما البيانات التى يتلهف عليها اليابانيون وأنهم يتأكدون من تفصيلاتها أثناء اجتماعاتهم بقوم سذج لا يشتبهون فى شىء فيثيرون محادثات تافهة فى ظاهرها ولكنهم يستخلصون منها المعلومات المطلوبة . وعلى ذلك قررنا أن نوفر لهم هذه البيانات ولكن فى صورة مختلفة نوعا . وذلك بتغيير أو ازالة العنصر الذى يضفى عليها ظلا من السرية . ثم تعطى المعلومات « الجاهزة » الى من يبدو عليه أنه من عملاء كابتن ياماجوشى أو أحد أتباعه . وبذلك تكون المعلومات التى تتدفق على المخابرات اليابانية تحت رقابتنا الى حد كبير . ولا يصل الى أيديهم شىء سوى ما تقرر أعطاءه اليهم ـ وتلك « أسرارا مصطنعة السرية » لتضليل العدو .

وكانت طبعة رسمية للطلقات من عيار ٨ بوصة هى أول ما أرسل الى كابتن ياماجوشى . وكان مظهرها يوحى بأنها طبق الاصل ولكنها أعدت تحت اشراف السلطات البحرية المختصة التى اهتمت بازالة ما أدخل عليها من التحسينات . فلما توجه العميل المزدوج ومعه هذه البضاعة الثمينة

الى كابتن ياماجوشى تلقاه بالترحاب وفتح له محفظة نقوده • حتى اذا ألقى على الاوراق نظرة عابرة أعطى جونز مبلغ خمسمائة دولار أوراقا مالية قديمة • وهى قيمة استثنائية لا تدفع الا فى صفقات أكبر فى هذا الصدد •

وكنا فى انتظار عودة عميلنا المزدوج من أول رحلة له الى كابتن ياماجوشى بفارغ الصبر وكذلك العميل كان متحمسا عند عودته الينا بعد انجاز مهمته على الوجه المطلوب •

وقال « لقد أعطانى خمسمائة دولار ثمنا للاوراق » •

وأخبرناه أن هذا المبلغ له مكافأة على خدماته وسمحنا له بأن يحتفظ بأية نقود يتسلمها من اليابانيين نظير أية خدمات فى المستقبل على شرط أن يخبرنا عن كل قرش يأتيه من أى رجل منهم • وعلى أى حال كان الامر يحتاج لاقناعه بأنه جدير بهذا المال • ولن تكون هناك اجراءات تتخذ ضده فى هذا السبيل • وسارت اللعبة طبقا للخطة الموضوعة وكانت الاموال المرصودة أصلا « لحادثة منشوريا » قد أخذت تتسرب الى آبار لا قاع لها •

وفى اجراءاتنا هذه لم نحسب حسابا لزوجة العميل المزدوج التى أصبحت تشتبه فى ثروته المفاجئة وبدأت تلقى عليه أسئلة محرجة • فنصحناه بفتح حساب منفصل فى أحد البنوك ويستأنف حياته المعتادة فى منزله بانتظام ــ فى الوقت الحاضر على الاقل •

وانى آمل أن هذه الزوجة الطيبة اذا أطلعت على هذه البيانات الآن فسوف تعترف بالموقف وتقدره حق قدره بعد أن مضى على ذلك أكثر من عشر سنوات • وهو الموقف الذى أرغمنا على أن نجعلها فى منأى عنه لا تدرى شيئا •

وبينما كان عملاؤنا المزدوجون يمارسون نشاطهم فى واشنجطون وفى أماكن أخرى • جاءنا من أحد المخبرين الموثوق بهم فى دترويت Detroit دليلا آخر يكشف عن موضوعات خاصة يهتم بها اليابانيون اهتماما بالغا

فقـد أقامت فرقة من السـلاح الجوى فى مطـار بدايتون بولاية أوهيو معرضا للطائرات الحربية من بين معروضاته كشاف لاسلكى يعد فى البحرية من أهم التصميمات السرية • وكان الجيش قد أخذ فى تطبيق استخدام الجهاز • ولكن بالرغم من حرص المخابرات البحرية على المحافظة عليه وبعده عن أعين الفضوليين عرضه علنا بضعة من ضباط العلاقات العامة المليئين بالفخر لتقدمنا الصناعى •

وكان مما استلفت أنظار عميلنا الى هذه الآلة أنه لاحظ أحد اليابانيين يبدى دهشة بصورة غير عادية ثم يغادر فى الحال لكى يتصل ـ على مسافة طويلة ـ «بمفتش» مكتب المشتريات التابع للبحرية اليابانية فى نيويورك • وفى صباح اليوم التـالى لم يدهش عميلنـا عند رؤية عددا من الزوار اليابانيين يرقبون المعروضات بمزيد من الاهتمـام ومعهم آلات التصوير والمذكرات • وبطبيعة الحال لم يكن الرجل فى دترويت يعلم شيئا عن الاسرار الخاصة بهذا التصميم ولكنه كان مقتنعا بأنه لابد أن يكون على جانب كبير من الاهمية بسبب ما أبداه اليابانيون من اهتمام ظاهر • وبناء على ذلك اتصل بنا بالتليفون فى وشنطن وأخبرنا بالقصة • فاتصلنا بمخابرات الجيش وطالبنا بسحب الجهـاز من المعرض وتم ذلك فى الحال • حتى اذا وصل بالطائرة من نيويورك موظفو مكاتب المشتريات والمخابرات اليابانية الى دترويت فى اليوم التالى ٢٦ يوليه سنة ١٩٣٥ بنـاء على دعوة عميلهم كانت هذه السلعة السرية قد اختفت من السوق العلنية • وكان لهـذا الجهاز أهمية حيوية بالنسبة لهم بحيث استأجر الضباط اليابانيون طائرة للسفر الى دترويت وعندما وصل رئيسهم كابتن ساكوراى من نيويورك ووجد مكان الآلة خاليا كان شديد السخط وبدأ يوجه ألفاظا نابية الى أحد الحراس بسبب اختفاء الجهاز من مكانه •

أصبح لدينـا الآن فكرة واضحة عن أغراض المخابرات اليابانية فى الولايات المتحدة • فقد أدركنا خططهم والموضوعات والاهداف الخاصة التى يسعون الى تحقيقها • ولكن كنا لا نزال نجهل الوسائل التى يستخدمونها فى نقل المعلومات الى خارج البلاد كما نجهل حقيقة الاجهزة التى تديرها رئاسة المخابرات اليابانية • ولذلك أخذنا نسعى للحصول على معلومات اضافية عن الوسائل التى يستخدمها القبطان ياماجوشى •

وكما ذكرت من قبل • كان القبطان يتخذ من شقتين متصلتين مسكنا ومكتبا له فى ألبان تاورز عند ملتقى شارعى ماساشوستس وويسكونسن• وكان فى هذا المبنى أفراد آخرون من المخلصين لبلادهم دفعتهم ضمائرهم وبوازع من أنفسهم للتعاون معنا بمتابعة الادلة التى كثيرا ما كانت تبدو من ضباط المخابرات اليابانية • فأصبح من الضرورى عقد صلات كثيرة مع هؤلاء لوضع حصار حول نشاط رئاسة المخابرات اليابانية • وكان أملنا أن شيئا بسيطا من الرقابة يمدنا بمعظم المعلومات التى نريدها فاستأجرنا شقة عبر الفناء الضيق لنستطيع مراقبة ما يجرى فى مكتب اليابانيين • ولما كان الوقت صيفا توقعنا أن تفتح النوافذ وترفع الستائر من وقت لآخر • ولكننا ضقنا ذرعا عندما اتخذنا مواقعنا خلف الستائر المسدلة على نوافذ شقتنا ومعنا النظارات المكبرة • وانتظرنا فى صبر وأناة أياما ثم أسابيع ولكن النوافذ عبر الفناء لم تفتح مطلقا حتى لادخال نسمة من الهواء لتلطيف الجو فى تلك الايام • وبذلك ازدادت شكوكنا بسبب اغلاق النوافذ بتلك الصورة المستمرة واقتنعنا بأن هناك أمورا خفية تجرى من ورائها •

وعقدنا العزم على تفتيش هذه الغرف ورسمنا خطة تشتمل على تفصيلات كثيرة وتحتاج معاونة عدد من العملاء كما تستدعى التنكر • وهى خطة تستخدم فى النادر ولكنها تؤتى ثمارها عادة • وكانت الخطة تتضمن ابعاد الشخصيات الهامة عن الشقتين ــ ياماجوشى ومساعديه ــ ولا يبقى بها سوى موظف تابع وربما سائق السيارة أيضا • وقد يكون هذا أحد الحرس أو ضابطا صغيرا فى البحرية • وكان من المستحيل اخلاء الشقتين اخلاء تاما لاننا لاحظنا فيما سبق أن اليابانيين لا يغادرون المسكن دون أن يتركوا هناك من يرعى مصالحهم • ولكننا رأينا أنه بمجرد تحويل أنظار الرؤوس الكبيرة فمن السهل التعامل مع صغار الموظفين •

وكانت الفرصة تتيح لنا هذه الخطة هى اقامة حفل عشاء فى منزل فى شارع بوريتس تكريما لكابتن ياماجوشى وموظفيه مع ضرورة القيام بخدمة المدعوين حسب الاتيكيت المتبع فى وشنطن • وكان هذا العشاء جزءا من مؤامرتنا الصغيرة •

وكان تنفيذ الجزء الثانى فى شقة اليابانيين ذاتها مع ملاحظة الا تكون هناك صلة واضحة بين وجهى المؤامرة • اذ يقتضى الامر اطفاء الانوار هناك • وقد سبق أن اتخذنا مثل هذه الاجراءات من وقت لآخر ــ اطفاء الانوار ثم اعادتها ــ مما يوحى بأن ذلك راجع الى بعض اصلاحات بسيطة فى الاسلاك الكهربائية • وتكررت هذه العملية عدة مرات على فترات ليبدو الامر فى نظرهم شيئا عاديا عندما تتم هذه المناورة فى شقة اليابانيين أثناء وجودهم فى حفل العشاء فى منزلى •

وقد وضعت برنامجا لحفل العشاء • فيدخل ياماجوشى وصحبه منزلى ويتخذون أماكنهم المريحة حول مشرب مبتكر تدور فيه أقداح الكوكتيل التى أعدت بحيث تناسب أذواقهم وتجعلهم ينسون مهام أعمالهم • ولاحظت ــ كلما ملات الاقداح ــ أمارات السرور والانشراح تبدو على وجوههم مما أكد لى عدم اهتمامهم بشىء وأنهم مغتبطون بتخلصهم من الرسميات • وكان الخدم يؤدون واجباتهم على الوجه الاكمل أكثر مما كنت أتوقع • وقد حضر ياماجوشى وهيئة موظفو مكتبه جميعا وكذلك ــ كما اقترحت عليهم ــ جاء معهم بعض الضيوف من الضواحى وهم طلبة اللغات من مختلف الجامعات • وأخذت أفكر فيمن يكون باقيا فى وشنطن فى هذا المساء بالذات لكى أدعوهم لمشاركتنا ولكنى أدركت أن ليس هناك سوى الكاتب وسائق السيارة • وبذلك أصبح المسرح معداً •

وقدرت أنه حينما تدور الاقداح دورتها الثالثة وتصبح فى أيدى الضيوف تأخذ الانوار فى شقة ياماجوشى فى الاضطراب شيئا فشيئا لتبدو أن هناك خطأ ما فى الاسلاك الكهربائية ثم تنطفىء تماما تاركة الرجلين فى الظلام • وكنت متيقظا لميعاد هذه العملية فجلست قريبا من التليفون لكى أرد على أية مكالمة للكاتب اليابانى وهو يسأل رئيسه الكابتن عن التعليمات اللازمة فى مثل هذا الموقف • وكانت خطتى أن انصحه بدعوة المسئول فى الردهة وابلاغه بموضوع اطفاء الانوار ولكنه كان شابا ذكيا فى غير حاجة الى نصيحة اذ قام بذلك من تلقاء نفسه كما توقعنا •

وقدم الموظف المنوط اعتذاراته وصعد بنفسه الى مسكن اليابانيين ليرى ماذا حدث ثم أبدى أسفه بأن هذا من عمل عمال الكهرباء المحترفين •

وأنه سوف يرسل اثنين من العمال لاعادة الانوار كما كانت • وبعد بضع دقائق دق الباب رجلان فى ملابس العمال ومعهما حقيبتان تحتويان على الادوات الكهربائية • فقالا لمن فتح لهما الباب :

« ما هى شكواكم • أيها السيد ؟ » •

« اضطراب فى هذه الانوار منذ عدة أسابيع • نأمل أن تصلحوها فى هذه المرة » •

وأجاب أحدهما : « سوف تكون فى حالة جيدة بكل تأكيد • « ماذا يوجد فى هذه الغرفة ؟ » وكان فى يده مصباح كشاف قوى اكتسح بضوئه الشقة من جميع أركانها • وكان على علم وخبرة بمحتويات الحجرات التى شاهدها ودرسها قبل دخوله المكان • كما كان يعلم أن الغرفة التى أشار اليها عند دخوله كانت المخبأ الداخلى لياماجوشى وهى الغرض الاساسى من هذا البحث • وكانت مهمته أن يدخل هذه الغرفة الخاصة لفحص محتوياتها ولاكتشاف ما يخبئه اليابانيون هناك • وفى شعاع الضوء الكشاف تبين له الباب المفتوح المؤدى الى المخدع الداخلى وعلى ذلك أشار الى زميله وقال :

« هلم ياجيم دعنا نفحص الوصلات الكهربائية فى سقف هذه الغرفة » •

وبدأ الرجلان فى اجراء تفتيش دقيق فى المعدات الكهربائية فى الجدران وفى كل « شىء » فى الغرفة • وكان البحث مصمما على اكتشاف ما اذا كان اليابانيون يستخدمون جهازا للارسال اللاسلكى أو اذا كان لديهم آلة ميكانيكية لكتابة الشفرة وكل منهما فى حاجة الى القوة الكهربائية • وكان فحص هذه الاجهزة يمدنا بمعلومات هامة ــ بضع لقطات من مخابراتهم أثناء وجودنا فى معسكرهم • فكان المصباح القوى يلقى الضوء حول الخزانة وكل ما يتعلق بالاجهزة الفنية للمخابرات التى تمكنوا من اخفائها عن أعيننا زمنا طويلا •

وكان على الرجلين أن يعملا فى عناية وفى سرعة حتى لا يكونا موضع اشتباه • وتم لهما ما أرادا من حيث البحث واصلاح الكهرباء فى الوقت نفسه • حتى اذا حان موعد تناول العشاء فى أوعية يابانية ملونة لكى تثير محادثات حول اليابان ولا تدع مجالا للقلق • عاد أحد الرجلين الى الشقة وقال « لقد عثرنا على موضع الخطأ فى الاسلاك وهو تماس فى بعض أجزائها » •

وبعد أن قضى الرجلان بعض الوقت فى اصلاح الاسلاك ووصل أجزائها بالاشرطة اللازمة فى نشاط ظاهر هبط كل منهما الى الدور الارضى لاعادة وضع المصهرات فى مكانها الصحيح وكانت قد احترقت قصدا لهذا الغرض • فانتشرت الاضواء فى الشقتين • وعندما عاد الرجلان لمراجعة نتيجة جهودهما وبدءا يدخلان الى الغرفة الداخلية للتأكيد من صحة الاجراءات بوجه عام • أوقفهما الكاتب على عتبة الباب وقال فى نغمة ودية :

« شكرا لكما • ولا حاجة لدخولكما هنا » •

فقال أحدهما : « حسنا أنا على يقين من أن كل شىء سيكون على ما يرام من الآن فصاعدا » •

وكان ضوء المصباح قد كشف عن كل شىء نبتغيه فلم تكن هناك حاجة لاجراء أبحاث أخرى • وأعد الرجلان حقيبتهما واستعدا للخروج واذا بالكاتب يدس فى أيديهما قطعتين لامعتين من ذات الخمسة والعشرين سنتيما • احتفظا بهما كتذكارين هامين عاقا ما به من أعمال هامة عندما كان التفتيش يأخذ مجراه هناك •

وبينما كنا مجتمعين فى غرفة الجلوس نتبادل أحاديث ودية قبل العشاء لاحظت أن كوماندر جو Jo وهو طيار وأحد مساعدى ياماجوشى كان يجلس الى منضدة صغيرة عليها صندوق فضى للسجاير عليه شارة العائلة الامبراطورية وهى مجموعة من أربع عشرة من أوراق زهر الكراز حول دائرة تمثل الشمس المشرقة • وكانت شارة الامبراطور نفسه ست عشرة من تلك الاوراق ولكن أعضاء الاسرة لا يتعدون أربع عشرة فقط • ورأيت كوماندر جو يحدق النظر بالعلبة الفضية الجميلة ويركز عينيه على الصورة البارزة عليها • ثم اضجع فى مقعده يبدو على وجهه

قلق مفاجىء وتحول من حالة المرح والسرور الى هيئة رزينة ٠ وبدا لحظة كأنه لا يصدق عينيه ٠ فأخذ يعد بأصبعه أوراق الزهر من واحدة الى أربعة عشر وهى الشارة الامبراطورية ٠ حتى اذا انتهى من هذا الاحصاء ارتسم على ملامحه مظهر رزين ووضع يديه على صدره واستقام فى مقعده ثم انحنى أمام علبة السجاير ٠

نجح حفل العشاء نجاحا تاما ٠ وكانت نتيجة فحص « عمال الكهرباء » مرضية للغاية ٠ حيث اكتشفنا أن ليس هناك أجهزة لموجة قصيرة أو أى معدات للارسال اللاسلكى ٠ وثانيا ثبت لدينا أن الخزانة كانت صغيرة الحجم بحيث لا يمكن أن تحتوى على آلة للكتـابة بالشفرة تحقق الغرض منها ٠ كما تأكدنا أن كل هذه الاجراءات تتم فى السـفارة اليابانية فى ميدان ماساشوستس وحتى اذا كان ياماجوشى قد اشتبه فى شىء فقد كان من الحكمة بحيث لم يذكر لى شيئا خلاف ثنائه على ما لقيه من ألوان الرقة والكرم التى كانت فى سخاء واضح فى هذه الفرصة الخاصة ٠ وانى أذكر هذا الحادث ليكون عبرة لرجالنا حتى لا يرتكبوا أخطاء فى مثل هذه الحيل ويحرصون على المحافظة على الامن عندما يتظاهرون بها ليقوموا باجراءات الفحص والتفتيش ٠ ولعل بعض القراء ممن يحرصـون على المال يتذمرون من ضياع أموال الحكومة فى حفلات العشاء وأزياء التنكر ٠ وأود أن أضيف هنا أن كل أنواع النشاط هذه كانت من تلقاء نفسى وعلى حسابى الخاص ٠ ولم أطالب حكومة الولايات المتحدة بها ــ أى أنها منحتنى شيئا ــ عند تقديم التقرير النهائى عن جميع أوجه النشاط ٠

وبينما لم تكن التركيبات الكهربائية وما يثار حولها من أوهام مفاجئة٠ من الظواهر العامة كانت حفلات العشاء تسير بانتظام خلف مسرح وشنطن٠ ودهشت اذ جاءتنى بعد حفلتى الناجحة نسبيا دعوة لحضور حفل آخر فى منزل تاكسمى ميورا السكرتير الاول للسفارة اليابانية ٠ وذلك لاننا كثيرا ما دعينا الى منازل اليـابانيين ولكن الدعوة كانت تصلنـا قبل موعدها باسبوعين على الاقل وكان المفروض أنها دائما تشمل جنسيات أخرى ما لم يكن ذلك موضحا بها ٠ ولكن فى هذه المرة كان محددا لها الليلة التالية وأننا (أنا وزوجتى) الوحيدان من غير اليابانيين ٠ وكان هذا كافيا لنا لكى نتأكد أن الدعوة كانت لغرض ما غير تناول العشاء ٠ وهذا ما اتضح منهـا ٠

ولدى وصولنا الى المبنى عند شارعى كونكتكت وتلدن وجدنا الضيوف مجتمعين من قبل · وأول من قدم لتحيتنا كان ميورا بنفسه ثم كولونيل ماتسوموتو الملحق العسكرى · فتصافحنا وتلاهما ضباط الجيش والبحرية الواحد تلو الآخر · وكانت الشخصية الهامة الوحيدة كابتن ياماجوشى متغيبا فابتسمت لهذه المصادفة · ودون ذلك كان صفوة موظفى السفارة اليابانية والملحقون جميعا فى خدمتنا فقد كنا وحدنا الامريكيين من بين الحاضرين · وكان الاجتماع يشكل فرصة أخرى لتناسق جهود المخابرات مع الدبلوماسية ·

وكان الطعام كالمعتاد فى اجتماعات وشــنطن حيث دارت الاحاديث التقليدية فى جو مثقل برائحة الصحون الشهية · وأخيرا توجهنا الى غرفة مجاورة لتناول القهوة مع طبق من الفراولة فهمست لزوجتى « هل هناك شيء فى الخفاء ؟ » وغمزت بعينها مما دل على أنها كذلك تشتبه فى شيء هام سوف يحدث بعد ذلك ·

وبعد انتهاء القهوة واشعال السيجار ساد الهـدوء فى هذه الغرفة الصغيرة لحظة ثم سعل ميورا فقطع حبل الصمت وكان يستعد لالقاء كلمة· ولم يستطع اخفاء شغفه بالحديث حيث قال فجـأة « الآن ! « وألقى هذه الكلمة :

« زاخارياس » · فى هذا المسـاء نود أن ندخل فى مناقشـة حول العلاقات بين أمريكا واليـــابان » · فعادت الى ذاكرتى زيارة يوكوياما لنيوبورت وأعددت نفسى لما يشـبه « شيء مقابل بل شيء» فى المجادلات بلهجة مختلفة ·

وأجبت كما لو كان الامر مصادفة « أن هذا مما يسرنى · ماذا يدور بذهنك ؟ » ·

وكانت الجمل الافتتاحية فى هذه المناقشـة هى نفس محـادثتى مع اشيرو يوكوياما كلمة بكلمة والتى تحولت فشـملت التاريخ والحرب بين روسيا واليابان مما كشف عن ناحية مختلفة فى علاقاتنا ·

وقلت « لنعد الى الوراء فى سنة ١٩٠٤ • وأنا على يقين من أنك تعلم أنه فى ذلك الوقت كان يسود الولايات المتحدة شعور ودى الى أقصى حد تجاه اليابان » •

فقال ميورا « نعم • هذا صحيح » • وقلت :

« وانى أتساءل أن كنت تدرى أن هذا الشعور الودى كان سببا فى انقاذ اليابان من مواقف حرجة •وأكثر من ذلك• انقذها من خسارة مادية فادحة » •

وصاح ميورا قائلا « هذا أمر مدهش • كيف كان ذلك ؟ » وقلت :

« حسنا • عندما تقدم سير الحرب بين روسيا واليابان أدرك الرئيس تيودور روزفلت أن اليابان لم تحسب حسابا للاخطار التى انطوت عليها الحرب ولم تتوقع أن تطول الحرب لاكثر من بضعة أشهر • ولما كانت على غير استعداد لحملة طويلة الاجل فانها لا تستطيع البقاء طويلا بالرغم مما أبدته فى القتال من البسالة والروعة » • وهنا أصغى جميع الحاضرين فى شغف ظاهر • « وأدرك المستشارون العسكريون لديكم أن الحرب قد وصلت مرحلة حرجة بالنسبة لليابان • وأن اليابان لو واصلت القتال لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر سوف تستنفد مواردها وتلحق بها الهزيمة » • وتحولت الى كولونيل ماتسوموتو قائلا « أنت تذكر الموقف • أليس كذلك ؟ » •

فأجاب الملحق العسكرى فى تأكيد قاطع لم أكن أتوقعه « هذا صحيح لا ريب فيه » •

وكان من الواضح أمام جميع الحاضرين انى كسبت جولة كبيرة • وبالرغم من أن رواية الحرب الروسية اليابانية كانت مقبولة لدينا بوجه عام فقد كانت هذه أول مرة استطعت أن أحصل على موافقة من أى رجل يابانى وعلى الاخص من رجل عسكرى• لقد كان هذا تقديرا هاما للموقف•

وليس غير أولئك الذين يعرفون اليابان معرفة حقة من يقدر المغزى الحقيقى للتسليم بهذا الامر أمام مجموعة من اليابانيين · فقد كان هذا معناه أن اليابانيين أنفسهم لم يساورهم الشك مطلقا فى دقة هذا البيان ولو أنهم لغاية ذلك الحين كانوا يتجنبون التصريح بهذه الحقيقة بصورة علنية ·

وانتهزت هذه الفرصة التى أتيحت لى وقلت : « وكما تعلمون أن الرئيس روزفلت تقدم بعرض جهوده لاقرار السلام · وقام بتأييد العرض بعض مصادر يابانية معينة وسرعان ما قبله الطرفان · بعد ذلك أجريت المفاوضات فى بورتسموث ثم التوقيع على معاهدة الصلح · وطلبت اليابان من روسيا تعويضا قدره اثنين بليون ين · ولكن الرئيس روزفلت كان على يقين من الحوافز التى دفعت اليابان لاشعال نار الحرب · وكان يعلم حقيقة الموقف العسكرى لليابان فى تلك المرحلة من النزاع فاعترف بأن اليابان ليس لها الحق فى التعويض · ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ بدلا من الاعتراف بالجميل للرئيس الامريكى لتدخله فى الامر تحولت اليابان كلها بقيادة الصحافة المتطرفة ضد الولايات المتحدة · وآمن الشعب اليابان بالدعاية التى انتشرت فى البلاد · وساد جو من الاستياء المصطنع ضد الامريكيين · ويجب أن تلاحظوا أن الاستياء كان من جانب واحد · فبالرغم من الحملة التى شنت علينا واصلنا شعورنا بالشفقة نحو اليابان · وبالرغم من أنكم كنتم تدركون أن هذه المشاعر السيئة المصطنعة لن تأتى بثمرة فقد سمحتم لها بأن تستمر ويستعر لهيبها على مر السنين · وهنا · اذن وفى تفصيلات واضحة · أصل العلاقات المتوترة الحالية بين اليابان والولايات المتحدة » ·

كانت هناك موافقة عامة لم يكن الباعث عليها مجرد أدب اللياقة اذ استطعت أن أتبين فى الوجوه انطباعا عميقا لما قدمت من هذا المثل التاريخى · ومما زاد فى عمق هذا الاثر ما تذكرته من آمثلة أخرى فى التاريخ الحديث وكان آخرها قانون الهجرة الذى استثنى المهاجرين اليابانيين من الولايات المتحدة والذى كانت نتيجة حملة أخرى معادية للامريكيين فى اليابان ·

وقلت « أنتم تعلمون ــ كما أعلم · أن الدافع لصدور القانون كانت اعتبارات اقتصادية محضة ولم تكن اعتبارات عنصرية · وكانت الحكومة

اليابانية هى المخطئة أصلا لانها سمحت لآلاف اليابانيين بالهجرة دون أن تبين لهم أنهم ـ كمهاجرين ـ لابد أن يشكلوا أنفسهم ليكونوا فى مستوى المواطنين الذين سيعيشون بينهم • فلما جاء المهـاجرين اليـابانيون الى الولايات المتحدة لم يراعوا مستوياتنا المعيشية وطريقة حياتنا واستمروا يمارسون حياتهم اليومية كما اعتادوا عليها فى بلادهم • وأخذوا يعملون ست عشرة ساعة فى اليوم وبذلك استطاعوا البيع بأسـعار أرخص من الفلاحين على الساحل الغربى • وقامت بين الفريقين منافسة أدت الى النزاع حول مصالح كل منهما » •

وقاطعنى ميورا قائلا « هذه وجهة نظر جديدة وبالغة الاهمية • أرجو أن تستمر » • فمضيت أقول « أود أن أسـألك سؤالا يا مستر ميورا • كيف تتناول اليابان مثل هذا الموقف الاقتصادى ؟ » •

وأجاب « فى الحق لست أدرى ان كان مثل هـذا الموقف يوجـد فى اليابان » فقلت :

« ولكن يوجد فعلا • فقد كنت فى احدى السفن عائدا الى اليابان وكنت قادما من الصين • وعند وصولنا كان جميع الركاب فى صفوف على سطح السفينة • وكان الصينيون منفصلين عن بقية الركاب • وبعد فحص جميع الجوازات فحصا دقيقا توجه آخر من موظفيكم لفحص أوراق الصينيين • فأخذت أراقب الاجراءات فى عناية تامة • وبدأوا بسؤال كل منهم أن كان معه مائة ين • وكان الامر يسـتلزم هذه الاجراءات وكان كل منهم معه المبلغ المطلوب • ثم بـدأ الموظفون من أول الصف يسـألون كل فرد عن سبب مجيئه الى اليابان • فكل من ذكر أنه قادم لممارسة نشاط تكون فيه منافسة للعمال اليابانيين كان يؤمر بالتوجه الى الجانب الآخر من السطح • حتى اذا انتهوا من الافراد الصينيين وكان عددهم مائة شخص أمروا خمسة وثمانين منهم بالبقاء على الجانب الآخر • وكانت الخطوة التالية هى تحصيل ١٥ ين من كل من الخمسة والثمانين • وقال لهم أحد الموظفين « أتبعونى » ولم يتحدث باللهجة الادبية المعتادة شأن اليابانيين المتعلمين • وتابعت القوم بنظرى وهم يعبرون الرصيف الى سفينة أخرى مرابطة هناك • وفى

مدى خمس عشرة دقيقة كان الصينيون على ظهر السفينة المتجهة الى الصين لاعادة هذه المجموعة المنافسة الى وطنها الاصلى • والآن يجب أن تدركوا أننا لم نمارس مطلقا مثل هذا الاستثناء المنطوى على التعسف والقسوة الى حد كبير » •

وبدت على وجوه المضيفين اليابانيين أمارات الخجل وتطلع كل منهم الى الآخر • ولكن خفت حدة التوتر عندما نهض ميورا واقترب منى واضعا ذراعه فوق كتفي قائلا «كان ينبغى أن تكون دبلوماسيا يازخارياس ـ سان» فانفجر الحاضرون ضاحكين وكانوا من قبل يصغون بانتباه الى محاضرتى الصغيرة • وانتهت « المناقشة » • وكان الحديث واضحا صريحا بعيد المدى • اذ كان المقصود أن ينتقل من هذه المجموعة الى رؤسائهم فى كل من الولايات المتحدة واليابان • وكانت اليابان قد سارت فى طريق العدوان شوطا بعيدا • ولكن كان لا يزال هناك أمل فى ايقافها قبل أن تسير الى مدى أبعد •

١٩

أستاذ فى علم الانسان يتحول الى عالم فى الاستراتيجية

كانت الصداقة بين اليابانيين والالمان التى ظهرت بوادرها فى الحفل الذى أقامه ياماجوشي فى مايفلاورقد اتخذت الآن صورة من «الارتباط» مما شجع سبلا من الالمان على زيارة اليابان • وتحول هذا التسرب المبدئى الى أفواج من الطلبة والمستشارين • وفى مقابل ذلك وفد على ألمانيا عدد متزايد من الخبراء العسكريين لرد الجميل ولدراسة القوة العسكرية النامية للريخ الثالث ولشراء المعدات الحربية من النازى • والتى لم يتمكنوا من الحصول عليها من الولايات المتحدة سواء بطريق الشراء أو من طريق السرقة •

وكانت لدينا معلومات كافية عن النفوذ النازى المتزايد فى اليابان • ولكننا اعتبرنا هذا النفوذ مقصورا على الجيش فحسب • وكان الملحق العسكرى اليابانى فى برلين والملحق العسكرى الالمانى فى طوكيو هما المحور الذى تدور حوله هذه العلاقات الودية الجديدة • وكان رئيس المتآمرين هو جنرال هيروشى أوشيما الذى جاء الى ألمانيا فى سنة ١٩٣٦ واستقر فى مكاتبه الفخمة فى تيرجارتستراس فى برلين • وكان فى أذهاننا صورة حقة لهذا الضابط اليابانى الطموح الذى كان على صلة وثيقة بجنرال دويهارا وغيره من المشهورين بالميل الى الشرور ومن مؤيدى الخطط اليابانية للسيطرةعلى العالم •كما علمنا من التقارير الواردة من ملحقينا العسكريين والبحريين فى برلين وكذلك من مصادر أخرى أن الدافع له على موالاه الالمان هو أنه مريض بالاعجاب بأدولف هتلر • اذ كان واقعا تحت تأثير الفوهرر وكان يسيطر على مشاعره اعجابه الشديد بما كان يسمى مكاسب النازية • وفى الواقع أصبح نازيا أكثر مما كان من اليابانيين • ووجد الالمان فيه أداة طيبة لتحقيق أهدافهم فى طوكيو •

وفى تقارير مطولة حصلنا عليها عن طريق المخابرات أوضح نهضة ألمانيا تحت حكم النازى وأكد التطورات العسكرية والبحرية مبينا الغرض النهائى من هذا التقدم ـ وهو الحرب ! ٠

وفى طوكيو أقام النازى شبكة من العملاء من أفضل رجالهم تحت ستار الدبلوماسية ٠ وكان يوجين أوت Ott ـ الجاسوس النازى ـ قد أصبح برتبة الجنرال وعين سفيرا لدى اليابان ٠ وهذه أول مرة يمنح فيها أحد العملاء هذا المركز الدبلوماسى الرفيع فى اليابان ٠ وكان يساعده رجلان من البارزين فى كل من السلاح الجوى الالمانى والبحرية الالمانية ٠ وكان الملحق الجوى هو جنرال جرونو رائد الطيران عبر الاطلنطى الذى كان عليه أن يفحص الطريق الجوى الى الولايات المتحدة من وجهة النظر العسكرية ٠ وكان الملحق البحرى هو أدميرال بول وينيكر وهو من جماعة اليونكرز غير ثابت المبدأ يعترف اليوم بشعوره المعادى للنازى ثم ينتمى الى النازية فى الغد بكل مشاعره ٠ ومن وراء هؤلاء كانت هناك سلسلة من موظفى النازى يبذلون قصارى جهدهم لتكوين علاقات على أسس ثابتة ولكسب معضدين لخطة النازى التى كانت فى طريق الاعداد لليابان ٠ وكان الجميع لديهم أموال وافرة حتى اذا أبطأت أجهزة الخيانة كانت هذه الاعتمادات المالية دافعة لها ٠ وتأكدت كل هذه الامور فيما بعد أثناء محادثاتى مع الاميرال نومورا وبما كتبه محرر جريدة أوزاكا أساهى ٠

ومنذ أن ساورنا الشك فى تكوين تحالف بين الجاسوسية اليابانية والالمانية أخذنا فى مراقبة التطورات فى كل من نهايتى المحور ٠ وتوقعنا أن التعاون بين ألمانيا واليابان سوف ينتقل من حقل الجاسوسية الى ميدان السياسة والدبلوماسية ٠ فماذا كانت الخطة ؟ كانت مشروعا ضخما للسيطرة على العالم به تقتسم ألمانيا واليابان المغانم والاسلاب بينهما ٠ فكان هتلر يحلم بتأسيس مملكة عن طريق الحروب المحلية ثم تندلع نار الحرب فى نهايتى الكرة الارضية فى وقت واحد بهجوم ألمانيا فى الجزء الغربى واليابان فى الشرق ٠ وكانت خطته أن يبتلع العالم بأكمله فى نضال واحد أطلق عليه لودندورف الحرب الشاملة ٠ وأطلق عليه « النظام الجديد » بدلا من « النظام القديم » الذى قال عنه رودلف هيس فى سنة ١٩٣٧ أنه فات أوان الانتفاع به ٠

ومع كل هذه الجهود والرشاوى كان النفوذ الالمانى لا يزال فى مستهله لم يتغلغل بعد فى أنحاء البلاد • وعلمنا أن هناك بعض هيئات قوية فى اليابان ضاقت ذرعا بغطرسة الالمان وفضلوا السير بخططهم على انفراد • وكان ما سيصبح الاتفاقية الثلاثية فيما بعد كان يتشكل فى واشنجطون كما كان يتشكل فى اليابان أيضا •

وقد حاولت أن أضع تفصيلا للهيئات كما كانت فى سنة ١٩٣٦ ــ ٣٧ لاتعرف على الموالين للالمان من غيرهم • ولكن من الصعب جدا فى ذلك العهد معرفة العناصر الموالية للالمان فى الاوساط العليا سواء منها العسكرية أو البحرية • كما كان فى هذه المستويات معارضة ظاهرة للتعاون مع النازى وخاصة فى الدوائر المتصلة بالقصر الامبراطورى • وكان الامبراطور نفسه رجلا غامضا • فقد اجتمعت به عدة مرات أيام شبابه وأدركت أنه رجل متوسط الذكاء يعتبر نفسه حاكما دستوريا بالمعنى المفهوم فى بريطانيا •

وفى تلك الايام المضطربة كان الامبراطور يفضل أن يسير فى اتجاه التيار على أن يتعرض له • كما أكد لنا رجالنا من الدبلوماسيين • فكان يرقب الاحداث بأعين متفتحة ولكنه لا يرغب فى تغيير مجراها • ولا يعمل على الحد من نشاط محبى الحروب أو على تدعيم نفوذهم • كما كان يعتبره بعض المراقبين • وكان ركوده هذا مما شجع خصومنا ــ تلك المجموعة المتطرفة التى كانت تعد لما سموه حرب شرق آسيا العظمى •

وكان يعاوننا عدد قليل من الشخصيات الهامة سواء فى الدوائر الدبلوماسية أو البحرية • ولم يكن الدافع لهم شعور موال للامريكيين أو ميل طبيعى لافكارنا أو طريقتنا فى الحياة • بل كان الحافز لهم هو الشعور بالواقعية • ومن بين هؤلاء الاميرال كيشى سابورو نومورا وهو صديق من العهد الذى كان فيه مديرا للمخابرات البحرية اليابانية • الاميرال يوناى ضابط اللغة الروسية السابق والذى رقى فى النهاية الى منصب وزير البحرية • فكان الرجلان يعارضان الموالاه للالمان بصورة قاطعة • ولكن كانت سلطتهما محدودة بحيث لا يستطيعان وضع حد لها • ولو أنهما تمكنا من ايقاف تيارها بعض الشىء • وعلى قدر ما نستطيع الجزم به كان هناك أميرال يابانى واحد يحبذ التحالف مع الالمان ــ نومورا آخر

(نواكونى) • وكان خبيرا فى الغواصات وتحت تأثير اعجابه بمكاسب الالمان فى شئون الغواصات • وكان النازيون يعتمدون عليه ولكنه كان لا يزال يكافح بمفرده داخل البحرية اليابانية فى القيادة العليا •

كان هذا هو التخطيط حينذاك • العسكريون يضللهم أوشيما بتقاريره البراقة من برلين • ويذعنون للرشاوى التى يقدمها أوجين فى طوكيو فيتجهون نحو التحالف مع النازى لتدعيم هتلر فى ايمانه بمؤامرته لتحقيق أمانية ، ورجال البحرية فى موقف تردد • ولو أنهم كانوا يوجهون أنظارهم نحو الجنوب فى طمع متزايد الا أنهم كانوا يترددون فى المخاطرة بوضع تلك الرغبات موضع التنفيذ •

وكان الجو فى وشنطن قد اقترب من الهدوء • وبسبب الضربات الفعالة التى كنا قادرين على القائها تمكنا من عرقلة نظام المخابرات اليابانية فى الولايات المتحدة • وكان ياماجوشى قد أطلع فى الجرائد على ادانة عملائه وأصبح على يقين من أن شبكته قد اكتشفت أمرها وأننا أصبحنا ندرى عن أوجه نشاطه ما يكفى لكشف الستار عن أية منظمة للمخابرات • فكان فى حيرة لا حد لها لا يدرى ان كان يواصل نشاطه هنا أو يتخلى عنه اطلاقا • وقرر أن ينأى بجانبه عن هذا المجال وعاد الى طوكيو بعد مغادرتى وشنطن بوقت قصير • ولم يبد عليه أنه يشعر بالخجل • فبعد عودته بفترة قصيرة رقى الى رتبة رير أدميرال وانضم الى مجموعة ياماموتو المشاغبة داخل القيادة البحرية العليا التى كانت تستعد لاشعال نار الحرب •

فى شهر يونيه سنة ١٩٣٦ عهد الى بالقيام بخدمة البحرية فى الطراد « ريتشموند » مع العلم بأنى أنجزت عملى فى وشنطن عى الوجه المرغوب وأن حلقة الجاسوسية اليابانية قد تم القضاء عليها • وعندما سلمنى القبطان بولستن الاوامر مع ابداء « أسفه » ألقى الى بهذه النصيحة الشفوية • « أنت الآن فى طريقك لخدمة البحرية • ولكن يجب أن تعتبر نفسك دائما جزءا من المخابرات • وأن تواصل هذه المهمة أينما كنت » • وقدرت أعرابه هذا عن ثقته فى جهودى • ومع اهتمامى بالمخابرات كان من اللازم توجيه كل عنايتى الى كل ما تحتاجه الخدمة البحرية • وخاصة عندما ظهرت أمامى مشكلة أخرى للاسطول أتاحت لى فرصة فريدة لاختبار أمكانيات اليابانيين

من وجهة نظرهم ، وفى « المعضلة » الجديدة أى فى الموضـوع الذى كان هدف تدريب الاسطول للتنفيذ فى سنة ١٩٣٧ كان على سفينتى أن تمثل دول دولة «أورانج» وهى تسمية تشير الان صراحة الى اليابانيين ، وكان المفروض أن تنجح فى سفينتى فى الوصول بالحرب الى السواحل الامريكية لنمكن أن تقرر ماذا كان قيام قوات العدو البحرية بالاختراق مستطاعا أم لا ، وعلى حين أن موضوع التدريب سنة ١٩٣٣ كان له وضعه البارز من ناحية وجهة نظرنا التاريخية ، فان موضوع سنة ١٩٣٧ كان له الاثر القاطع البات فى تشكيل خطط اليابان ، ولاشك فى أن نتائجها والدروس المستفادة منها فى ميدان الاستراتيجية البحرية كان له دورة الالى فى تغيير خطط اليابان وفى أعادة تنسيق عملهم فى المخابرات من مجـرد جمـع مجموعة من المعلومات من هنا وهناك الى اعداد معنى به للحرب الى غاية ما يمكن أن تقدمه وسائل المعلومات ٠

وكان هناك عدد من عملاء اليابان يراقبون تطورات الموقف فى كل من الساحل الغربى وجزر هواى ٠ وأود أن أذكر عميلا منهم على الاخص كان ألمانيا يقوم بعمل هام طبقا للوسائل التى كان يستخدمها عملاء المحور فى ذلك الوقت ٠ وكان يدعى كلوزمهنرت وهو شاب ألمانى مثقف تسيطر عليه فكرة العظمة التيتونية ويعمل بطريقة خفية يصعب ادراكها ٠ وكان من أولئك الالمان ممن لا وطن لهم ولد فى الفترة الغامضة البروسية بين الحرب والسلام فى جهة ما عند بحر البلطيق ٠ وأخذ يتعلق بخيط رفيع من ولائه لالمانيا حتى منح أخيرا حقوق المواطنين الالمان ٠ وكان أحد أفراد مجموعة من المتآمرين الالمان كانت مقر رئاستهم فى برسلو ويضعون الخطة لحرب ضد الاتحاد السوفييتى ٠ وكانت المجموعة تسـمى جمعية شرق أوروبا وتصدر جريدة شهرية تكشف عن أحلامهم الاستعمارية كما يفعل المرضى أمام المحلل النفسانى ٠ ثم أن هذه الاحلام وما تنطوى عليها من تورطات كانت واضحة أمام المحلل السياسى ٠ اذ كانت تدور حول تلمس الطريق للعثور على بقعة ضيقة فى أوروبا تصلح لالقاء أول ضربة لهم لشن الهجوم ٠ ومن أول الامر كانوا لا يعتقدون أن روسـيا هى أضعف الجهـات التى يمكن مهاجمتها ولما تبين أنها ليست بهذه السهولة حولوا عنـايتهم الى جهات أخرى ٠ فالتحقوا بمجموعة «الجيوبوليتيكيين» التابعة للجنرال هوزهوفر وأصبح مهنرت نفسـه عضـوا فى مجمـوعة صغيرة من الجـواسيس الجيوبوليتيكيين ٠ المتجولين ٠ والذين أرسلتهم منظمة هوزهوفر فى جميع أنحاء العالم بمساعدة المكتب السـياسى الاجنبى التـابع لدكتور الفرد روزنبرج ٠ وكان فى الولايات المتحدة عدة رجال من هؤلاء : أحدهم فى

الاسكا هو فيليب هـ . لوهمان من جامعة ميامى فى أوكسفورد وأوهيو وفى الغرب الاوسط • وفريتزبارتز من جامعة كاليفورنيا فى بركلى على انساحل الغربى • ومهنرت فى جامعة هواى فى هونولولو • وأطلقنا لهم الحرية فى ممارسة نشاطهم لاننا لم نكن على استعداد لمكافحة الطابور الخامس الذى يفشى أسرار الامة عن طريق خيانة الجواسيس والمخبرين والخونة • وكنا لا نزال نشعر بأن « هذا لا يمكن أن يحدث هنا » •

وبالرغم من سجله المشكوك فيه تمكن مهنرت من الحصول على منصب كان خير ستار له • فقد عين فى احدى كليات جامعة هواى فى هونولولو أستاذا لعلم الانسان•ولكنه أبدى اهتمامه بميدانه الخاص ـ كثافة السكان اليابانيين فى الجزر كنواة لاحداث الاضطرابات اذا قامت الحرب • فأخذ ينصح رؤساءه فى تقارير مطولة بأن اليابانيين فى جزر هواى يشكلون تهديدا مؤكدا لامن الامريكيين وتنبأ أنهم فى حالة الطوارىء ـ سوف يشتركون مع مواطنيهم ويتحولون ضد الولايات المتحدة • ومثل هذه التنبؤات والتقديرات الكثيرة التى كانت تجول بخاطر عملاء النازى السياسيين أثبتت أنها خاطئة • وقد سمعت بهذه التنبؤات التى كانت على النقيض من تقديراتى الخاصة والتى كانت سببا فى تدعيم عقائدى وآرائى •

وسرعان ما أمتد نشاط مهنرت بعيدا عن مهنته التى يتستر وراءها كأستاذ لعلم الانسان وأصبح يهتم بأمور تتعلق بالبحرية حيث أمد اليابانيين بمعلومات لها قيمتها وأصبح مسئولا بصورة غير مباشرة عن بعض تفصيلات الخطة الاستراتيجية الكبرى للقيادة العليا للبحرية اليابانية • وأعظم عمل قام به هو تقريره الذى وضعه على أساس مشروع تدريب أسطولنا لسنة ١٩٣٧ والذى بعث به الى ألمانيا • ووصلت أنباؤه الى مراكز الاستماع اليابانية فى برلين •

وكان يعلن بعض وجهات نظره لكشف المجال أمام تابعية فى الجامعة ولكن معظم أعماله كانت واضحة فى مقالات نشرها فى مجلة Zeitschrift für Geopolitik ـ التابعة لهوزهوفر الميجر الجنرال السابق والمفكر فى « المجال الحنوى » • ومدرب جواسيس الادارة الاجنبية للنازى وموضع ثقة هتلر ذاته • وكان مهنرت عضوا فى منظمة هوزوفر Arbeitsgemeinschaft für Geopolitik التى عاونت فى الاستكشافات السياسية حول العالم •

ولما علم رؤساء الجامعات بأوجه نشاط هؤلاء العملاء اختلفت وجهات نظرهم اليها . ولكنهم كانوا عادة يعتبرونها غير واضحة المعالم . وقال مدير الجامعة فى هواى أنه سوف يفحص الامر . وكانت النتيجة أن رحل مهنرت الى الصين فى ١٠ يونيه سنة ١٩٤١ بالباخرة تاتسوتامارو . حيث اشترك مع فريتز ويدمان قنصل جنرال ألمانيا السابق فى سان فرنسيسكو ورئيس الجاسوسية الالمانية على الساحل الغربى . ثم كان مندوبا صوريا لمجلة شنجهاى نيوريفيو فى شنغهاى .

وكانت هواى تحت ادارةويدمان مباشرة ـ الذى كان مساعدا للفوهرر وفى زمن الحرب كان كابتن الفرقة حيث كان هتلر جنديا برتبة جاويش . وعندما كنت ضابط المخابرات فى سان ديجو اتخذت صفة العميل المزدوج فدبرت فكرة كانت صدمة له . اذا أخبرته أن الولايات المتحدة لا تقيم وزنا لنشاطه هنا لانه سوف يعود الى ألمانيا فى القريب العاجل بأى حال. وكان هذا بالنسبة اليه نبأ هاما . فأمر فى الحال امرأة تعمل معه بالسفر الى برلين لسؤال هتلر ان كان قد ارتكب خطأ ما فى مهام عمله . ولم نعلم ماذا كان جواب هتلر على ذلك ولكن ويدمان سرعان ما ترك منصبه فى سان فرنسيسكو بعد أن رفعت عليه المرأة قضية تطالبه فيها بمبلغ ثمانية آلاف دولار قيمة مصروفات رحلتها الى ألمانيا لحسابه .

ولست فى حاجة لان أدخل فى تفصيلات مشروع تدريب الاسطول فى سنة ١٩٣٧ سوى أنه كشف لنا عن مواضع ضعف معينة فى وسائل الدفاع وأثبت لنا أنه من الممكن قطعا أن اليابان اذا قامت بمناورة بارعة فانها تستطيع اختراق أهم استحكامات الدفاع الحيوية فى البلاد . وتقرر أن تقوم القيادة العليا بتدعيم مواطن الضعف فى وسائل الدفاع . وكانت النتائج التى وصل اليها مهنرت والتى بعث بها الى رؤسائه تدل على مقدرته وعبقريته . اذ استنتج من التقارير التى نشرت ومن المناقشات حول تدريب الاسطول أن الولايات المتحدة لديها حبل النجاة فى الباسفيك ومن واجبها أن تحتفظ به اذا أرادت البقاء كقوة فى تلك المنطقة . ويمتد حبل النجاة من دتش هاربور فى الشمال خلال ميدواى فى الباسفيك الاوسط حتى يصل الى باجاباجو فى الجنوب . ومن ورائه لاتهتم الولايات المتحدة بما يجرى فى باقى منطقة المحيط الباسفيكى . فالجزء الذى كنا نعده خط الدفاع لصيانة أمن البلاد اعتبره خصومنا سورا لسجن يغلق علينا . وكانت الفكرة التى وضعها هذا الاستراتيجى الهاوى بسيطة فى حد ذاتها :

فقد استنتج أن العدو يستطيع أن يشل حركة الولايات المتحدة اذا تمكن من منعنا من اقتحــام هذا الخط • وفى هذه الحالة تكون له مطلق الحرية فى التحرك فى المنطقة البعيدة عن الخط نحو الغرب • وقدر مهنرت أن اليابان تستطيع شل حركتنا اذا تمكنت من تدمير الاسطول الامريكى• وهو الوســيلة الوحيــدة لنقل الحرب غرب ميدواى ثم احتــلال المواقع الاستراتيجبة خارج ذلك الخط الجغرافى •

وهنا اذن كانت الادلة اللازمة التى حصل عليها الاستراتيجيون فى اليابان من تدريب أسطولنا وقدروها حق قدرها • واذا نظرنا الى الخطط التى وضعها اليابانيون نرى أصابع مهنرت فى تلك الخطة الاستراتيجية الكبرى • كما نلحظ فى تقريره أهمية مباشرة أخرى • اذ أقنع اليابانيين أنه من السهل مهاجمتنا وأنهم فى الحرب ضد الولايات المتحدة لديهم فرصة للانتصار من الوجهة الاستراتيجية •كما أقنعهم بأن هناك احتمالا لهزيمتنا اذا تمكنوا من حجزنا خلف ما يسمى خط الدفاع •

ولست أدرى كيف كان وقع هذا التقرير فى طوكيو • ولكن الادميرال يوكوى الملحق البحرى فى برلين فيما بعد أذاع فى مقال صريح للغاية تحت تأثير خمر انتصار مؤقت أنه كان أداة فعالة فى رسم خطة العدوان الاخيرة للقيادة العليا للبحرية اليابانية • ثم أن المتآمرين اذا لمسوا احتمال النصر فى حرب بحرية ضد الولايات المتحدة فانهم يركزون اهتمامهم على احكام الخطة لتحقيق هذا الهدف •••

٢٠

التمهيد لبيرل هاربر

لقد وصلنا الآن الى نقطة التحول التاريخية فى علاقاتنا مع اليابان ولو أن هذه الحقيقة لم تكن واضحة فى نظر رجالنا الدبلوماسيين الذين كانوا يرقبون التطور السريع للاحداث وقت وقوعهـا فى طوكيو • ومن الآن فصاعدا أصبحت المطالب العسكرية هى التى تقرر الحركات السياسـية والدبلوماسية فى اليابان • وكلها ترمى الى تدعيم الخطة الاسـتراتيجية الكبرى التي كانت ترسم خطوطهـا فى كل من هيئة أركان حرب الجيش والبحرية •وفى الواقع كان الاستعداد يسير بمقتضى خطتين مختلفتين لايتحتم ارتباطهما • أحدهما رسمت خطوطها فى وزارة الحرب بمعرفة أركان حرب الجيش وكانت الصين لا تزال الهدف الاكبر • والاخرى كانت أقل تقدما من مثيلتها العسكرية • وكانت تعد فى أركان حرب البحرية وتستهدف التوسع نحو الجنوب • وفرض عليهما نطاق من السرية وليس لاخفائهما عن أعين الرقباء فحسب بل لاخفاء كل خطة عن الهيئة التى تقوم باعداد الاخرى • وكما سأبين فيما بعد أنه كانت مفاجأة حقة للجيش عندما ووجه فى سبتمبر سنة ١٩٤١ بخطة بحرية كاملة أعدت فى تفصيلات دقيقة وعلى استعداد للتنفيذ بناء على أية أشارة وفي أية لحظة • ولم تكن هذه السرية أمرا غير عادى فى اليابان اذ كانت عصبة الجيش منفصلة تماما عن البحرية تصارع كل منهما الاخرى بينما يضاف الى ذلك العصابات الصغيرة التى كانت تتكون داخل فرعى القوات المسلحة •

كان الموقف السياسى فى اليابان فى شتاء سنة ١٩٣٦ ـ ٣٧ مشحونا بالتوتر والاخطار وكانت فاتحة الاحداث ما يسمى « استعادة شوا » فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٦ عندما قام المتطرفون العسكريون باغتيال وزير المالية وحامل الاختام ومفتش عام التعليم العسكرى وبذلك أزاحوا من طريقهم بعض المتحدثين باسم القوات السياسية المعتدلة • ثم تم القضاء على ثورة المتطرفين • ولكن الجيش تمكن من الفوز وبسط نفوذه على النظام

السياسى فى البلاد كما فاز فى وضع رجاله في المراكز الرئيسية ٠ وبلغ هذا التطور أول ذروة له فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٦ عندما نجح الجيش فى ارغام اليابان على قبول التحالف مع ألمانيا وهى المعاهدة التى لم يرغبها الشعب والتي عرفت بالاتفاقية ضد الكومنترن ٠

وظل نفوذ الجيش سائدا حتى بعد أن أطاح خصوم الموالين للالمان برئيس الوزراء الالعوبة كوكى هيروتا ٠ وكانت فترة هدوء مؤقتة ونصر عابر لم يلبث الا يوما أو بعض يوم ٠ وفشلت المحاولة لتعيين جنرال أوجاكى ذى الميول المعتدلة رئيسا للوزراء بسبب المعارضة العنيفة التى أبداها الجيش ضد أحد قادته ٠ وكان منع جنرال أوجاكى من قبول منصب الرئاسة من يد الامبراطور دليلا على ما كان للجيش من النفوذ المطلق ٠ اذ « وجهت اليه النصيحة بصفة خاصة » أن يرفض دعوة الامبراطور لتشكيل الوزارة ٠ ولكنه تشجع بما لديه من الخطط ونجح فى تشكيل وزارة ائتلافية بدت أنها مقبولة في كل من القصر الامبراطورى وفى زايباتسو (الهيئات الاقتصادية والصناعية) التى كانت تعضد الضابط الطاعن فى السن ٠ ثم أتم تكوين الوزارة وفى وقت متأخر من الليل ٠ ولكى لا يضيع الوقت طلب سيارته وتوجه فى الحال الى القصر لتقديم قائمة بأسماء الوزراء الى الامبراطور ٠ وبينما كان يسير فى منتصف الليل على الطريق حول الخندق المظلم الذى يحيط بالسراى واذا برجل يستوقفه فجأة وكان يرتدى كسوة جنرال فى الشرطة الحربية وكان هو القائد العام لها ٠ فحذره بناء على تعليمات القيادة العليا من قبول المهمة التى كلفها به الامبراطور ٠وكان التحذير واضحا جليا لايقبل الشك ويستند على ذكريات حادث فبراير ٠ فتأثر جنرال أوجاكى غاية التأثير وبدلا من ذهابه الى القصر لتقديم قائمة بأسماء الوزارة لتأليف الحكومة واصل سيره الى القصر لكى يعيد الى الامبراطور أمر تكليفه بتشكيل الوزارة ٠

شعر جنرال أوجاكى باضطراب وضيق شديد بسبب هذا الحادث فأقسم أن يستقيل من الجيش والا يعود الى ارتداء الكسوة الرسمية طالما بقى على قيد الحياة ٠ ثم أرغم الجيش الامبراطور على تعيين الجنرال المتطرف هاياشي الذى عمل على توسيع نطاق السياسة العدوانية التى تنتهجها عصابة الجيش ولكنه فشل فشلا ذريعا فى علاج المشاكل الداخلية التى كانت تجابه أية وزارة يابانية فى ذلك العهد ٠ وكان فشله سببا فى ظهور

الامير كونوى على مسرح الاحداث • حتى اذا بلغتنى أنباء تعيين كونوى رئيسا للوزارة لم أشارك المراقبين فى تفاؤلهم بالموقف واعتبارهم أياه سياسيا معقولا وأن تعيينه يعد نصرا للمعتدلين • فقد كنت أعرف كونوى كسياسى عملى استطاع أن يظهر بمظهر الدبلوماسى ولكنه كان أداة طيعة فى أيدى العسكريين وراء هذا الستار البراق • وحدث أثناء حكمه فى ٧ من يوليه أن وضعت الخطة المحكمة التى أعدها أركانو حرب الجيش موضع التنفيذ • ففى ذلك اليوم حدثت مناوشات على جسر ماركوبولو كستار للجيش لكى يشرع فى حملته الموجهة ضد الصين الشمالية ولكى يكتسح مساحات شاسعة ــ طبقا لبرنامج وخطة موضوعة • ومن ذلك الحين أخذت اليابان تسير بخطوات واسعة نحو حرب شاملة • وسرعان ما أدخلت ايطاليا ضمن المدار عندما اشتركنا فى٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٧ فىالاتفاقية « ضد الكومنترن » واعترفت اليابان بالحكم الفرنسى فى أسبانيا ثم أقيمت حكومة مؤقته من الصينيين فى بكين وبدأ اليابانيون فى ادارة الصين الشمالية لفترة طويلة تعد المنطقة لتحركات أخرى نحو الجنوب •

وكانت ردودنا على هذه التحركات بليغة ولكن فى شىء من الضعف • ففى ٥ من أكتوبرسنة١٩٣٧ ألقى الرئيس روزفلتخطابه التاريخى القومى فى شيكاغو ولكنه لم يفلح فى اثارة الغرب لاقامة معارضة فعالة ضد العدوان اليابانى • وبعد بضعة أسابيع اجتمعت تسع عشرة دولة فى بروكسل للنظر فى الاجراءات الغامضة التى تتخذها اليابان فى الصين ولكن المفاوضات انتهت بالفشل فقد تجاهلت اليابان ما بذلته من جهود • وكل المحاولات الدبلوماسية التى بذلت لايقاف العدوان اليابانى لم ينتج عنها سوى معاهدة ضعيفة « لعدم الاعتداء » عقدت بين الاتحاد السوفييتى والصين • وبطبيعة الحال كان أهم من ذلك هو القرار الجرىء الذى اتخذه شيانج كاى ــ شك لمقاومة العدوان اليابانى مهما كانت الظروف • وقد التزم بهذا القرار الى النهاية بطريقة بارعة وفى أحوال غاية فى الشدة مما كان عنصرا هاما فى احباط النصر النهائى لليابانيين • وقد نسى اليابانيون فى دراساتهم التاريخية الدروس التى تلقاها نابليون وهو على أبواب موسكو • وهى الدروس التى أوضحت أن الدولة المترامية الاطراف والتى لابد من اجتياز مساحاتها الشاسعة عند التقهقر لا يمكن أن تلحق بها الهزيمة •

وكان من الواضح للمراقبين أن اليابان كانت تحاول تثبيت أقدامها . ولكن كانت هناك بضعة اجزاء خالية فى الصورة التى أمامنا منعتنا من وضع تقدير شامل للموقف . فقد كان من الصعب ادراك خطط البحرية اليابانية وحقيقة نظرها . وأين هى خطط البحرية للعدوان المباشر ؟ ذلك هو السؤال الذى لابد من الاجابة عليه لتكملة صوره الموقف . وفى سنة ١٩٣٧ كان من المستحيل أن نجد ردا على هذا السؤال . ولكن كانت هناك دلالات تلوح فى الافق ساعدتنا فى تقديراتنا وجعلتنا نقتنع بأن البحرية كانت لها خططها وكانت تستعد للاشتراك مع الجيش للسير بالحرب الى أقطار أخرى .

ومن تلك الادلة اعادة تنظيم المخابرات اليابانية وأوجه نشاطها . اذ بعد فترة ركود لمدة سنتين تقريبا (بين سنة ١٩٣٦ ، ١٩٣٨) تحركت المخابرات الى مقدمة أوجه النشاط اليابانية وأصبحت أداة ذات أثر فعال .

ولكن أجهزة المخابرات التى جابهنا بها خصومنا اليابانيون كانت تختلف تماما عن الشبكة التى واجهناها فيما سبق . حيث اختلفت الادوار التى يقومون بها كما عهد بها الى شخصيات متنوعة فلم يعد الامر مقصورا على البحرية اليابانية لتتخذ من المخابرات أداة لمهاجمتنا فحسب. بل اتسع نطاق المؤامرة لتصبح جاسوسية شاملة تسعى للحصول على المعلومات البحرية والسياسية معا لكى يتسنى للرؤوس المدبرة فى طوكيو وضع الخطط النهائية وهى على دراية تامة بمقاصدنا وما لنا من القوة وما بنا من نواحى الضعف ثم امكانياتنا من حيث الروح المعنوية والتخطيط السياسى. وعلى ذلك كان اليابانيون فى حاجة الى شبكة مختلفة من الجاسوسية لهذا التنظيم الواسع المدى ـ شبكة تمتد الى أبعد من نطاق المخابرات البحرية. فتقرر أن تكون القنصليات قاعدة للجاسوسية وتعيين أجهزة متناسقة تعمل تحت ستار الدبلوماسية داخل الحدود المقدسة للسفارة اليابانية فى شارع ماسوشوتس بواشنجطون .

وكان الرجل الذى وقع عليه الاختيار لتولى هذا المنصب المسئول موظفا صغيرا يشغل وظيفة بسيطة فى السفارة . اذ كان سكرتيرا ثانيا

يدعى تيراساكى • ولكنه كان الرجل الذى يمكن اعتبـاره أنه الشـخص الوحيد الذى وصـل الى زعامة الجاسـوسية اليابانية خلال هذه الفترة التمهيدية لبيرل هاربر • وقد كنت أعرفه معرفة تامة • وجدته رجلا هادئا دقيقا فى عمله مثقفا قليل الاتصالات ينطوى على نفسه ويتسم بمظاهر التواضع التام ويفكر فى سهولة تدل على منتهى النشاط • وتمكن هذا الرجل من اخفاء مهمته الجاسوسية بمهـارة فائقة • وفى الواقع لم نكن نعلم – لفترة طويلة – أنه رئيس الجواسيس اليابانيين فى نصف الكرة الغربى • ودهشـنا اذ وجـدنا رجـلا يقف بمفرده بعيـدا من جمهرة الدبلوماسيين ولا يختلط بالمجتمع الا قليلا • بينما واجباته الدبلوماسية بطبيعتها تبدو غريبة وغير واضحة المعالم • ولكننا نسبنا هذه المميزات الى ميوله الشخصية ولم نشتبه فى أوجه نشاطه الخارجية التى تضمنت الجاسوسية •

وكان يشرف على شبكة هائلةمن الجواسيس قاعدتها مختلف القنصليات اليابانية التى فى مواقع استراتيجية • وكانت هواى بالطبع أحد مقار الرئاسة الاضافية •وفى هونولولو اتسع نطاق الجاسوسية اليابانية بحيث أصبحت قوة مهاجمة سواء فى عـدد رجالها أو فى أوجه النشـاط التى يمارسونها • وبينما كنت أقوم بعملى على الباخرة ريتشموند وكان الوقت لا يتسع لى لمراقبة هذا التطور عن كثب • كان تيراساكى منهمكا فى اعداد شبكته وتنظيمها •

فى ربيع سنة ١٩٣٨ عدت ثانيا الى عمل المخابرات بعد أن انتهيت من عملى فى البحرية وعينت ضابطا لقسم المخابرات الحادى عشر حيث مقر الرئاسة فى سان دييجو وهى قلب الجاسوسية اليابانية • وبمجرد مغادرتى سفينتى أبدى اليابانيون دلالة أخرى على نشاطهم واستعدادهم للحرب • فقد صدر قانون التعبئة القومية العامة كما صدر الامر الى الرجال الفنيين وأرباب المهن لتسجيل أسـماءهم فى الجيش • والى أصحـاب المصـانع بالاستعداد للانتاج الحربى وتخزين المواد الضرورية • وكان المقصود من هذا القانون التعبئة العامة للحرب بصورة علنية •

وكان نشـاط مخابراتنـا يتركز فى ادارة المخـابرات البحرية فى وشنطن بمعداتها الجغرافية وأجهزة الابحاث • وتنتشر فروعها فى مختلف

القطاعات البحرية حيث أعمال المخابرات الاقليمية يقوم بها ضابط مخابرات المنطقة D I.O • وكان من حسن حظ الولايات المتحدة أن هذا القسم كان يضم أفرادا على جانب كبير من النشاط واليقظة ويتساوون مع أمثالهم من اليابانيين الذين كانوا يتدفقون على الولايات المتحدة فى طوائف متزايدة • وكانت البلاد فى هذه الفترة معرضة للاخطار وكان الامن يعتمد على جهود المخابرات البحرية • وكانت سان دييجو تعد مركز حراسة بالغ الاهمية يضم عددا كبيرا من اليابانيين • ومنها تسهل مراقبة نشاط الجاسوسية اليابانية من شاطىء البحر حيث أساطيل سفن الصيد تحمل عشرات من العملاء اليابانيين • وفى ذلك الوقت كان ما يزيد عن خمسين فى المائة من مصانع الطائرات الامريكية مركزا فى الاقاليم تحت اشراف قسم المخابرات •

وبعد وصولى الى سان دييجو بقليل وكنت لا أزل أقوم بعملى فى البحرية جرت حادثة كانت دليلا لنا على عودة الجواسيس اليابانيين لممارسة نشاطهم • اذ دلت التحريات على وجود أمريكى محترف يعمل لحساب اليابانيين على ظهر طراد تابع للولايات المتحدة • ولكى لا تثار الشبهات عن طريق اتصالات غير عادية بعد أن لاحظ الأمر بعض رجال على ظهر سفينة أخرى • طلب منى أن أتصل بقائد الطراد لاتخاذ الاجراءات اللازمة للبحث فى تطورات هذا الحادث • ولكنه بعد أن أخبرته بوجود عميل يابانى على ظهر سفينته شعر بالفضيحة وصاح قائلا : « بحق السماء دعنا نتخلص منه فى الحال ! » •

ولم تكن هذه تصرفات مناسبة لمتابعة القضية • فاعتبرنا الرجل عميلا صغيرا يعمل فى الخفاء ولا ضرر منه على أى حال • وربما كان نافعا لنا • اذ قد نتمكن من اكتشاف من يعمل من ورائه وبذلك نتوصل الى معرفة رؤساء حلقة الجاسوسية اليابانية • ونجحت فى اقناع قائد الطراد بالتعاون معنا فتركنا الرجل يواصل نشاطه تحت رقابة مشددة وبحيث لا يساوره أدنى شك فى أن عمله قد أصبح معروفا لدينا • وفى الحق كان دليلا نافعا ومرشدا هاما لنا فى بحثنا • فكان يقوم بعدة اتصالات تليفونية ويكتب خطابات الى من يعمل لحسابه ويتردد غالبا على أمكنة السباق حيث يعلم أن اغراء الميسر وجمال النساء مما يجلب اليابانيين • وكما حدث فى قضية طومسون ــ ميازاكى كان العميل اليابانى الذى ظهر فى سباق الخيل مع مجموعة من الاصدقاء اليابانيين ضابطا يدرس اللغات من البحرية الامبراطورية •

وكان يبدو على وجوه المجموعة اليابانية فى السباق الاستياء من هذا الامريكى بكسوته الزرقاء وهو ظاهر للعيان ٠ وكان ضابط البحرية اليابانية يشعر بالانظار تتجه اليه من آلاف المتفرجين عندما يصر هذا البحار — وقد اتخذ له مقعدا خلف المجموعة — على مواصلة الحديث مع أفراد المجموعة ٠

فى تلك الفترة لم نلاحظ شيئا يتبادله البحار الامريكى مع اليابانيين٠ وبعد قليل أصبح من الواضح أن اليابانيين قرروا قطع صلتهم بالرجل وأصبحوا حريصين على ألا تكون لهم صلة بمن يرتدى الكسوة الزرقاء ٠

وتبين لنا من هذه المعلومات المبدئية الاسماء الضرورية والادلة التى نتبعها ٠ وأما البحار الامريكى فقد أرسل فيما بعد الى هواى حيث اتهم أمام المحكمة العسكرية ٠ وقمنا بعمل قائمة تضم أسماء المشتبه فى أمرهم وفرض الرقابة على الجواسيس طبقا لخطة محددة ٠ ولم نكن نقصد القيام باعتقالات حتى لا نفقد العناصر الصغيرة فى الحلقة والتى كانت معروفة لنا على وجه التحديد ٠ وأدركنا أن لابد لنا من مطاردة رءوس الافعى التى تتحدى القضاء عليها وخاصة فى حدود القوانين المفروضة علينا ٠ واكتفينا بأنه طالما كنا على يقين بنشاط كثير من عملاء العدو بقدر ما يمكن استطعنا أن نشرف عليهم من وراء حجاب ونحبط أعمالهم كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ٠ ثم نكون قد تعرفنا على شخصياتهم اذا جاء اليوم المعهود ٠

وقد شجعتنا فى هذه الاستراتيجية درايتنا بالتجربة التى مرت بها بريطانيا قبل نشوب الحرب العالمية الاولى ٠ وتذكرت كيف سمحت بريطانيا بوجود تسعة وعشرين من كبار العملاء وبضع مئات من صغار الجواسيس الالمان قبل قيام الحرب ٠ ثم اعتقلت الجميع عند بدء ظهور الاعمال العدوانية وبذلك قضت على حلقة التجسس قبل أن يستفحل أمرهم ويصبحوا خطرا جسيما على البلاد ٠

اذ حدث فى جنازة الملك ادوارد السابع فى لندن أن كان القيصر من بين مشيعى الجنازة وكان يرافقه رئيس المخابرات الحربية الالمانية الذى كان معروفا لدى MI-5 ٠ فتيقظت المخابرات البريطانية المضادة لهذا الضابط ووصوله فجأة وقررت مراقبته أثناء اقامته فى لندن ٠ ولم يكن الضابط حريصا فاتصل بأحد عملائه فى لندن وهو حلاق يدعى ارنست ٠

وكان ذلك سببا فى التعرف على عملائه الآخرين . ولكن البريطانيين لم يلقوا القبض على أفراد الحلقة بل سمحوا للعملاء الالمان بمواصلة نشاطهم تحت رقابة مشددة حتى يوم نشوب الحرب فى أغسطس سنة ١٩١٤ فانقضوا على أفراد الشبكة التى قد أعدت من قبل بعناية تامة . وكان هذا مثالا رائعا للاجراءات المحكمة سرنا على هداه وعاد علينا بالفائدة . فليس الغرض من **المخابرات المضادة هو أن تخدعنا الانوار الساطعة فنقوم بالاعتقالات قبل أوانها .**

واصلنا أعمالنا فى الخفاء بعيدا عن أعين الجمهور وكذلك دون علم عملاء العدو الذين كانوا تحت مراقبتنا عن كثب . وليس من شك أنه كان هناك ايحاء للصحافة لتوجه الينا نقدا بين السطورولكن ذلك لم يغيرمن قراراتنا . وفي نفس الوقت كان يفد على مكتبى بعض مواطنين من المتحمسين لديهم بعض معلومات بسيطة دلت على أنها عديمة النفع ولكن كان من عادتنا أن نتتبع أى دليل مهما كان يبدو خياليا لأول وهلة . وفى هذه الناحية تختلف المخابرات البحرية عن مكاتب المباحث التى تهتم بالادلة التى توصلها الى نتائج مباشرة وتهمل ما عداها . وانى أذكر بوضوح حادثين سجلت فيهما المخابرات البحرية نصرا محققا بمتابعة أدلة اعتبرتها ادارات أخرى غير ذات موضوع ولا طائل وراءها . ففى سان دييجو كان نشاط مخابراتنا المضادة سببا فى ادراكنا أهمية ما كان تمهيدا لبيرل هاربر . وقمنا بتوسيع دائرة جهودنا لكى تشمل جميع أنواع الجاسوسية ومختلف ألوان التخريب التى تمارسها جميع الجنسيات . وأخذنا نمسك بطرف أول خيط يظهر لنا . حتى اذا رأينا أن الامر يقتضى صيانة الامن أخذنا الخطوات لاقامة الاتهام دون اعتبار لما قد يحدث بعد ذلك من النتائج .

وتضمن أحد الحادثين مندوبا للسوفييت فى هذه البلاد كان يدعى ميخائيل جورين رئيس المكتب السياحى السوفييتى فى لوس انجلوس . وكذلك زوجته الجميلة ناتاشا . ففى صباح يوم من شتاء سنة ١٩٣٨ وقفت سيارة بيكأب لمؤسسة تنظيف من هوليوود وكان تأتى بانتظام فتسلم مسز جورين الملابس الى السائق لتنظيفها . فيأخذها السائق الى سيارته لفحص جيوبها فى الخارج بعيدا عن المنزل . واذا به يجد فى أحد الجيوب مظروفا يحتوى على ورقة مالية من ذات الخمسين دولارا وعدة أوراق عليها ملاحظات مكتوبة حول الميول الشيوعية لبعض اليابانيين فى سان دييجو ونزاع بشأنها مع مجموعة أخرى من اليابانيين أيضا . ومذكرات أخرى تتعلق بنشاط الجاسوسية اليابانية على الساحل الغربى .

ولما تبين للسائق أهمية هذه الاوراق عاد فى الحال الى شركته وعرض الاوراق على المدير المسئول الذى أمره فى الحال بالتوجه الى مركز الشرطة في هولبوود وتقديم ما معه من الاوراق • وهناك وجد السائق فرصة للكسب اذا كانت جميع المستندات تنقل بخط اليد لاخذ صور طبق الاصل فلم تكن آلة للفوتوستات •

وبينما كان مستر جورين في مكتبه تفقد المظروف فلم يجده واتصل بزوجته بالتليفون • فأخبرته أن الملابس قد سلمت للشركة لتنظيفها • فأسرع بالعودة الى المنزل حيث أخذ زوجته وتوجها معا الشركة التنظيف فى هوليوود • وهناك أكد له المدير « سوف تسترجع المظروف ان كان حقا في ملابسك • لاننا نتخير المستخدمين طبقا لسلوكهم وأمانتهم • وسوف يعود السائق فى أية لحظة الآن » •

ولم يستطع جورين أن يتغلب على شعوره وأخذ يذرع أرض المكتب جيئة وذهابا انتظارا لعودة السائق • وتبين للمدير من حركات جورين أن المظروف لابد أن يحتوى على أمور « هامة » فاتصل بمركز الشرطة بالتليفون وأخبرهم بحالته هذه وطلب منهم أن يخبروا السائق أن يعود بالطريق الخلفى ويبدو فى حالة عادية •

حتى اذا انتهت شرطة هوليوود من أخذ صور الاوراق عاد السائق الى مكتب الشركة ومعه المستندات الاصلية • ثم أخذ جميع ملابس جورين ورافقه المدير الى حيث كان الرجل وزوجته فى حالة هستيرية • فاختطف جورين الملابس وأخذ يبحث فى أحد جيوبها حتى عثر على المظروف كما تركه وبه جميع الاوراق كما كانت لم ينقصها شيء • فتنفس الرجل الصعداء وغادر المكان ومعه زوجته وعليهما مظاهر الاغتباط والطمأنينة •

ولما لاحظت شرطة هوليوود أن الاوراق ما يتعلق بالشيوعيين أرسلتها الى كابتن وليم •ف• هينز رئيس مكتب المخابرات التابع لشرطة لوس انجلوس • فلما فحصها الكابتن قرر عرضها على ميجر جنرال (متقاعد) ر•هـ• فان ديمان من الجيش ويقيم فى سان دييجو •

وجنرال فان ديمان الذى يعتبر أبا للمخابرات الحربية والذى مارس نشاطه في وشنطن بالرغم من العقبات الشديدة فى بدء الحرب العالمية ثم باشر المخابرات فيما بعد الجنرال بيرشنج فى أوروبا • أخذ يواصل اهتمامه ونشاطه فى المخابرات حتى بعد تقاعده فى أوقاته الخاصة • وعندما وصلت

الى سان دييجو لتسلم عملي كضابط للمخابرات فى قسم البحرية الحادى عشر وجدت في الجنرال فان ديمان موردا للمعلومات والخبرة والنصائح الطيبة • فكان من الطبيعي أن أقضى ساعات طويلة فىمكتبة منزله استوعب المواعظ والحكم التى لا تتوفر في أى مكان آخر حتى فى أعظم المكتبات • كما كان من الطبيعي أن نشترك فى العمل ضد تلك العناصر التخريبية التى كانت تهدد أمننا القومى •

فلما تسلم المستندات التى أرسلها اليه القبطان هينزا استدعانى فى الحال وقال :

« زاك • هل لك أن تأتى في الحال ؟ فلدى شيء يبدو بالغ الاهمية » • وأجبته :

« سأكون عندك فى مدى عشر دقائق » •

ولدى وصولى أوضح الجنرال ظروف الحادث وعرض على صور الاوراق التى تم نقلها فى شرطة هوليوود وتعرفت من بينها على مستخرجات من تقارير أعدت فى مكتبى منذ ما يقل عن أسبوعين• فتبين لى أن هناك ثغرة ما فى مكتب سان دييجو • وكان لابد من التوقف هنا ثانيا •

فقد كان فى مكتب سان بيدور باحث معين بمقتضى عقد مدنى يدعى هافس سالش وهو رجل كفء نشيط من أصل روسى ولد فىاقليم جورجيا فى روسيا الجنوبية حيث يقيم بعض أقارب له• وسبق أنخدم عدة سنوات أثبت فيها جدارته فى شرطة بركلي وتعلم شيئا من اللغة اليابانية • وكان يعمل قبل وصولى بمدة طويلة بناء على توصيات من جهات عليا •

وفى ذات يوم جاء سالش الى مساعد المخابرات فى سان بدرو وأخبره أنه قد تعرف بمستر جورين وسأل ان كان فى استطاعته أن يواصل صلته به • فلما أدركت أن هناك احتمالا « للضبط » عن طريق العلاقات العائلية أصدرت التعليمات بأنه لا يستطيع مقابلة جورين فى أى مكان بمفرده ولا بد أن يكون أحد موظفى المكتب برفقته •

وفى ذلك الوقت جاءت زوجة سالش الى مكتب سان بدرو تشكو من بعض متاعب عائلية وقالت ان سالش يقضى ساعات طويلة فى لعب الورق وأنه دائما فى حاجة الى النقود •

ومثل هذه الظروف عادة لا تترك أثرا طيبا فى منظمة للمخابرات . وبذلك كان من الطبيعى أن تكمل الصورة أمامى عندما عرض على جنرال فان ديمان التقرير الخاص بالاوراق التى كانت فى حوزة جورين . ولم يكن من الصعب اذن اكتشاف أن سالش كان يجتمع بجورين على انفراد مما يخالف التعليمات الصادرة اليه . وأنه كان يتسلم نقودا من جورين نظير الاوراق التى كان يكتبها على الآلة الكاتبة فى مكتب سان بدرو . وكذلك كان من الواضح أنه خسر مبلغ ال ١٧٠٠ دولار فى لعب الورق . فلما واجهنا سالش بهذا الدليل اعترف وتم اعتقاله .

ومضى بعض الوقت قبل أن يتمكن النائب العام من الحصول على اذن بالقبض على جورين . ثم تم له ذلك أخيرا ولم تكن هناك صعوبات فى تقرير اتهام كل منهما . وأما مسز جورين فلم يكن هناك وجه لاقامة الدعوى عليها وبرئت . ثم ان جورين عندما كان مطلق السراح نظير كفالة قدرها خمسون ألف دولار « اختفى » واتخذ سبيله الى روسيا عن طريق البحر .

أخذت المسئوليات تزداد يوما بعد يوم على كاهل ضابط مخابرات القسم على الساحل الغربى حيث استمر تدفق عملاء اليابان وأخذ العملاء المقيمون يزدادون جراة على مر الايام . وتم تنظيم شبكة التجسس على أوسع نطاق بمختلف درجات أفرادها بحيث أصبحت مقر رئاستها فى واشنطن تتصل بطوكيو مباشرة وتتسلم التعليمات اللازمة من هناك . وفى الطبقة التالية التى تقل عن هؤلاء بعض الشىء كان الملحقون ومنظمات المخابرات المختلفة التى كانت تمارس نشاطها فى صورة شبه علنية فى خمس مدن أمريكية . وهذه الوكالات كانت «ادارات تفتيش» الجيش والبحرية فى نيويورك . ومكتب أبحاث القطن فى هوستن وتكساس . ومنظمات أخرى شبه تجارية فى شيكاغو وسيتل وسان فرنسيسكو . وأقل درجة من هذه المجموعة من العملاء من ذوى المكانة كانت مجموعة طلبة اللغات . وكثير من هؤلاء كان فى مواضع استراتيجية على الساحل الغربى . وبمعنى آخر هؤلاء الطلبة ليسوا سوى ضباط فى البحرية الامبراطورية اليابانية وكانوا أهم القوى العاملة فى الميدان يقيمون الصلات ويستغلونها الى أقصى حد . ويشرفون على الجواسيس الهواة والذين تلقوا تدريبا سريعا فيجمعون معلومات تافهة لا تفيد كثيرا . وكانت القنصليات اليابانية على نفس المستوى ولها نفوذ كبير على المدنيين اليابانيين المنتشرين على الساحل الغربى وفى قدرتها ارغام العملاء المتكاسلين والمترددين على العودة الى أوطانهم

ليقوموا بعمل مناسب هناك ، أو تستخدم طرق الاقناع المتبعة فى نادى (طوكيو) وهو حلقة للمقامرة وتعاطى المخدرات وتمتد على طول الساحل الغربى ولديها رجال يصلحون لهذه المناسبة الضرورية وكل أعضاء النادى من المواطنين اليابانيين الذين يمكن ترحيلهم الى بلادهم اذا لزم الامر والذين لهم شيء من النفوذ على الموظفين اليابانيين • ويساهم هذا النادى فى تمويل نشاط الجاسوسية فى هذه البلاد • ثم أن أقل الطبقات حيث يكثر عدد الافراد بصرف النظر عن مؤهلاتهم هى المجموعة الكبيرة التى يجند زعماء شبكات المخابرات عملاءهم من أفرادها • وبينما الاغلبية الكبرى من اليابانيين كانت تقاوم هذا الضغط الذى أصبح غير محتمل فى بعض الأحيان • وخاصة بين الاجانب المقيمين معهم • خضعت الاقلية الى ضغط التهديدات وجاءوا بمعلومات حيثما اتفق •

ثم ان اهتمام المخابرات اليابانية بكثرة عدد أفرادها حط من شأنها وفاعليتها فى الولايات المتحدة • كانوا يهتمون بجمع معلومات الى أقصى حد ممكن وعلى ذلك لا يقدرون قيمتها ولا يدركون كنهها الا قليلا • وطال النزاع بين المعرفة وبين المعلومات ذات القيمة فتفوق اليابانيون فى المعرفة ولكنهم لم يحققوا الا الشيء اليسير فى ميدان المعلومات •

كانوا يؤدون مهمتهم فى سهولة ويسر لان ما كانت تعتبره الدولة سرا يتعلق بأمنها القومى كان متوفرا فى الولايات المتحدة بصورة علنية • وفى اطار هذه الحقيقة يجدر بنا أن نستعرض المنافع والمضار بالنسبة لنا اذ أنه فى اعتقادى أن المنافع تزيد فى قدرها عن الاضرار • وخلال السنين التى قضيتها فى عمل المخابرات كان العملاء الاجانب ممن اتصلت بهم يشكون جميعا بصورة غريبة • وصرحوا لى بأن الولايات المتحدة هى أصعب هدف لاى عميل فى الجاسوسية • وذلك لانه بينما كنا فريسة سهلة للجاسوسية • كنا فى الوقت نفسه نجابه العميل بمهمة يراها فى متناول يده ولكنها فى الحقيقة بعيدة المنال •

وذكر أحد البارزين من عملاء الالمان (فون رينتلن) لاحد أصدقائى انطباعاته فقال : « ليس لدى الولايات المتحدة أسرار ـ من حيث النظرة السطحية ـ لا يمكن لاى عميل أجنبى يقظ أن يحصل عليها • فان زيارة لادارة مطبوعات الحكومة الامريكية بواشنطن توفر له الحصول على معلومات نظير أسعار اسمية مع أن العملاء فى أية جهة أخرى يجدون مشقة كبيرة فى

تحقيق نفس الغرض • وهناك معظم نشرات الجيش والبحرية معروضة للبيع • كما أن غرف المستندات فى مجلسى الشيوخ والنواب تعد مصادرا أخرى للمعلومات • وغالبا ما كان علينا أن ندفع آلاف الدولارات ثمنا لمطبوعات لتصميمات جديدة للطائرات فى فرنسا وبريطانيا • بينما تمكنا من الحصول على المعلومات المطلوبة من الولايات المتحدة بأسعار تعادل قيمة الصحف اليومية أو الدورية • ولكننا فى نهاية هذا التحليل نجد أن الولايات المتحدة فى أمان من ناحيتنا لثلاثة أسباب » •

وأخذ يوضح هذه الاسباب قائلا :

أولا : الولايات المتحدة بلاد مترامية الاطراف بل هى قارة فى حد ذاتها • مع تطورات تسير ـ فى الوقت نفسه ـ على مسافات تقدر بآلاف الاميال وفى تبديل وتغيير مما يدعو العملاء للمراقبة بصورة مستمرة • ولكن كيف يتسنى لاية دولة أجنبية اعداد ذلك العدد الكبير من الجواسيس فى الولايات المتحدة للقيام بالمراقبة على وجه مرضى ؟ اذ يحتاج الامر الى مئات من العملاء الاكفاء ينتشرون فى تلك الارجاء الشاسعة للبحث فيما يجرى هناك • ولا يمكن لاية مخابرات أن تركز مثل هذا الجيش الضخم من العملاء الممتازين فى دولة واحدة •

والسبب الثانى فى الفشل فى النهاية هو الطابع المرتجل لنظام الدفاع الامريكى • حيث أن النظام المتبع فى وقت الحرب يختلف اطلاقا عن النظام المتبع فى زمن السلم • والقوات التى تعد نواة للجيش فى زمن السلم لا يمكن مضاهاتها بتلك الجيوش الجرارة ورجال البحرية التى تقذف بها الولايات المتحدة الى الميادين أو ترسل بها عبر البحار فى حالة الطوارىء ويقينا أن الولايات المتحدة تبدأ حروبها فى أية لحظة وفى أقرب فرصة وفى هذه الحالة تصبح المعلومات التى جمعتها المخابرات الاجنبية وقت السلم لا جدوى منها وتكون عديمة النفع وقت الحرب حيث تكون الجاسوسية مشقة كبيرة وتكاد تكون أمرا مستحيلا • وفضلا عن ذلك فان أمريكا بلاد دائمة الحركة ليس بها شىء مستقر ثابت وخاصة فى أوقات الازمات مثل فترات الحروب • فالخطة التى توضع اليوم تصبح فى الغد غير صالحة ويستبدل بها خطة أخرى قد تكون أفضل أو أوسع نطاقا • فما هى الفائدة من الحصول على تفاصيل خطة تصبح فى الغد غير ذات موضوع ؟ ان النجاح فى هذا الارتجال والابتكار مما يخجل المخابرات الاجنبية سواء من الناحية العقلية أو التطبيقية • وحاولنا فى ألمانيا أن نكشف السر فى

هذه الظاهرة الغريبة وهى مقدرة أمريكا على التحول من كفايتها وقت السلم الى نوع آخر يختلف اختلافا بينا فى كفايتها فى زمن الحرب • وقد أرسلنا رجلا الى الولايات المتحدة لدراسة وتحليل هذا التحول الغامض فى الشئون المادية والادبية من حالة السلم الى حالة الحرب فى سنة ١٩١٧ ، فكان كل ما وصل اليه هو المقدرة الفطرية للامريكى على تهيئة نفسه لجميع الظروف ولممارسة نفس الكفاية فى كل المواقف • وان أمريكا لا تزال بلادا للرواد ومن الصعب جدا تتبع حركاتها وتطوراتها •

والسبب الثالث • صدق أو لا تصدق • هو وفرة المواد التى تزود بها أمريكا ادارة المخابرات • اذ يتدفق منها آلاف من صفحات الاوراق كل يوم الى منظمات المخابرات فى الخارج وكلها تذيع بعض معلومات سرية فى الظاهر • ولكن من يستطيع تفنيد كل هذه المعلومات وينتقى منها الصواب وغير الصواب ؟ ونحن نعلم دائما أنه كلما زاد مقدار المعلومات لدينا كلما اختلط علينا الامر • وذلك لان تنسيق المواد الواردة يكلفنا مشقة أكثر من المعلومات المحدودة فى أية منظمة للمخابرات •

وهذا السبب الثالث عنصر ثابت فى المميزات الوطنية للشعب الامريكى فهم قوم يحبون أوطانهم دون مغالاة • وبينما هم مغرمون بالثرثرة فهم يعرفون كيف ومتى يلتزمون الصمت • وفى فرنسا لم نجد صعوبة فى تجنيد العملاء من الاهالى من العناصر المنشقة والتى تعارض فى نظام الحكم بينما فى الولايات المتحدة نجد حتى المحترفين يمتنعون عن تأدية خدمات لأية منظمة أجنبية للجاسوسية • والعميل الاجنبى عند مجيئه الى الولايات المتحدة لاول مرة يفيض ارتياحا وسرورا بما يظهر بين متوسط الامريكيين من الرغبة فى الحديث حول ما يعتقده الاجنبى من الشئون الخطيرة • فأن ما يدور من الحديث فى صالونات واشنطن أمر لانهاية له • والقوم يفخرون بما يحققونه من المكاسب أو يشيدون بجهود أقاربهم أو معارفهم الذين يعملون فى استحكامات الدفاع أو فى مشروع سرى لصالح البلاد • ولكن عند تصفية هذه المعلومات وتحليلها يتضح أنها لاتخرج عن أحاديث جوفاء واشادة تنطوى على المبالغة وثرثرة لا طائل تحتها وليست أمورا يمكن أن تركن اليها منظمة المخابرات ، بل على النقيض تكون سبيلا لتضليل العميل وارتباكه فيجد نفسه عاجزا عن التفرقة بين المواد النافعة وبين غير النافع •

وبطبيعة الحال هناك سبب آخر وهو كفاية المنظمات الوقائية مثل المخابرات المضادة فى الجيش وادارة المخابرات البحرية وادارة المباحث كمخابرات الخزانة ومفتشى البريد وادارة الجمارك الامريكية والمكتب الفدرالى للابحاث وكل هؤلاء يجدون العون من المواطنين المخلصين والذين ثبت أنهم مراقبون أذكياء ومخبرون بارعون . وأخذ الالمانى يشكو قائلا :

فكيف يتسنى حتى لاحسن عميل أجنبى أن يخترق هذه السدود بالوسائل المتوفرة لعميل يعتمد عادة على مواهبه ويعمل فى أقطار نائية وبينه وبين مقر رئاسته صلات واهية ؟

فى نظرى أن هذه الاسباب المفصلة والتى دعت الى فشل المخابرات الاجنبية تبدو أنها آراء فردية الى حد بعيد وتوضح أننا كنا فى أمان من عملاء الاجانب بسبب تقصيرنا فحسب . وصحيح أن امتداد أطراف بلادنا وطبيعة استعداداتنا المرتجلة مما تصعب معها مهمة العميل الاجنبى . وان يقظة مخابراتنا ومنظمات مباحثنا مما تجعل مهمته عسيرة . ولكننا نلجأ الى كثرة اللغط والكلام من باب التسلية . وصحيح أن صحافتنا تذيع أكثر مما يجب . وبينما نحن فى أمان الى حد ما عن طريق الكمية الهائلة من المواد التى نوفرها لعدو محتمل لا نزال نمكنه من التقاط معلومات تكفى لتقدير موقفنا وقد تكشف عن مقاصدنا . ونحن قوم نمتاز بطيبة القلب وسلامة النية . وهاتان الميزتان تعرضنا لعدو محتمل وتجعل مهمة منظمات دفاعنا أمرا عسيرا .

وتلك كانت مهمة واسعة النطاق فى سان ديجو وهى التى عهد بها الى مكتبى لمباشرتها . فقد كانت المنطقة تمتد على طول الساحل وتبعد عنه كثيرا الى داخل البحر . ومما يذكر أن اليابان كان لها أسطولان . أحدهما الاسطول المتجمع فى المياه النائية . والآخر هنا على أبواب البلاد عبارة عن اسطول صيد ضخم عند الساحل الغربى . وحقا كان أسطولا « للصيد » ولكن فى الخفاء . اذ كان يؤدى أغراض الاسطول الاول ويقضى معظم أوقاته حول سواحل أمريكا الشمالية والوسطى بما فى ذلك بنما حتى قيل ان وجوده فى تلك المنطقة بنوع خاص لم يعد محتملا .

وكانت سفن الصيد هذه تقوم بمهمات متنوعة . أولا هى على اتصال دائم بالمخابرات اليابانية بنقل الرسائل عن طريق التجار اليابانيين الذين على اتصال بهذه السفن فى أعالى البحار . وكانت تقوم بنقل العملاء

وتأتى بهم متنكرين فى ثياب صيادى السمك • ومن المفروض أنه كان من بين هؤلاء الصيادين البسطاء كثير من الضباط اليابانيين • وكان من الصعب فحص حالات هؤلاء بسبب كثرة عددهم وبسبب نقص أجهزة تحقيق الشخصية لدينا • وكانوا يستأجرون مياهنا سواء فى حدود الثلاثة أميال أو أكثر من ذلك ويعرفون مواقع الصخور والاماكن الضحلة أو أى عقبة أخرى تقف فى طريق غواصة أو أسطول مهاجم • ومن هؤلاء الصيادين تمكن مكتب رسم الخرائط البحرية فى طوكيو من الحصول على المعلومات الاضافية اللازمة والتى لم تصلهم عن طريق التبرعات المنتظمه التى يقوم بها مكتب الخرائط لدينا •

وكان نشاط هذا الاسطول الجرىء حول ساحلنا الغربى سببا فى قلق الادارة البحرية • فأرسلت فى ابريل سنة ١٩٣٩ للحضور أمام المجلس التشريعى فى كاليفورنيا فى سكرامينتو لتقديم وجهات النظر الرسمية التى لادارتنا أمام اللجنة المشكلة — لبحث هذا الامر •

حتى اذا اقترب موعد ظهورى أمام اللجنة امتلأت ردهات المجلس بالاجانب ممن يعملون فى البحر • اذ لفت أنظارهم الى المجلس الموضوع الذى كان قيد البحث • وهو اقتراح بمنع الاجانب من ممارسة الصيد حول الساحل الغربى • وكان هذا يؤثر على كثير من أهل البرتغال والايطاليين الذين كانوا — مع اليابانيين — يشكلون العناصر الهامة فى هذه الصناعة • فكانوا من اليقظة بحيث أرسلوا معضدين لهم استعدادا لجميع الاحتمالات •

وبعد أن شرحت الاخطار التى تحيط بالموقف بلغة سهلة واضحة وعلى الاخص فيما يتعلق بقوارب الصيد اليابانية ووجهت بسلسلة من الاسئلة • فسئلت ان أبين فلسفتى السياسية • فقلت ان الضابط البحرى ليس من المفروض أن يكون لديه هذا الايضاح • وبدا أن اللجنة قررت تأييد هذا الاتجاه الاجبارى فكانت الاصوات ٧ : ٧ حول هذا الموضوع الذى يعد حيويا بالنسبة الى أمننا القومى • واعتبر خصومنا أن هذا موضوع قومى أكثر من أن يكون من الشئون الرسمية •

وفى ربيع تلك السنة عندما تجمعت سحب الحرب فى أوروبا تقدمنا الى الكونجرس بطلب اعتمادات مالية لتغطية هذا الموقف • وفى اتصالاتى بالكونجرس كنت أجد دائما أن لجنة « المخصصات » ترغب فى منح

الاعتمادات اذا كانت هناك ضرورة ملموسة . وفي هذا الظرف الخاص عرضنا على رجال الكونجرس بعض المستندات الاصلية التي حصلنا عليها من عميل ياباني . وتدل على أن هذا العميل بالذات قد اتخذ اجراءات كاملة لاستخدام أكبر عدد ممكن من سفن الصيد في حالة العدوان . فأثيرت مشاعر أعضاء اللجنة . وتمت الموافقة على طلباتنا . وسئلنا :

كم تطلبون ؟ مليون دولار ؟

ولكننا أكدنا لهم أن مبلغ ٢٥٠٠٠٠ر دولار يكفي لسد حاجات منظمتنا الآخذة في الاتساع . وأدت الاحداث في أوروبا الى اتساع دائرة النشاط على الساحل الغربي أيضا . ورأينا أن لا بد من تعبئة ضباطنا الاحتياطيين باستدعاء أفراد معينين للخدمة ومساعدتنا في الحرب الصامتة ضد تلك الجموع المتزايدة من عملاء العدو من يابانيين وألمان وايطاليين . اذ يتضح أن هناك علاقة مؤكدة بين المجموعات الثلاث عندما وصلتنا مذكرة بالبريد تثبت لنا امتداد هذا التعاون بين الدول الثلاث . وكانت المذكرة بلغة الاطفال من تلميذ من أصل ياباني . وذلك في مستهل الحرب العالمية الثانية . وأوضحت المذكرة في تفاصيل توجب السخط والاستياء خطورة الموقف من ناحية واحدة هي الجاسوسية الشاملة . وحتى بعد عدة سنوات كان لهده المذكرة مغزاها التي انطوت عليه في سنة ١٩٣٩ ، وهي اليوم مستند تاريخي في حد ذاته . كتاب أزرق يثبت العدوان كما تبين لولد صغير خائف لم يمنعه أصله الياباني من أن يكون أمريكيا مخلصا وكان ختم البريد من كاليفورنيا في ٢٣ من فبراير عام ١٩٣٩ ، هو خطاب هام منذر للاذهان . ومن الممكن نشره هنا كاملا ولكننا نخشى أن تكشف الادلة التي يحتوي عليها عن شخصية هذا الغلام الشجاع لبعض العناصر العدوانية ولو أن الخطاب كان غفلا من الامضاء . ولكن مستخرجا مناسبا من الخطاب تركته في أنفسنا انطباعا بأهمية هذا المستند . وكان هذا الجزء كما يلي :

ذات .. يوم يأتي الينا .. يابانيون .. ايطاليون .. وألمان .. لم أسمع كل شيء ولكنه أمر يتعلق بالحرب . اليابانيون يحطمون سدود المياه وخطوط الدفاع .. تثير اليابان القلاقل في الجزر الفرنسية . وكذلك ايطاليا تستولى على قلاع البحر المتوسط . وتقوم ألمانيا بدعايات واسعة النطاق في أمريكا الجنوبية وقد تقذف اليابان جوام بالقنابل . ولها الآن عدد كبير من الجنود بالقرب من الجزيرة ومعهم القوارب المعدة لنقل الرجال والمدافع بسرعة بعد أن تستولى السفن اليابانية على الجزيرة . وهؤلاء

الرجال يمعنون فى شرب الخمر ويتحدثون عن أمريكا حديث الشر وما سوف يحدث فى أوروبا ونيويورك • وكلهم يعملون على مد نطاق الاسطول والقيام بقذف القنابل وقبل أن يستعد الديموقراطيون للأمر يسرعون بتنفيذ ذلك اذ أننا على غير استعداد لحرب كبرى وهؤلاء الحمقى لن ينتظروا بل يسرعون بالحرب قبل أن ينبئوا أحدا بالامر أولا ••

فهذه المجموعات الاجنبية وما تقوم به من استعدادات تامة والتى كانت موضع اشتباهنا فترة طويلة • تشكل خطرا جسيما علينا اذ بدأت الاعمال العدوانية بين اليابان والولايات المتحدة • ولكننا وضعنا الخطط بحيث نعمل على احباط تحركات المخربين فى المستقبل • وذلك بالقيام باغارات سريعة على المشتبه فى أمرهم وتطويقهم • وبتهيئة الوسائل التى تكفل حماية التركيبات والاستحكامات الحيوية • وكان من المعتقد ألا تتخذ هذه الاجراءات الاستثنائية قبل أن تتخذ اليابان خطوتها الاولى • وكما هو موضح فى مكان آخر كان من المتوقع أن تبدأ اليابان بالعدوان بهجوم جوى على اسطولنا دون انذار سابق أو اعلان للحرب • ومثل هذا الهجوم سوف يدعونا لاتخاذ الاجراءات لمقاومة أى تخريب قبل أن يبدأ العدو فى العمل • ثم ان الاضطرابات وأعمال التخريب تحتاج فى تنفيذها الى تخطيط محكم وقيادة رشيدة • والهجوم الجوى لابد أن يحاط بالسرية التامة مما لا يتيح للعملاء الانذار به مقدما وبذلك تضيع منهم الفرصة للقيام بعمل ناجح •

وكم كان هذا الخطاب الغفل من الامضاء نافعا لنا • اذ حقق لنا غرضا هاما بزيادة وعينا ويقظتنا لما نتوقع من أحداث طارئة • وأستطيع أن أصرح بأن الكاتب لم يتعرف عليه أحد بعد • ثم ان الادلة المذكورة بالخطاب جعلت الامر يتعلق بالمباحث اطلاقا أكثر مما يخص المخابرات المضادة • وبذلك حولناه الى ادارة أخرى للتصرف • واذا تسنى للكاتب أن يطلع على هذه السطور فانى أكون ممنونا جدا اذا تعرفت بشخصيته لأقدم له آيات الشكر والتهنئة على ولائه ومساهمته فى صيانة أمن البلاد .

تم الجزء الأول